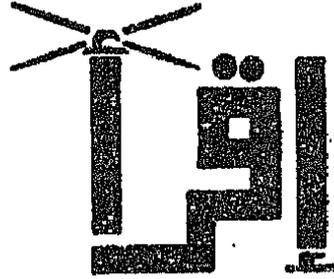


د. لويس عوض

جلد الشرق والغرب

اقرأ





تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر



د. لويس عوض

رحلة الشرق والغرب

اقرأ ٣٥٤

دار المعارف بمصر

اقرا ٣٥٤ - يونيو سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الباب الأول

رحلاتي الروسية

الفصل الأول

١٠ أيام في يوجوسلافيا عتبة أوروبا الاشتراكية

كان قدراً أن أكون آخر من زار روسيا من الأدباء المصريين المعروفين . وقد بدأ الروس يستقبلون في بلادهم أدباء مصر منذ سنة ١٩٥٥ ، وكان المرحوم الدكتور محمد مندور رئيس أول وفد من الأدباء المصريين يزور الاتحاد السوفيتي . منذ ذلك التاريخ سافرت وفود وفود بدعوة من اتحاد الكتاب في روسيا ، وعقدت مؤتمرات ومؤتمرات في الاتحاد السوفيتي ، وكانت تأتي الأنباء بين الحين والحين أن اتحاد الكتاب قد وجه إلى دعوة بالاسم ، ثم يشبت أن هذا غير صحيح ، أو أن الدعوة لم تصلني ، وكنت أحس إحساساً واضحاً بأن في ثقافتى فجوة عميقة . كنت كالكثيرين أعرف الكثير عن الأدب الروسى من بوشكين إلى جوركى عبر تولستوى ودوستويفسكى وجوجل وتورجنيف وتشخوف ، وكنت كالكثيرين أحاول أن أعرف شيئاً عن الأدب الروسى منذ الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧ من يسنين إلى يفتوشنكو عبر ما ياكوفسكى وباسترناك وإهرينبورج . . . إلخ . . .

وكنت أعرف الكثير عن الفكر الماركسى والنظام الشيوعى نظرياً

وعملياً ، ما لهما وما عليهما ، من قراءتي في ماركس وإنجلز ولينين وبلخيانوف وبوخارين وروزا لكسمبورج وستالين وتروتسكى وماكس إيستمان وسيدنى وبياتريس ويب وشارل بتلهاييم ، ثم ما استجد من اجتهادات في الثلاثينيات (هولدين وبرنال وهوجبن) والأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، فقد كنت دائماً ولا أزال من هواة الفكر الاجتماعى والسياسى . وكنت أقرأ المعارضين والمنقحين والمراجعين والمنحرفين بنفس الحماس من كاوتسكى إلى جيمس بيرنهام ومن سيلاوفى وكيسلر إلى جورج أورويل . وما زلت أقرأ اجتهادات لوكاتش وجارودى وألتوسير بنفس الحماس . ولكن ليس من رأى كمن سمع . ولهذا كنت دائماً أحس بأن أى حكم يطلق على المجتمع الاشتراكى السوفيتى أو الفكرة الاشتراكية السوفيتية هو بغير قيمة حقيقية ما لم ير المرء كل هذه الأفكار وتطبيقها على الطبيعة .

ومنذ عام زارنى فى « الأهرام » الرفيق سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » ودعانى لزيارة روسيا على نفقة مجلته ، فأبدت له تحفظى من قبول الضيافة وأضفت : « لكل شىء أوان ، وأنا لست متعجلاً ، ولكن عندى يقيناً بأنى سأزور الاتحاد السوفيتى فى يوم من الأيام . . على كل حال قبل أن أموت » ، فضحك الرجل السمين لتوجسى ضحكة سميئة .

ولم أكن أعلم أن هذا اليوم قريب . وقد جاء اليوم فجأة ودون ترتيب . فقد زارنى فى مكتبى بالأهرام منذ شهرين أو ثلاثة مسيو بتكوفيتش المستشار الثقافى للسفارة اليوجوسلافية وتفضل بدعوتى لزيارة بلاده بمناسبة

حاول مهرجان الفنون السنوى فى دبروفنيك خلال يوليو وأغسطس ١٩٧٠ فقبلت الدعوة شاكراً دون تردد . ثم عجبت لقبولى الفورى برغم أنى ، بمنتهى الصراحة ، لم أكن متحمساً بصفة خاصة للتجربة اليوجوسلافية فى الاشتراكية ، ولم أكن بصفة خاصة من هواة الثقافة اليوجوسلافية ، ولم يكن فى يوجوسلافيا - بلداً أو شعباً - شىء يلهب خيالى أو يسحر وجدانى حتى يلهينى عن مبدأ رفض كل ضيافة . وبعد أن استعرضت الموقف فى هدوء زال عجبى . . لقد كنت دائماً أتعاشى الأغنياء وأتوجس من الأقوياء ولا أقبل جميلاً إلا ممن هم فى طبقتى . ولم يكن فى اليوجوسلاف شىء يخيفنى كمصرى ، فنحن شعبان صغيران ناميان ، وإذا كان لهم فضل الحداثة فلنا أيضاً فضل القدم . ووافقنى الأستاذ هيكل على أن تكون رحلتى اليوجوسلافية بداية مناسبة لرحلتى الروسية على نفقة الأهرام . وما دمتنا مع الاشتراكيين فلننظر إلى الاشتراكية فى كل مكان ، لا أقول فلندرس وإنما أقول فلننظر فكل هذا لا يمكن أن يدرس فى شهر واحد . وقررت أن أبدأ بيوجوسلافيا ثم أدخل إلى روسيا ثم أزور بولندا ثم أعرج على ألمانيا الشرقية ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا ثم أعود .

وفى ١٥ يوليو وجدتنى فى مطار بلجراد أنتظر من ينتظرنى . فقد كان من المقرر أن ينتظرنى فى المطار مرافق موفد من وزارة الثقافة اليوجوسلافية أو من الإدارة المنظمة لمهرجان دوبروفنيك ، ولكن أحداً لم يظهر ، قيل فيما بعد لأن شركة الطيران العربية المتحدة أجلت موعد سفر طائرتى ٢٤ ساعة . وكنت أتميز غيظاً وأضطرب قلقاً . أكلم الناس

بالإنجليزية فلا يفهمون". وأجرب الفرنسية فلا يفهمون ، ووجدت نفسى فجأة فى عالم غريب لا أعرف فيه أحداً أو شيئاً أو عنواناً، وجميع أدوات الإرسال والاستقبال بيى وبين العالم معطلة فيما خلا لغة الإشارة . وأخيراً وضعت نفسى فى تاكسى وقلت « هوتيل » ففهم السائق وحملنى إلى هوتيل سلافيا . وما إن وضعت حقائبى حتى انطلقت بتاكسى آخر إلى السفارة المصرية ببلجراد لأستعين بها على المجهول اليوجوسلافى ، أى لتصلنى السفارة بوزارة الثقافة اليوجوسلافية أو بمنظمى مهرجان دوبروفنيك فوجدت سفارتنا خاوية على عروشها تحفها السقايل والملاط وصفائح البوية من كل جهة ومن داخل الحجرات والدهاليز والقاعات ، فقد كانت بها « عمرة » شاملة ولم أجد بها إلا سكرتيرة يوجوسلافية شابة تعرف الإنجليزية ولا تريد أن تحرك ساكناً . وعرفت أن أمور السفارة تصرف مؤقتاً من بيت السفير . فعدت إلى الفندق وبحثت بين أوراقى عن خيط يصلنى بالعالم الخارجى فوجدت رقم تليفون الزميل فريد كامل مراسل ا.ش.ا. فى بلجراد .

ونخف إلى فريد كامل على عجل ، وفى أقل من ساعة خرجت من هذه الورطة الغربية . فى أقل من ساعة نخف إلى المرافق المترجم المعين لمساعدتى واتفقنا على برنامج الرحلة .

وخرجت أتجول فى مدينة بلجراد فوجدتها مدينة جديدة نظيفة باهتة بلا شخصية ، بها بعض العمائر الأثرية القليلة ، ولكن طابعها العام حديث ، وأبرز ما فيها عساكر المرور الذين ينظمون المرور فى

ميادينها الفسيحة كأن كلا منهم يقود أوركسترا من السيارات ، كذلك أبرز ما فيها أن يوم العمل بها يبدأ في الساعة السابعة صباحاً فإذا نظرت من نافذتك بالفندق في السادسة صباحاً رأيت الشوارع مكتظة بالسيارات وبالمرارة ، كل يسعى لعمله وكأنك في الساعة التاسعة في أحد ميادين القاهرة الكبرى . وسرعان ما أدركت برغم عوائق اللغة أنى وسط شعب معقد التكوين ، لأنه متعدد القوميات ، متعدد اللغات ، متعدد الثقافات ، متعدد الأبجديات ، متعدد الأديان ، فقى يوجوسلافيا ٢٠ مليون نسمة ينقسمون إلى ستة شعوب مختلفة يضمها إطار سياسى واحد ، وهذه الشعوب هى الصرب (نحو ٨ ملايين) والكروات (نحو ٤,٥ ملايين) وسكان ساوفينيا (نحو ١,٧ مليون) والبوسنة والهرسك (نحو ٣,٥ ملايين) ومومنتنجرو أى الجبل الأسود (نحو نصف مليون) ومقدونيا (نحو ١,٥ مليون) . وهناك قومية إسلامية قوامها نحو مليون مسلم إلى جانب المسلمين المندرجين تحت القوميات الأخرى . هذا بالإضافة إلى الأقليات القومية الأخرى التى تعيش فى يوجوسلافيا كالأتراك (نحو ربع مليون) ، والمجر (نحو نصف مليون) ، والغجر (نحو ٤٠ ألفاً) والألبان وغيرهم وهم يمثلون نحو عشر سكان البلاد ، وقد سمعت أن الغجر فى يوجوسلافيا قد رفعوا شعار : « ياغجر العالم اتحدوا » وأنهم يطالبون بوطن قومى للغجر وبجمهورية غجرية داخل الإطار السياسى اليوجوسلافى . والقوميات الرئيسية فى يوجوسلافيا تعيش فى جمهوريات شبه مستقلة داخل إطار الجمهورية اليوجوسلافية التى يرأسها الرئيس تيتو . فإذا عرفت

أن يوجوسلافيا في مجموعها لم تولد كدولة إلا عام ١٩١٨ بموجب معاهدة فرساي التي قننت تجميع كل هذه الأشتات في دولة واحدة ، ذهلت أن تجد هذه الدولة الملتفة التي كانت مقسمة بين تركيا واليونان والنمسا والمجر تسعى نحو وجود سياسي واحد ونحو هدف قومي واحد . وفي اعتقادي أنها لم تنجح في تحقيق هذه الوحدة السياسية إلا بفضل اعترافها بالشخصيات القومية المختلفة وبالثقافات القومية المختلفة التي يتألف منها الاتحاد . فلو أن الكروات حاولوا طمس ثقافة الصرب أو أن الصرب حاولوا طمس ثقافة المقدونيين . . إلخ . لتمزقت يوجوسلافيا وتفسخت قبلما تقوم لها قائمة .

ولأن يوجوسلافيا دولة جديدة فعاصمتها بلجراد عاصمة جديدة أيضاً . . واسم يوجوسلافيا اسم حديث لا معنى له إلا « بلاد السلاف الجنوبيين » تمييزاً لهم من سلاف الشمال ممن تجدهم في روسيا وغيرها ، فالعصر الغالب في يوجوسلافيا إذن هو الجنس السلافي ، ومن هنا كان اليوجوسلاف بوجه عام ثقال العظام كالروس ولكن بيئتهم الجبلية جعلتهم أكثر خشونة وغلظة وأقل وسامة وأطول ألواحاً من الروس ومن كافة السلافيين في تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وقلما تجد بينهم رجلاً أو امرأة يتميز بالدقة أو الرشاقة في التكوين الجسماني ، ولكن الجميلات من نسائهم جمعن بين الجمال والجسم الرياضي الذي لم تتلقه المدنية بعد . وإحساسهم أن تكوينهم الجسماني الجبلي ينعكس أيضاً في سلوكهم وسيرهم وحركتهم بوجه عام .

أما بلجراد نفسها ، فرغم أنها عاصمة جديدة ، صغيرة التعداد نسبيًا (نحو مليون نسمة) ، فيقال لك إنها مدينة عمرها ألفا عام أو يزيد ، ومعناها « المدينة » [جراد] البيضاء [بيو] أو إن شئت أن تقربها للعربية فهي « المدينة البلقاء » والأبيض والأبلاق شيء واحد . وعرفت من آثار بلجراد أن أساس هذه المدينة وضع في القرن الرابع ق.م. أيام فتح قبائل الكلت لهذه المنطقة من البلقان وكان اسمها يومئذ سنجدن ، أى قلعة السنج ، كما أن لندن معناها قلعة اللون ، فكلمة « دون » تعنى قلعة أو حصناً في لغة قبائل الكلت ، فهي إذن بدأت كتحصينات حربية ، وقد أدرك الترك قيمتها العسكرية فيما بعد وأنشأوا فيها تحصينات تعرف حتى الآن باسم كلاميجدان ، وهى كلمة تركية يقول من رأيهم من المصريين أنها تحريف لعبارة « قلعة الميدان » العربية أما مرافق اليوجوسلافي فيصر على أن الكلمة تركية صميمية معناها الحرفى « معسكر القتال » أو كما نقول نحن « ميدان القتال » ، والله أعلم . وعلى كل فأخواننا المصريون قد تعودوا منذ سنوات قريبة أن يروا العرب ولغتهم وراء كل أكمة وخلف كل شجرة من بلاد الصنوبر إلى بلاد البنجوين . وقد حدثنى السيدة المشرفة على مهرجان دوبروفنيك ، قالت إن شاباً مصرياً فسر لها أصل اسم دوبروفنيك بأنه مادامت « دوبرو » فى اللغة اليوجوسلافية معناها « الغابات » وما دام العرب قد عرفوا « البندقية » فاسم دوبروفنيك إذن مأخوذ من العربية ، ومعناها إذن « بندقية الغابات » [بدلا من مدينة البندقية البحرية] ، فضحكت وقلت لها : ربما ،

ولكن إذا كان هذا اشتقاق اسم بلدتك ، فالرومان المتأخرون أو الايطاليون الأوائل لم يكونوا بحاجة إلى العرب ليعلموهم أن بلدتهم فينيسيا كان اسمها فنديكيا ، فقد كان هذا اسمها اللاتيني قبل أن يخرج العرب إلى الأمصار برّاً وبحراً . وعلى كل فلا داعى للخجل ، فهذه الفهاوة المصرية قد لمست نظيراً لها في الفهاوة اليوجوسلافية .

كنت قد طلبت لقاء أديبهم الكبير ايفو اندريتش وسواه من الأدباء المعروفين ، فوجدته في مصحة ووجدت أكثرهم في الأرياف وعلى الشواطئ وفي خارج البلاد . قال محمدي - وهو المقابل اليوجوسلافي للدكتور مجدى وهبة في إدارة العلاقات الثقافية الخارجية - إن ايفو اندريتش يسبب لنا حرجاً شديداً . فمذ أن ماتت زوجته منذ سنوات وهو في حالة كآبة مستمرة ، وقد زهد في الكتابة والحياة ، يدخل المصحات بمعدل مرتين سنوياً وتأتينا الدعوات له من اليابان أو السويد أو غيرها ، فيجيب بأنه قبلها ، وحين يحين موعد رحلته نبحث عنه في كل مكان فنجده معتكفاً في مصحة عازفاً عن لقاء الناس . لقد قال لي مرة إنه منذ وفاة زوجته لا يعرف لماذا يعيش . لقد كف عن الكتابة تماماً . أجبت : لقد لاحظت عليه شيئاً من ذلك . فقد عرفته في القاهرة أيام أن استقبله الدكتور ثروت عكاشة ، ثم تركنا فجأة وطار إلى يوجوسلافيا . قال إنه مريض ، ولكن يبدو أن نوبة الكآبة أدركته .

وركزت على دراسة حالة المسرح في يوجوسلافيا لعلى أجد في تجربتهم المسرحية شيئاً يمكن أن ننتفع منه في مصر ، فتعرفت على المخرج

الناقد الموهوب تشيريلوف وفي أكثر من لقاء حصلت منه على صورة دقيقة للحياة الفنية في يوجوسلافيا .

عرفت منه أن في يوجوسلافيا نحو خمسين مسرحاً محترفاً ، كلها تابعة للدولة ، وليس لديهم مسرح خاص واحد ، وكل هذه المسارح معانة من الدولة ولكن المهيمن على المسارح في يوجوسلافيا ليس وزارة الثقافة وإنما المجالس البلدية في كل جمهورية من جمهوريات يوجوسلافيا الفيدرالية الشعبية . أما في بلجراد نفسها ففيها سبعة مسارح هي :

١ - المسرح القومي وعمره ١٠٠ عام ، وهو ليس مختصاً بالدراما وحدها وإنما يضم فرقة للتمثيل المسرحي وفرقة للأوبرا وفرقة للباليه ، وله حالياً مسرحان ، أو خشبتان ، ويبني له الآن مسرح ثالث ، وهو يقدم سنوياً نحو سبع مسرحيات جديدة وثلاث أوبرات جديدة بالإضافة إلى الإعادات [الريبراتور] ، أما فرقة المسرحية فأعضاؤها نحو خمسين ممثلاً وممثلة .

٢ - مسرح الدراما اليوجوسلافية ، وقد تأسس في ١٩٤٨ وله خشبتان في بلجراد ، مسرح يتسع لسبعمئة متفرج ومرسح يتسع لأربعمئة ، وفرقة المسرحية تضم ٧٢ ممثلاً وممثلة يقدمون على الخشبتين بين ١٠ مسرحيات و ١٢ مسرحية جديدة سنوياً .

٣ - المسرح الحديث أو المعاصر وله خشبتان ، وهو يقدم الأوبريتات والكوميديا الموسيقية كما يقدم العروض الدرامية ، وحصيلته السنوية من ١٠ إلى ١٢ عرضاً جديداً على الخشبتين وبه نحو ١٠٠ فنان وفنانة منهم ٧٠ للتمثيل المسرحي و ٣٠ للغناء .

٤ - مسرح الأتلييه ٢١٢ وقد أنشئ عام ١٩٥٦ ويضم ٢٢ ممثلاً وممثلة وله خشبتان الكبرى سعتها ٤٠٠ متفرج والأخرى صغيرة كمسرح الجيب .

٥ - مسرح الأطفال [إتلييه بوشكويوسا] .

٦ - المسرح الشعري وهو مخصص للدراما الشعرية والقراءات .

٧ - مسرح الدراما القومية وهو مخصص لعرض إنتاج الأدباء

اليوجوسلافيين وتنمية المواهب الجديدة .

أما بالنسبة لتكاليف إنتاج المسرحيات فقد عرفت من المخرج الناقد الشاعر تشيرياوف [وهو أيضاً مدير مسرح اتلييه ٢١٢] ان متوسط الحد الأقصى وتكاليف أكبر عرض عرفه المسرح اليوجوسلافي هي ٣٠٠ ألف دينار يوجوسلافي أى ما يساوى نحو عشرة آلاف جنيه مصرى بخلاف مرتبات الممثلين والإدارة ، وإن إنتاج مسرحية من مسرحيات شكسبير يكلف ما بين ٧٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ جنيه خارج مرتبات الممثلين والإدارة (أى بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف دينار) ، وأن متوسط الحد الأدنى لتكاليف المسرحيات البسيطة هو ٥٠ ألف دينار أى نحو ١٧٠٠ جنيه . أما المسرحيات العادية فينفق عليها نحو ٥٠٠٠ جنيه (١٥٠ ألف دينار) بخلاف مرتبات الممثلين والإدارة . وقد ذكر لى تشيرياوف أن « فى انتظار جودو » وما هو فى حكمها قد كلفتهم ١٠٠ ألف دينار (أى نحو ٣٣٠٠ جنيه) .

كل هذا النشاط المسرحى يشرف عليه فى بلجراد هيئة تسمى « مجلس

الشئون الثقافية » . وكل المسارح يعينها المجلس البلدى باستثناء المسرح القومى الذى يعينه مجلس بلدية بلجراد كما تعينه جمهورية الصرب .

أما الاعانة التى تتلقاها المسارح فى يوجوسلافيا فليست رقماً أصح كل سنة كميزانية الإنتاج والخدمات المسرحية فى هيئة المسرح عندنا ولكنها مرتبطة بحجم جمهور المسرح الذى يدخل طرفاً فى تحديد الإعانة . فالجلس البلدى يدفع لكل مسرح إعانة مساوية لدخله من شباك التذاكر طوال العام ، فإذا كان متوسط ثمن التذكرة المباعة فعلاً ١٠ دنانير وعدد رواد المسرح ١٠٠ ألف شخص دفعت البلدية إعانة قدرها مليون دينار وتشجيعاً للتأليف المسرحى القومى ترفع الإعانة بنسبة ٥٠ ٪ بالنسبة لعرض أعمال المؤلفين اليوجوسلافيين ، كما تدفع البلدية إعانة ابتداءية إضافية قدرها ٥٠٠٠ دينار (نحو ١٧٠ جنيها) عن كل مسرحية جديدة تخرج لمؤلف يوجوسلافى بشرط أن يستمر عرضها عشر حفلات ، وهو مبلغ رمزى ، ولكنهم يعتبرونه حافزاً لإنتاج المؤلفات المسرحية القومية إلى جانب الخمسين فى المائة الإضافية التى تدفع فوق الإعانة المساوية لحصيلة شباك التذاكر . ولكن لكى لا تتسابق الفرق فى بلجراد على استرضاء الجمهور بعرض المسرحيات الرخيصة طمعاً فى شباك تذاكر ضخمة وإعانة حكومية ضخمة ، يخصص المجلس البلدى سنوياً إعانة قدرها مليون دينار (نحو ٣٣ ألف جنيه) بصفة جوائز لأحسن أعمال مسرحية تعرض من حيث القيمة الفنية خلال العام بناء على قرار هيئة تحكيم بصرف النظر عن عدد الرواد لكل مسرحية ، وهذا المبلغ قد يعطى

كجائزة واحدة أو جائزتين أو ثلاث جوائز وقد يصل العدد إلى عشر جوائز. أما حق المؤلف المسرحي فمحدد على الوجه التالي: ١٠ آلاف دينار (نحو ٣٣٠ جنيها) مكافأة يضاف إليها ١٢٪ من حصيلة شباك التذاكر عن كل حفلة يعرض فيها أعماله سواء في موسمها الأول أو في الإعادات. والدولة تنتظر مقابل هذه الإعانات من كل مسرح إنتاجاً كمياً متوسطه خمس إلى ست مسرحيات جديدة كل عام بالإضافة إلى ما بين ١٥ إلى ٢٠ إعادة من مسرحيات الريبوتوار. والمقصود بالمسرحيات الجديدة لا المسرحيات الحديثة التأليف ولكن المسرحيات التي لم يسبق تقديمها على هذا المسرح بالذات ولو كانت من اليونان أو من شكسبير أو راسين أو من المحدثين.

والممثلون يتقاضون في يوجوسلافيا بوجه عام نفس المرتبات التي يتقاضاها المخرجون ويعاملون نفس المعاملة المالية من جميع الوجوه، إلا في جمهورية سلوفينيا، وهي أرقى جمهوريات يوجوسلافيا من الناحية الفنية والحضارية، فإن مرتبات الممثلين فيها تقل عن مرتبات المخرجين بنسبة ٢٠٪، والمخرج الضيف يتقاضى في يوجوسلافيا ما بين ٥٠٠٠، ١٠،٠٠٠ دينار على كل مسرحية يخرجها بحسب مكانته أي ما بين نحو ١٧٠ جنيها و٣٣٠ جنيها، وجدول المرتبات محدد كالتالي: ١٠٠٠ دينار شهرياً للفنان المبتدئ (ممثلاً كان أو مخرجاً) أي نحو ٣٣ جنيها و ٢٠٠٠ دينار (٦٦ جنيها) للفنان المتوسط و ٣٠٠٠ دينار (١٠٠ جنيها) للفنان الكبير وهذه المرتبات تعادل على وجه التقريب ما يتقاضاه أساتذة الجامعات

في يوجوسلافيا ، ولكن للفنانين عادة دخل إضافي من التليفزيون يعادل ضعف دخلهم من عملهم الأصلي ، وقد يصل إلى ثلاثة أمثاله . وجدول مرتبات فناني التليفزيون مطابق لجدول مرتبات فناني المسرح . أما المخرج السينمائي فيتقاضى ١٠٠ ألف دينار عن كل فيلم يخرج (نحو ٣٣٠٠ جنيه) تدخل فيها مكافأة الحوار .

ومقابل المرتب الذي يتقاضاه يشترط على المخرج أن يخرج مسرحيتين سنويًا في مسرحه على وجه الإلزام ويجوز له أن يتجاوز هذا النصاب بالإخراج للمسارح الأخرى أو في مسرحه بمكافأة مستقلة .

وميزانية المسرح القومي ٤ ملايين دينار سنويًا أي نحو ١٣٣ ألف جنيه تمثل إيرادات الشباك منها ٢٠٪ وتمثل إعانة البلدية منها ٨٠٪ أما مسرح الاتلييه ٢١٢ فميزانيته السنوية مليون دينار فقط (نحو ٣٣ ألف جنيه) ٣٠٪ منها من إيرادات الشباك و ٧٠٪ من إعانة المجلس البلدي ، هذا بالرغم من أن المسرح القومي به ١١٠٠ كرسي بينما مسرح الاتلييه به ٤٠٠ كرسي (متوسط المسارح الأخرى نحو ٥٠٠ كرسي) . .

وهذه الإعانة التي تصل إلى ٨٠٪ من ميزانية بعض المسارح ناتجة من أن مرتبات الفنانين والاداريين والفنيين والإضاءة والصيانة إلخ مع نفقات الإنتاج المسرحي تساوي أربعة أمثال دخل الشباك . ولكن تشير ياوف أوضح لي أنه بوجه عام تغطي الإعانة المرتبات ويغطي إيرادات الشباك نفقات الإنتاج . وميزانية كل مسرح تنفق بنسبة ١ للفنانين : ٢ لغير الفنانين (الاداريين والفنيين إلخ . .) وهذا في رأيه هو العرف

المستقر في أوروبا كلها منذ مائة عام في مسارح الريبيرتوار ، أما في مسارح البولفار (التجارية) فالفنانون ليسوا موظفين ولكن يعملون بالقطعة . . وكل زيادة في حصيلة الشباك في المسارح اليوجوسلافية تثول للمسرح ويمكن إنفاقها في نهاية كل عام ، إما على الفنانين كحوافز وإما على مزيد من الإنتاج المسرحي بحسب ما يقرره مجلس إدارة المسرح . أما متوسط ثمن التذكرة فهو ١٠ دنانير (نحو ٣٣ قرشاً) . وأرخص تذكرة ثمنها ديناران (سبعة قروش) وأعلى تذكرة ثمنها ٢٥ ديناراً (٨٥ قرشاً) بلاضريبة ملاء . ولكل مسرح في بلجراد مجموعة من المخرجين مرتبطين به يتراوح عددها بين ٢ و ٤ مخرجين ، وكل مسرح له استقلاله الذاتي ويديره مجلس إدارة وعلى رأسه مدير المسرح ، وهذا المدير قد يكون فناناً أو إدارياً أو سياسياً ، بحسب ما يقرره مجلس التعيينات ، والأغلب في يوجوسلافيا أن مديري المسارح من الأدباء ، ولا سيما في المسرح القومي الذي بلغت نسبة مديريه من كتاب المسرح أو النقاد خلال مائة عام ٩٠ ٪ ، أما مجلس إدارة المسرح فيتكون ثلثاه من رجال الفن والإدارة التابعين للمسرح وثلثه من ممثلي البلدية دافعة الإعانة ، ولكل مسرح مستشار أدبي ، أما وظيفة المدير فهي بالإعلان ، وهي لمدة ثلاث سنوات .

ونسبة المترجمات إلى المؤلفات في مسارح بلجراد هي ٥٠ ٪ للمترجمات و ٥٠ ٪ للمؤلفات ، وهو عرف مستقر دون أن يكون عليه نص . أما المؤلفات فتحصل المسارح عليها إما بالتكليف المباشر وإما بفحص المؤلفات المعروضة عليها ، وهي عادة تعرض عند اختيارها على الخشبة

التجريبية الصغيرة قبل أن تعرض على المسرح الكبير . والمسرح القومي يتبع نفس المنهج . ولكن تشير ياوف لم يخف عنى امتعاضه من مستوى التأليف المسرحى القومى فى بلاده .

أما الجهة المنوطة . راقبة المسارح المعانة من حيث سلامة الإنفاق فهى البلدية . ويمكن للبلدية أن تتدخل لإيقاف عرض مسرحية إذا ألبت المسرحية إحدى قوميات يوجوسلافيا على قومياتها الأخرى أو إذا هاجمت دولة صديقة . وفيما عدا هذا فليس هناك رقابة على المسرح وإيقاف المسرحيات لا يكون إلا بحكم محكمة ، ولم يحدث أبداً أن صادرت المحاكم مسرحية ما ، ولكن حدث منذ ١٨ سنة أن أوقفت مسرحية «مرقص اللصوص» بلجان أنوى بقرار وزارى بحجة الانحلال أيام الاستالينية ثم لم تتكرر هذه السابقة . ومع ذلك فقد أوقفت مسرحية واحدة أيام استحكام الخلاف بين تيتو وستالين فى ١٩٤٨ وهى مسرحية « عندما يزهر القرع » لأنها عرضت بالبوليس اليوجوسلافى واتهمته بالنازية لاعتقاله عدداً من الشيوعيين الستالينيين فى يوجوسلافيا . . . والذى أوقف المسرحية هو إدارة المسرح الذى كان يعرضها ، أوقفها بسبب الحملة التى شننها الصحافة عليها ، أما الحكومة فلم تتدخل .

هذه صورة المسرح اليوجوسلافى كما استخلصتها من حديث الناقد المخرج تشير ياوف ، وقد أوردتها بتفاصيلها عسى أن ينتفع بها المسئولون ورجال المسرح عندنا . وأهم الحقائق فى هذه الصورة بالنسبة لوزارة الثقافة ووزارة الخزانة معاً هى أن الدولة فى يوجوسلافيا تعين المسارح

بنسبة ٨٠٪ من ميزانيتها ، وأن مرتبات الفنانين تمثل ٥٠٪ من مرتبات الإداريين والفنيين وعمال المسرح ، وأن إعانة الدولة للمسارح مربوطة بعدد روادها . وقد توخيت أثناء إقامتي في روسيا وفي ألمانيا الشرقية أن أجرى دراسة مشابهة لحالة المسرح من الناحية التنظيمية هنا وهناك، فربما ساعدتنا هذه الدراسة المقارنة على إعادة تنظيم حياتنا المسرحية داخل البناء الاشتراكي .



الفصل الثاني

التجربة اليوجوسلافية

سلبيات وإيجابيات

دخلت يوجوسلافيا وخرجت منها دون أن أحس أنى في بلد اشتراكي ، فالاشتراكية تقترن عادة في أذهان الناس بالبير وقراطية والإحساس بالحكومة (التي يسمونها خطأ بالدولة) في كل خطوة يخطوها الإنسان ، وبكثرة القيود والممنوعات واللوائح والقوانين ، وبالعين المراقبة التي تتجول في محافظتك لتعرف كم دولاراً تحمل وفي عقلك لتعرف فيم تفكر وكيف تحس ، وبكثرة الشعارات والكليشيات في الكلام وفي وحدة الممصقات من صور الزعماء والتوجيهات العامة . فلما نزلت يوجوسلافيا لم أحس بشيء من هذا بل أحسست على نقيض ذلك بأنى في مجتمع مفتوح لا يكاد يختلف كثيراً عما ألفته في بعض بلاد الغرب التي زرتها . ومع ذلك فيوجوسلافيا بلد اشتراكي أو شبه اشتراكي ، فيه كل المصانع والمتاجر والفنادق والعمائر والشركات وكافة وسائل الإنتاج والخدمات الكبيرة مؤمنة ، والملكية الزراعية فيه محددة بحدود ومقيدة بقيود (بحد أقصى نحو ٢٠ فداناً للفرد الواحد) . وانتهيت إلى أن يوجوسلافيا بلد شبه اشتراكي بعد أن عرفت أن اقتصادها

اقتصاد مختلط فيه مكان للقطاع الخاص والنشاط الفردي ، ففي استطاعتك أن تملك مصنعاً أو متجرّاً أو عمارة أو فندقاً أو مشروعاً مادمت تديره بنفسك ولا تستخدم فيه أكثر من كذا عامل وتنفذ أحكام القانون والضمان الاجتماعى بشأنهم .

والزائر لا يجد من يتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه ويتسعن في أوراقه أكثر من اللازم أو يسأله لماذا جئت وأين تقيم ومتى تمضى . وربما لم يجد الزائر كثيراً من أصول الاتيكيت وآداب السلوك التى تثقف بها الناس فى حضارة الغرب عبر مئات من السنين ، ولكنه يجد ما يطلبه أو يحتاج إليه منفذاً بلا تراخ ، فى بداوة ولكن بلا تراخ ، فى بساطة وبلا احتفال ولكن بلا تراخ ، فكل الناس تعمل بجد من الساعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر (منها ساعة للغداء) رغم أنهم جميعاً موظفون فى القطاع العام . وحين يصبح الجرسون أو عامل المصعد أو موظف الشركة ق.ع. يجب أن تتوجس خوفاً من آثار الاشتراكية . ولكن لا . فى يوجوسلافيا كل مافى الدولار يتحول بلا تراخ . التليفونات تعمل بدقة . التلغرافات ، المواصلات ، الطائرات ، البنوك ، الحنفيات ، الكهرباء ، المطاعم ، المتاجر ، الشوارع ، تسهل بدقة رغم أنها ق.ع. وبكرامة أيضاً . لا أحد ينتظر البقشيش . إن جئت به فكلمة شكر وإن لم تجد فلا أحد ينتظر منك شيئاً . وأهم من هذا وذاك فأنت لا تحس بوجود « الحكومة » « فى أية خطوة نخطوها . عشرة أيام لم أسمع فيها كلمة « بعدين » أو « غدا » أو « عند الأفندى الثانى » أو « المختص غير موجود »

رغم أنها كانت من أيام يوليو وفي قيظ دونه قيظ القاهرة ، كل يؤدي عمله وكأنه رئيس نفسه . لا أحد يعطل عملاً بحجة الرجوع إلى الرؤساء ، رغم أنهم لا شك يرجعون ، ولكن مكالمة تليفونية تكفي لحل الإشكال في دقيقة . لقد نجحت الاشتراكية في يوجوسلافيا لأنك لا تحس بوجودها وهذا ما يسمونه التسيير الذاتي .

ومع ذلك فربما كانت هذه نظرة من الخارج ، فإذا اقتربت من الصورة قليلاً بدأت تتكشف لك عورات كتلك التي تركتها في مصر . ذهبت لأشترى بعض قطع غيار سيارة فباع لي المحل جزءاً منها بعد حديث طويل متقطع بينه وبين مترجمي لم أفهم منه حرفاً ، ولكني أحسست من لغة النظرات وهن تغيير درجات الصوت وكأنني أشترى ممنوعات أو مهربات . ثم أحالنا الرجل إلى الأجانس الرئيسي الذي يستورد قطع غيار أو بل لحساب الدولة فوجدت الطواير التي تركتها في مصر والباعة ، يقولون للزبائن « مافيش » « مش موجود » « بعد شهرين » . وقالت نظرات البائع لنا « مش موجود » قبل أن يفتح أحد فه ، فلما فتح صاحبي فه جاءه الجواب « مش موجود » . وأحسست أني في مصر . فحيث يتجاوز القطاع الخاص مع القطاع العام تتسرب السلع من العام إلى الخاص وتباع بسعر السوق السوداء ، وتتكون بصورة آلية عصابات من الموظفين العموميين ، إداريين وفنيين ، للاتجار في سلع القطاع العام أو الارتشاء فيها والسمسرة عليها مع التجار . وتصورت هذا المرض ضارباً في كل السلع الاستهلاكية المستوردة وفي كل السلع ذات الندرة ،

ربما كان هذا ثمن « تبسيط » الاشتراكية ، ثمن إلغاء البيروقراطية وحضور الدولة المستمر : نهب القطاع الخاص للقطاع العام وخلق طبقة من السماسرة بدرجة مدير عام ، وبدخل صاحب كازينو في شارع الهرم . شيئان أحلاهما مر . فما العمل ؟ يبدو أن طريق الاشتراكية طويل كطريق الديمقراطية . وكما انتظرت إنجلترا أو فرنسا مئات السنين قبل أن تتباور فيهما الأخلاق الديمقراطية وبعض المبادئ العامة التي ذهبت مذهب المقادسات ، يجب أن تنتظر بعض البلاد قرناً كاملاً قبل أن يتباور فيها الإنسان الاشتراكي .

وفي يوجوسلافيا حركة قومية لجمع الدولار والعملات الصعبة بوجه عام ، تتجلى في انفتاح البلاد للسياح والخدمات السياحية التي بلغ حجم إيراداتها في العام الماضي (١٩٦٩) ٣٢٠ مليون دولار وارتفاع حجم الصادرات إلى نحو ٥١ بليون (ألف مليون) دولار (أي ثلاثة أمثال قيمة صادرات مصر) منها ٨٢٪ من المنتجات الصناعية و ١٨٪ من المنتجات الزراعية . ومع ذلك فهذه الأرقام ليست شيئاً مذكوراً في التجارة العالمية لأن صادرات يوجوسلافيا لا تمثل أكثر من ١٪ من التجارة العالمية . وقد كانت تجارة يوجوسلافيا الخارجية بعد الحرب مباشرة تقوم أساساً (بنسبة ٨٠٪) على اتفاقيات الدفع بالمقايضة مع دول الكتلة الشرقية ولكنها منذ ١٩٤٨ أى منذ اختلفت مع الاتحاد السوفييتي أخذت نحو التصدير بالعملات الحرة حتى استردت استقلالها الاقتصادي عن الكتلة الشرقية ، وقد سمعت أنها عدلت منذ يوليو الماضي عن التعامل - على الأقل في بعض

القطاعات - بالجنيه الحسابى وهو التعبير المصرفى لنظام المقايضة وقررت ألا تتعامل إلا بالعملات الحرة . وما تعجز يوجوسلافيا عن تحصيله من الدولارات عن طريق التصدير تحاول أن تستكملة عن طريق الخدمات السياحية . فحامل الدولار هناك ملك .

ويكفى أن تذكر أن إيرادات السياحة من العملة الأجنبية تعادل نحو ربع أو خمس إيرادات يوجوسلافيا من صادراتها لتعرف مكانة السياحة فى تلك البلاد . وفى يوجوسلافيا الآن نحو نصف مليون سرير لا استقبال السياح فى الفنادق والبنسيونات والبيوت الخاصة ، وبها مطاعم يمكن أن تطعم مليوناً ونصف مليون شخص فى وقت واحد . وفى كل مكان محلات تجارية مخصصة للبيع بالعملات الحرة بأسعار مغرية لا صطياد الدولارات من السياح ، وعلى ساحل الأدرياتيك مستعمرات عراة ، قيل إنها لتنشيط السياحة ! (لا شك قد كتب عليها : ممنوع اللبس !) . وقد كان من نتائج ذلك كله أن مركز الدينار اليوجوسلافى قد قوى حتى كاد أن يصبح فى ثبات العملات الحرة .

وحين جاء وقت الرحيل إلى دوبروفنيك للاشتراك فى مهرجانها الحادى والعشرين تصفحت الكتالوج فوجدتهم يقدمون باليوجوسلافية مسرحيات « يوليوس قيصر » لشكسبير و « أوديب ملكاً » لسوفوكليس و « طرطوف » لموليير وثلاث مسرحيات يوجوسلافية هى « العشاق » لمؤلف مجهول و « العم مارويا » لدرجيتش و « البخيل » لدرجيتش كذلك و « ثلاثية دوبروفنيك » لفوينوفيتش ، وهى أسماء لا تعنى شيئاً للقارئ

العربي لأننا لا نعرف شيئاً عن الأدب اليوجوسلافي . أما في باب الموسيقى والغناء والباليه فقد كان البرنامج أكثر خصوبة فقد كانوا يقدمون : « صلاة المساء للقديسة العذراء » لاونفيردي ، وكوتيل من سكارلاتي وبيتهوفن وبروكوفييف وليست و « جان دارك على المحرقة » لونييجر وأوبرا « فيديليو » لبيتهوفن و « بحيرة البجع » لتشايكوفسكي و « الخليقة » لهايدن و « المسيح » لماندل و « روميو وجوليت » لبرليوز وكوتيليات من باخ وفيفالدي وبريتن وفورشاك وروسيني وشوبرت وشتراوس . إلخ . الخ . ثم جملة فرق للرقص الشعبي اليوجوسلافي .

وفي مطار دوبرفنيك تكررت نفس المهزلة التي جرت في مطار بلجراد أكد لي مرافقي في بلجراد أني بمجرد نزولي من الطائرة في دوبرفنيك سأجد فيها مرافقاً آخر في انتظارى يلازمى خلال المهرجان . ولم أجد أحداً في المطار .

وفكرت في العودة من حيث جئت واكنى ضغطت على نفسي وقررت أن أعتمد على نفسي واو بلغة الإشارة . وبعد أن بلغت المدينة نزلت في فندق بشارع الماريشال تيتو ثم اتجهت إلى مكتب المهرجان . قالت لي إحدى المنظمات معذرة : « لقد انتظرتك ساعتين هذا الصباح في المطار . يبدو أن خطأ ما حدث » . فلم أعاق . وحين خرجت مع مرافقي لأتعرف على المدينة قال المرافق معذراً : « قيل لنا إنك ستصل بطائرة بعد الظهر ولهذا لم أنتظرك في المطار » .

ولم أعلق ، ولكنى تحققت من أن هؤلاء القوم يحلون الأخطاء بالفهواة

بدلاً من المواجهة - شىء مأوف لنا فى مصر - وهو أمر يندر أن تجده فى إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا، حتى بين طبقات أقل استنارة وأقل شأنًا، قلت لمسئول يوجوسلافى: يبدو أنكم لستم خيراً منا فى الفوضى وقالة التنظيم. فأجاب: ربما، ولكنى أعتقد أن هذه الفوضى مقصودة، ومقصود كل ما صادفت من متاعب وكذلك أوكالونات الدرجة الثانية التى حجزوها لك واختفاء المرافقين أكثر اليوم بحجة المشغولية. لقد كانت تعليمات إدارة المهرجان أن تستقبل كما يستقبل ايفوانديريتش فى مصر. هذه الفوضى رتبها مدير يهودى يوجوسلافى فى العلاقات الثقافية اسمه اوتودينتش للإساءة بين البلدين. لقد فعل نفس الشىء مع الفنان سيف وانلى حين نزل يوجوسلافيا، وهو يرتب كل شىء من خلال الغير فلا تستطيع أن تؤاخذة شخصياً. حتى عدم ترتيب لقاءات بينك وبين كبار الكتاب مقصود ومدروس، فقد كان كثيرون منهم على بعد خطوتين منك فى بلجراد وفى دوبروفنيك. حتى مستوى المرافقين: كان ينبغى أن يخصصوا لصحبتك أحد الأدباء المعروفين لا مجرد موظفين.

فليكن. هذه إذن دوبروفنيك عروس الأدرياتيكا الثانية بعد فينسيا، وأجمل بلد فى يوجوسلافيا. وأخذ مرافقى الشاب يشرح لى تاريخ المدينة. قلت: أعرفه. لقد كان اسمها راجوزا أيام اليونان والرومان. قرأت عنها فى كتاب جييون عن «تصدع الإمبراطورية الرومانية وأنهيارها» فقد زارها الإمبراطور القاسى المتعالى دقلديانوس، الذى تنازل عن عرشه فى أوج مجده، ثم حكمها بيزنطة، وفى العصور الوسطى حكمها البندقية

ثم الحجر، وأخيراً حكمها الباب العالي حتى ١٨٠٨ حين استولى عليها نابليون وضمها إلى الليريا ، وبعد سقوط نابليون في ١٨١٤ آلت هذه المدينة التاريخية إلى حكم الإمبراطورية النمساوية طوال القرن التاسع عشر وبعض القرن العشرين حتى ولدت جمهورية يوجوسلافيا . وقد كانت دوبروفنيك أو راجوزا القديمة طوال العصور الوسطى « جمهورية » أو مدينة دولة على غرار المدن التجارية الشهيرة في ذلك الزمان كالبنديقية وفلورنسا وفيرارا وفيرونا ، واحتفظت بكيانها الجمهوري سواء في عهود استقلالها أو تبعيتها . ولكن دوبروفنيك كانت أكثر من جمهورية أو دويلة تجارية ، فهي موقع حربي خطير ، أو مجموعة من الحصون والاستحكامات البحرية أقيمت تحت جبل محصن على مساحة لا تتجاوز خمسة كيلومترات مربعة . والمدينة ذاتها بنيت داخل هذه الاستحكامات والحصون .

وحيث مر دقلديانوس ذو المذابح الكثيرة ، العبد الذي أصبح إمبراطوراً للرومان ونقل عاصمة إمبراطوريتهم إلى المشرق ، وقفت ساهماً أستعرض ما قرأته في جييون عن هذه الشخصية الملمغزة في تاريخ الرومان وهو الذي روى عنه الرواة أنه استعلى ليهر وأنه كان أول من استحدث في بلاط الرومان فيخامة ملاوك الشرق ، فاشتهر بطيالسس المشاة بالذهب والفضة وبنعاله المرصعة بكريم الجواهر ، وكان المثول بين يديه يزداد مشقة مع الأيام ، بعد أن ملأ بلاطه بالحجاب وبطقوس البروتوكول وملأ شعاب قصره بالحرس الإمبراطوري ومقاصير حريمه بالحصيان

الرابضين كالفهود ، فإن مثل بين يديه واحد من رعيته مهما علا قدره أُلزم بالسجود أمام حضرته وكأنه في حضرة إله . ثم ترك دقلديانوس كل ذلك المجد العظيم باختياره واعتزل العرش والملاّ وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن جلس إحدى وعشرين سنة ، فلم يعرف له التاريخ صنوا غير الإمبراطور شرلكان . وكان في معتكفه يتأمل جرائمه العديدة ويردد نادماً أو شبه نادم : « ما أكثر ما يحدث أن يلتقي أربعة أو خمسة وزراء في المصالحة فيتنفقوا على خداع ملايينكم ! فلأنه يعيش في عزلة عن البشر بحكم هيئته الرفيعة ، تراهم يخفون عنه الحقيقة ، فهو لا يرى إلا بديونهم ولا يسمع إلا أضاليلهم . ولذا فهو يمنح أسمى الوظائف لأهل الرذيلة والضعف ، وهو ينكل بأشرف رعاياه وأعظمهم استحقاقاً . وهكذا يتردى أكرم الملوّك وأرجحهم عقلاً بسبب فساد بلاطهم وأشعبية حاشيتهم » .

وسألت صاحبي عن زاردوبروفنيك من الأدباء والفنانين في عصرها الحديث ، أى منذ بدأ مهرجانها السنوى في ١٩٥٠ ، فأجهد ذاكرته كثيراً ولم يذكر لى إلا هربرت فون كارايان وباربيروللى وماريو روسى وإيزاك شتيرن ثم كتيبة لا بأس بها من فناني الصف الثانى . أما الفرق الموسيقية العالمية فلم يذكر لى منها إلا أوركسترا برلين السيمفونى وفيهاهارمونية هوسكو . ولم أكن أسأل صاحبي ومنظمى المهرجان هذه الأسئلة اعتباراً ، فقد لاحظت رغم النشاط الفنى والأدبى الشديد كل ليلة أن مئات الآلاف من الزوار الوافدين من أطراف الأرض المتجولين نهائراً وليلاً في أردية المصطافين

قد أعطوا للمكان شخصية المصيف وطبعوا كل شيء بطابع السياح .
لقد أحسست في لحظات أن كل هذا « التياترو » المنصوب وسط الآثار
باسم مهرجان الفنون ليس إلا وسيلة لتنشيط السياحة ، وهو طبعاً
وسيلة نبيلة لغرض مشروع ، مثل حكاية مهرجان بعلميك ، وتمنيت
أن يكون للإسكندرية والأقصر ، مثل هذا المهرجان السنوي صيفاً
وشتاء . غير أن نوعية ضيوف المهرجان والمشاركين فيه يجب أن تعد رأياً فيه
وحكما عليه من الفنانين والأدباء . بقعة من أجمل ما سوت يد الطبيعة
كان يمكن أن تكون عكاظ العالم ، ومع ذلك تحولت إلى كان أو نيس
أوميامي فلوريدا .

وعرضاً عرفت أن حدثاً جلاماً جرى في دوبروفنيك . قالوا لي إن أول
اجتماع عقده أدباء العالم المناهضة النازية عقده نادى القلم الدولى في
دوبروفنيك عام ١٩٣٤ ، وكان هـ . ج . وياز بين الأدباء المشتركين .
قالوها باستخفاف وكأنها لا تعنى شيئاً ، أو كأن النازية التي حصدت
في بلادهم مليون قتيل غدت في أرض تيتو المناضل العظيم شيئاً من
أشياء الماضى البعيد لم تبق منه حتى الذكريات . وأنا ممن يعتقدون أن
النازية لم تمت ولن تموت حثيثاً ، لأن لها أرواحاً سبعة وأقنعة سبعة ولذا
ينبغي أن نضع وروداً لا تدبل على كل شاهد لضحاياها أينما نزلت
دماؤهم عبرة وإدكاراً .

قلت : ألدیکم سجل أو محاضر أو ثبت من أى نوع كان يدون



هذا الحادث الخطير ؟ قالوا : لا شيء لدينا . قلت : من حضر هذا المؤتمر وماذا قالوا ؟ هل مشى هنا أراجون أو توماس مان أو شباب الأدب الإنجليزي الحديث في الثلاثينيات ، أودن وسبنندر وكريستوفر ايشروود ، وكل من زار بصوت راعد في وجه البربرية النازية قبل أن تكون النازية شيئاً مذكوراً ؟ قالوا لا علم لنا بشيء من هذا . مدينة كان على صدرها وسام شرف عظيم فعلمته وألقت به في سلال المهملات . قلت وأنى لي أن أجمع هذه الوثائق المنسية ؟ قال مرافقي : أستاذي الذي علمني الأدب المقارن في جامعة زغرب ، واسمه هرجيشيتش ، كان حاضراً في المؤتمر وربما أعطاك بعض الخيوط . وطلبنا هرجيشيتش العجوز في زغرب بالتليفون وكأني أكلم شبحاً من وراء القرون . ووعدني الرجل أن يرسل لي على عنواني « بالأهرام » خطاباً بذكرياته عن كل ما كان . ولا زلت أنتظر الخطاب .

وأخذت أتردد كل مساء على حفلات المهرجان ، وكان درساً لي أن أراقب المايسترو اليوجوسلافي الكبير لافروفون باشاشيتش وهو يجرى حتى الثانية صباحاً تدريبات أوبرا « فيديليو » لبيتموفن في حيوية ابن الثلاثين رغم أنه قارب السبعين . وكان بلا جدوى أن أشهد المسرحيات باليوجوسلافية بلهلي باللغة فاكتفيت « بطراطوف » مولير . وأنصت لقراءات بالألمانية من أدب بريخت في الدعوة للسلام قدمتها هيلين فايجل ، أرملة بريخت ، واثنان من ممثلي مسرح « البزليبر انسامبل » ، وتواعدت معها على لقاء في برلين ، وركزت على عروض الرقص الفولكوري

اليوجوسلافي الذي قدمته فرقة « تانتز » . وكنت قد رأيتها في نيويورك ثم في القاهرة من بعد فوجدت أنها لم تضيف جديداً .

وحين التقيت بتوماليوف مدير فرقة « تانتز » للارتص الشعبي اليوجوسلافي — وهي تقابل فرقة رضا عندنا — وجادتها مناسبة لأن أناقشه في المبادئ التي تقوم عليها حركة الفولكلور في يوجوسلافيا ولا سيما أنه من كبار المنظمين والمستغلين لهذه الحركة في بلاده وخارج بلاده . فقد سبق أن شاهدت عروض فرقة « تانتز » مرتين . مرة في نيويورك سنة ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ لا أذكر بالتحديد في قاعة كارنيجي الشهيرة التي كان الأمريكيون لا يعطونها عادة إلا للحفلات « الكلاسيك » ثم تنازوا وأعطوها للمطربة الفرنسية الكبيرة إيديت بياف ثم لفرقة « تانتز » هذه . وكان للفرقة دوى شديد . ثم مرة منذ سنتين في أوبرا القاهرة ، وكان انطباعي واحداً في الحالين : إن هذا اللون من الفن الشعبي سوف يدخل حتماً في طريق مسدود لأنه محدود في تقاليده . محدود في إمكانياته الفنية ، مالم يتم التلاحم الحقيقي بين العبقريّة الفردية وروح الجماعة . ولا أستبعد أن بعض الروس يتوهمون أن هذا حدث بالفعل في بلادهم : ولكني بعد أن رأيت عروض فرقة موسيف للرقص الشعبي خرجت بنفس الانطباع ، وتيقنت من أن حركة الرقص الفلكوري في العالم ، أي تحويل التعبير التلقائي الجماعي عن النفس إلى فن موضوعي يعرض على الغير ، لا يزال وليداً يجهو ، وبالذات لأنه وليد يجهو فهو عالي الصراخ والضجيج .

وعرفت من توما ليوف أن الرقص الفولكلوري اليوجسلافي بدأ
 كحركة استعراضية منظمة في ١٩٤٥ بعد الحرب مباشرة كاتجاه لإحياء
 التاريخ والجغرافيا عند السلافين الجنوبيين ، وخرج منه كوكنيل من
 القومية التي تتمثل في تمجيد الروح السلافية الجنوبية ومن الاشتراكية
 التي تتمثل في تمجيد التعبير الشعبي الجماعي في فن الرقص . وقد كان
 هناك بعض الحتمية في هذه الحركة لأن يوجوسلافيا كما اعترف ليوف بلد
 صغير حديث لا يملك تراثاً كلاسيكياً كبيراً يمكن استلهامه ، ولذلك
 كان استلهام الفنون الشعبية هو البديل الطبيعي لاستلهام التراث . ونظراً
 لتعدد القوميات داخل يوجوسلافيا لم يكن بد من أن تحتفي حركة الرقص
 الشعبي بالرقص الشعبي في مختلف القوميات اليوجوسلافية . وقد كان
 السؤال الطبيعي في هذا المجال : ألا يؤدي التعدد في التعبير الفني الإقليمي
 كتعدد اللغات والثقافات ، إلى إيذاء القومية اليوجوسلافية ، لأنه يؤكد
 الفوارق في الثقافة والتعبير الفني بين المتدينين مثلاً والدرب والكروات
 إلخ . . ولكن توما ليوف أجاب على هذا بقوله : إن الشخصية السلافية
 تجمعنا جميعاً واختلاف الإيقاع لا يضر بل ينفع لأنه يزيد معرفتنا المقدموني
 بالصربي والكرواتي بأبناء البوسنة والهرسك ويزيد احترام هذه الثقافات
 بعضها للبعض الآخر . إنما الضرر في اضطهاد إحدى الثقافات القومية
 لغيرها من الثقافات القومية . قامت : المشكلة عندي هي أن الكلاسيكية قد
 تكون مرضاً طبقياً والفولكلور قد يكون مرضاً قومياً ، فتمجيد التراث قد
 يقترن أحياناً بتمجيد « الصنفوة » القادرة عليه المنتجة والمستهلكة له ،

وتمجيد « روح الجماعة » قد يؤدي إلى تقديس الجنس في ذاته وتأليه قدراته الفطرية بنقض النظر عن مستواه الحضارى . واعترف ليوف بذلك ، ولكن حجته كانت أن الكلاسيكية تقتل النقائبة والحساسية الطبيعية وتنتهى بفقدان الشخصية باسم العالمية وباسم الحفاظ على تراث الإنسانية . وهو يعترف حقاً بأن التعبير الشعبي خليط من النبل ومن الانحطاط ومن الحكمة الفطرية ومن الجهالات الفطرية ومن التعبير العميق ومن السفاسف والسخافات ، ولكن الأمل عنده هو في العبقرية الفردية عند الكوريجراف (مصمم الرقص ومبدعه) أو عند الموسيقار الذى يستلهم الوجدان الشعبي ويصنفى تهره من ترابه ويصوغ منه فناً عظيماً ، فسقراط يونانى ولكن ليس كل اليونان سقراطاً . ونهبت توماليوف أنه بهذا الكلام يعود إلى المأزق الذى حاول أن يخرج منه . فإن الاعتماد على عبقرية المبدع الفرد سوف تخرج الفولكاور عن فولكاوريتها وتذيب روح الجماعة في روح الفرد وتسمى بنا إلى كلاسيكية جديدة هي في حقيقتها من صنع الصفوة لا من صنع الشعب . واعترف ليوف بذلك ولكنه أجاب : الأمل إذن هو أن يصبح الشعب نفسه موضوعاً لعبقرية المبدع الفرد ، وأن يصبح الشعب بطل هذه الكلاسيكية الجديدة بدلاً من الأبطال الأفراد .

كان كل هذا الكلام كلاماً جميلاً في حدود المناقشة النظرية ، ولكن ملاحظتى عليه في التطبيق هي أنه رغم مرور ٣٥ سنة على هذه الاندفاع نحو تمجيد الرقص الفولكاورى وتحويله إلى فن استهلاكي بعد أن

كان مجرد فن تعبيري ، فإن الرقص الفولكلوري قد تجدد ولم يتجدد
سواء في يوجوسلافيا أو في غيرها من البلاد لأن شيئاً ما في روح الجماعة
قد هزم المبدع الفرد ، فالعبة السيف المقدونية لا تزال بعد ثلاثين عاماً
هي لعبة السيف المقدونية وطقوس الفرحة الجماعية في احتفالات
الحصاد أو في احتفالات الزواج لم تتغير على المسرح كثيراً رغم مرور
السنين لأنها لم تتغير في الحياة ، وكل ما حدث هو أن الرقص الفولكلوري
اليوجوسلافي قد غدا سلعة سياحية عظيمة تصدرها يوجوسلافيا إلى عواصم
العالم في أزيائه الوطنية أو تستقدم العالم لرؤيته في دوبروفنيك ، وحيث
السياحة يوضع الفن في خدمة الدولار .

أربعة أيام قضيتها في دوبروفنيك، أخذت فيها شيئاً من جمال الفن
وشيئاً من جمال الطبيعة ، وعدت أدراجي إلى بلجراد لأتأهب لرحلتي
الروسية .



الفصل الثالث

مأساة يوجوسلافية

وملهاة روسية

حدثني سفيرنا في باجراه ، يحيى عبد القادر ، قال : « لا تحكم على اليوجوسلافيين بما تراه في باجراد وحدها ، فأكثر السكان هنا من الصرب ، ولكل قومية يوجوسلافية مستواها الحضارى الذى يميزها عن غيرها ، فأرقى اليوجوسلاف هم أهل سلوفينيا فى الشمال ، ويليهم فى الرقى أهل كرواتيا ويليهم أهل صربيا . . إلخ ، ومن أكثرهم تخلفا أهل البوسنة والهرسك ومقدونيا والجبل الأسود . وربما كان الألبان فى المؤخرة . قاعدة عامة تحكم التقدم والتخلف بين قوميات يوجوسلافيا : المناطق التى حكمتها الإمبراطورية النمساوية أو المجر هى المناطق المتقدمة ، والمناطق التى حكمتها الإمبراطورية العثمانية هى المناطق المتخلفة ، وكأما كانت التبعية للترك أقوى وأطول كان التخلف أعمق وأوضح » .

وبعد العشاء انصرفت أفكر فى تاريخ هذا الشعب الغريب ، سلاف الجنوب ، الذى فقد استقلاله وسقطت كل معاقله فى يد الترك قبل

عام ١٤٠٠ ولم يجمع أشتاتة الممزقة ويسترد وحدته إلا منذ ١٩١٨ .
 وكما استفسرت أو تطلعت في وجوه الناس وتأملت حديثهم وساوكتهم
 تأكدت من معنى واحد وهو أن جذوة الوطنية ظلت متقدة فيهم تحت
 الرماد طوال هذه المأساة التي استغرقت خمسة قرون . وحين جاءني
 ملحمتهم الوطنية واسمها « ماركو » . وهي موال قصصي نظمها شاعر
 مجهول في نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وترجمته لي بالإنجليزية الشاعرة
 الكرواتية فيسناكريميوتيتش ، أحسست بروح الشعب اليوجوسلافي
 تتجول حزينة وقوية من وراء القرون ، على لسان المنشد ذي الرابة
 يتجول بين القرى في الجبال والوديان يذكر بني قومه بقصة ضياعهم
 العظيم بعد مجدهم العظيم .

فقد كانت لهم دولة كبرى قبل أن يجيء الترك ، دولة تضم أكثر البلقان ،
 تساليا وابيروس وألبانيا ومقدونيا والصرب والبوسنة . وكان لهم إمبراطور عظيم
 حكيم اسمه دوشان ، كان قيصر زمانه ومشرع عصره وأوانه . فلما توفي
 الملك دوشان لم يكن ولده الأمير الشاب أورش قد بلغ الثامنة عشرة
 بعد . وتنازع إخوته الثلاثة فيمن يخلفه في عرشه ، فطعنوا في نسب الأمير
 الصغير أورش ، وادعى كل الحق لنفسه :

أربع خيام التقت

على سهل كوسوفو الجميل

بجوار كنيسة سانودريا البيضاء :

فى الخيمة الأولى كان الملك فوكاشين
 وفى الخيمة الثانية كان السلطان أوجليشا
 وفى الخيمة الثالثة كان الدوق جويكو
 أما الرابعة فكانت خيمة الأمير الصغير اوروش .
 أربعة ملوك اقتتلوا على المملكة كل يريد الفتك بأخيه
 بنحجر ذهبى يطعنه .

لا يعرفون من صاحب الصولجان .

كان الأمير الصغير يسمع ويتعجب لأنه ولى العهد الشرعى .
 وفى الخفاء أوفد كل رسوله الخاص إلى مدينة بريزرين . حيث يقيم البطريق ،
 ليفتى لهم من منهم صاحب الصولجان . وكان البطريق شيخاً صالحاً عارفاً
 بالأنساب وبكتب القدماء ، وبأغ الرسل الأربعة المدينة فى الصباح .
 ووجدوا البطريق يقيم القداس فى الكنيسة . فلم يترجأوا بل اقتحموا
 بنجيلهم حرم الكنيسة وضربوا البطريق بالسياط وأمروه أن يصحبهم
 إلى كوسوفوليحسم الأمر وفقاً لأوصية الملك الراحل دوشان ، وجرت دموع
 البطريق على خديه واستمهلهم حتى يفرغ من واجبه نحو به . وحين
 فرغ من الصلاة تقدم نحوهم قائلاً إنه لم يسأل الملك دوشان وهو
 يناوله الأسرار المقدسة على فراش الموت لمن يكون الملك من
 بعده ، ولكن سأله ماذا كانت ذنوبه ومعاصيه عند الله . وأوفدهم
 البطريق إلى مدينة بريابوب حيث قلعة الأمير البطل ماركو ذى البأس
 العظيم ، تابع الملك الأمين الذى لا يقول إلا الحق ولا يخاف إلا الله ،

رغم أنه ابن أحد الملوك المتنازعين ، وهو الملك فوكاشين ليدعوه إلى كوسوفو فيحسم الأمر بين الملوك الأربعة . ويتجه الرسل الأربعة إلى مدينة بريابوب ويعرفون الأمير ماركو بمسعاهم ، وحين يطالع الأمير ماركو أمه الجلييلة بفروسيا على ماجرى وما يجرى تهيب الأم الجلييلة بولدهما قائلة :

أى ماركو ، يا ولد أمك الوحيد !
إياك أن تجعل جرحى لعنة عليك
ولكن يا بنى لا تنطق بكلمة ضلال
لا تستمع لحق الأبوة ولا لحق العمومة
بل لصوت العدل ، عدل الله رب الحق .

إياك يا ولدى أن تفقد روحك

فأخبر أن يفقد المرء رأسه من أن يجر على روحه الخطيئة .

ويخرج الأمير ماركو على صهوة جواده إلى كوسوفو حاملا كتاب أنساب الملوك وحين يقترب من الخيام الأربع يراه أبوه الملك فوكاشين ، فيتهلل الأب فرحاً حاسباً أن ولده قد جاء لينحاز له ويسلمه تاج المسلكة . ولكن الأمير ماركو يتخطى خيمة أبيه دون أن يلتفت إليه . وحين يمر ماركو على عميه ، يحاول كل منهما إفساد ضميره ، ولكن ماركو يزور عنهما حتى يبلغ خيمة الأمير الصغير أورش ولى العهد ابن الملك الراحل دوشان ويقضى اليوم في خيمته . وفي اليوم التالي - يوم التحكيم - يجتمع الأمراء والنبلاء والفرسان ويتوجهون للصلاة في الكنيسة ثم يخرجون المأدبة العظيمة ويشربون البيراندى في انتظار القرار الأخير . ويقف

ماركو بينهم خطيباً وفي يده كتاب الأنساب ، ويؤنب أباه وعميه على جشعهم العظيم ، فلما كل منهم ولايته وهو يسمع في ما في يده الغير . ويلقى عليهم لعنته أن تصير ديارهم خراباً يباباً جزاء لحم على جشعهم ، ويعلن أن التاج تاج الأمير أورش ، بحق النسب المقدس .

وعندما سمع ذلك الملك فوكاشين

دب واقفماً على قلديه

واستل خنجره الذهبى

ليطعن ولده ماركو حتى الموت

وجرى ماركو ليتحاشى أباه

لأنه لا يحق يا رفيقى

أن يقتل ابن مع أبيه

واندفع ماركو إلى الكنيسة وأبوه يطارده شاهراً خنجره . وسمع ماركو نداء من الكنيسة يقول : « ادخل الحرم أيها الأمير ماركو ! لسوف تهلك اليوم ، تهلك بيد أبيك ، تهلك في سبيل العدل ، عادل رب الحق » وانفتحت أبواب الكنيسة ، ودخل ماركو ، وانغلقت من ورائه الأبواب . وهجم الملك فوكاشين على الباب وطعمه بخنجره ، فإذا دماء انهمرت من الواحه مدراراً . وأدرك الأب أنه قتل ولده ، فذهب ينوح في ندم ، ولكن صوتاً جاءه من الداخل يقول : « اسمع أيها الملك فوكاشين ! أنت ما قتلت ولدك ولكنك قتلت ملاك الله ! »

وهكذا حلت اللعنة على هذه المملكة العظيمة فصارت خراباً يباباً

غزتها جحافل الترك في كل مكان وأشاعت فيها النار والدمار . وفي ١٣٨٩ على سهول كوسوفو سقط زهرة فرسان الصرب ونبلاتها ، سقطوا عن بكرة أبيهم . وفي هذه المعركة الفاصلة سقط أيضاً السلطان مراد الأول ، وكان أرووش آخر ملوك الصرب الذين فقدوا استقلالهم أكثر من خمسة قرون جزاء لهم على انقسامهم وتمزقهم .

وهكذا كانت مأساة أمة محاربة محبة للحرية كما دونتها أشعار الشعراء المجهولين . قصة اختلاط فيها الرمز بالحقيقة والخيال بالتاريخ ، وعبر خمسة قرون غناها الشعراء الجواون البسطاء على أنغام الربابة فأذكوا بها حب الوطن في قلوب الصربيين . والدرس الذي تعلمه جميع اليوجوسلاف هو أن التفريق لا جزاء له إلا العبودية والضياع والآن نتقل من المأساة اليوجوسلافية إلى الملهمة الروسية .

* * *

قبل أن أبدأ رحلتي الروسية بأسبوعين أو ثلاثة أبردق الرفيق كوميساروف الملقب الثقافي للسفارة السوفيتية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية بموسكو يطلب لي تأشيرة دخول للاتحاد السوفيتي راجيا إرسال الإذن بالتأشيرة إلى السفارة السوفيتية بالقاهرة حتى ١٥ يوليو أو إرساله إلى السفارة السوفيتية بلجراد في الأيام العشرة التالية وفقاً لبرنامج رحلتي .

ولم يرد الإذن بالتأشيرة الروسية حتى تاريخ سفري من القاهرة . وما إن نزلت بلجراد حتى اتصلت بالسفارة السوفيتية هناك لأستفسر

عن التأشيرة فعرفت أنها لم ترد بهند . وتعرفت على الرفيق أناتولى ستيبانيوك
قنصل روسيا فى بلجراد ، فوجدته رجلاً ربعة ذكيا مرحباً متدققاً لبقاً
يشبه فى خلقته وفى طباعه الروائى الإنجليزى الكبير لورانس داريل
صاحب « رباعية الإسكندرية » فكأنهما توأمان . وسخا ستيبانيوك
فى الترحيب بى وكأنه يرحب بجريدة « الأهرام » نفسها وأعجب ما فى
الأمر أنى وجدت نفسى بعدة يقيتين أحاده وكأنى أعرفه من عشر سنوات ،
واستوقف انتباهى أنه ، رغم عمله فى بلجراد ورغم أنه لم يقم فى القاهرة ،
كان يعرف مدرس متروقة شمير . . لم يكن يتحدث عن هرم خوفو أو
متاحف مصر أو خان الخليل أو الموقف المصرى - الإسرائيلى أو أى
شئ . يمكن أن يعرفه المرء من الكتب أو من الصحف الأجنبية ، ولكن
كان يحدثنى عن الاتحاد الاشتراكى ، ويذكر أسماء شخصيات فى المناصب
العامة ودا جرى عابها من تغييرات . قال ستيبانيوك لا شك أن التأشيرة
ستأتى غداً .

ولم تأت التأشيرة غداً . . قال ستيبانيوك : إذن ستأتى غداً بغير شك
سأستعجلها بتأشرف لوزارة الخارجية . . ولم تأت التأشيرة بعد غد . قامت
لاستيبانيوك : سأسأئرنى إلى دوبروفنيك وسأتصل بك من هناك بعد أيام .
وبعد أربعة أيام اتصلت من دوبروفنيك بالسفارة الروسية فى بلجراد .
وعرفت من استيبانيوك أن التأشيرة لم تصل بعد . وبدأت أتخوف ، وقررت
أن أقطع إقامتى فى دوبروفنيك وأعود فوراً إلى بلجراد لمواجهة الموقف
الجديد . لقد استنفدت زيارتى اليوجوسلافية أغراضها أو أوشكت ،

وبعد ستة أيام أحسست بأنى لن أحصل بسهولة من يوجوسلافيا أكثر كثيراً مما حصلت وأن كل بقاء فيها أطول من الأيام العشرة المقررة سوف يكون مضيعة للوقت .

وفي اليوم السابع اتصلت بالسفارة الروسية من جديد . لا خبر عن التأشيرة .. قلت للقنصل : اسمع يا صديقي الطيب . أنا لم آت إلى أوروبا لأصيف ، وإنما جئت في عمل « للأهرام » ولادة شهر فقط . جئت لأجمع مادة لقرائى . وإذا لم أستطع جمعها من روسيا فسأبحث عن هذه المادة في غيرها من البلاد . إذا لم تصل التأشيرة غداً صباحاً فسأغير وجهتى وأسافر إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا بدلاً من روسيا . فمن غير المفعول أن أقطع رحلتى أو أن أقول لقرائى بعد شهر : آسف ، أنا لم أر شيئاً في رحلتى هذه المرة لأنى كنت أنتظر التأشيرة الروسية في صالون فندق سلافيا .

وبدا الحرج الشديد على أنا تولى ستيبانويوك . وعاد يؤكد لى أن التأشيرة ستصل لا محالة . وأبدى معى استغرابه من تأخر التأشيرة ثلاثة أسابيع رغم تكرر البرقيات من القاهرة وبلجراد، وأضاف : لا بد أنهم يعدون العدة لاستقبالك رسمياً في اتحاد الكتاب وأن هذا سبب التأخير .. قلت : أنا لا أريد أن أستقبل رسمياً في اتحاد الكتاب . أنا لست مدعوّاً من أحد ولن أنزل ضيفاً على أحد . إن « الأهرام » أعطانى من الدولارات ما يكفى لإقامتى في موسكو ولننجراد وأعطانى أيضاً تذاكر العليارة . افترض يا أخى أنى سائح . هل روسيا مفتوحة أو مغلقة في وجه السياح ؟

قال استيبانيوك : مفتوحه طبعاً . لو أنك قات ذلك منذ البداية لأعطيتك التأشيرة في عشر دقائق ، قلت : ولماذا لا تعطيني إياها الآن . قال : يجب أن تحجز غرفة في لوكاندة أولاً . وبعد هذا لن تكون هناك عقبات ، قلت : غدا صباحاً ، إذا لم تصل التأشيرة ، فسأجرى هذه الترتيبات . قال : اتفقنا .

وفي اليوم التالي (الثامن) اتصلت بالسفارة الروسية . لاخبر عن التأشيرة وخرجت لفورى إلى مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى الذى يرتب مثل هذه الأمور . وحجزت غرفة فى أحد فنادق الدرجة الأولى . دفعت الدولارات المطلوبة . وأعطونى إيصالاً . سألت : وما اسم الفندق ؟ قالوا لا نعرف بعد : ربما روسيا أو مينسك أو المتروبول أو أوكرايينا أو لسنجراد سكايا . عندما تنزل فى مطار موسكو تقدم هذا الإيصال إلى مكتب السياحة السوفييتى ، واسمه أنتوريست ، وهذا المكتب هو الذى يجد لك المكان الحالى فى الفندق . إنه الهيئة السياحية التابعة للدولة وهو الذى يحدد لكل سائح الفندق الذى سيستقبله بحسب الغرف الشاغرة .

وذهبت فرحاً إلى القنصل الروسى . وقالت : هات التأشيرة . هذا هو الإيصال الذى طلبته وهو يشبه أنى حجزت مكاناً فى أحد فنادق موسكو فأخذ استيبانيوك منى الإيصال وأخذ يتمعنه ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى . وبعد مناقشة دامت دقائق لم أفهم منها حرفاً التفت إلى وقال : متأسف ، ولكن لا بد من انتظار الرد من هيئة السياحة بموسكو (الانتوريست) على برقية هيئة السياحة المركزية .

(سنتر وتوريست) ببلاجراد ، ردّاً يفيد أنهم وجدوا لك غرفة خالية في أحد فنادق موسكو . لن تنتظر أكثر من ٢٤ أو ٤٨ ساعة .
 وخرجت أسفاً . وقد عقدت العزم على العدول عن رسالتى الروسية .
 وقصدت إلى هيئة السياحة اليوجوسلافية لألغى الحجز وأسترد دولاراى .
 وكانوا كراماً . فأخذوا إيصالهم وسلموني الدولارات فى ثلاث دقائق .
 وحين سألتهم كم من الوقت يستغرق الرد عادة على برقيات الحجز ،
 أجابوا : أنت وحظك من ٢٤ ساعة إلى ثلاثة أسابيع .

وخرجت على عجل إلى السفارة الإيطالية فحصلت منها على تأشيرة دخول إيطالية فى خمس دقائق . ثم توجهت إلى السفارة البريطانية ،
 وفى خمس دقائق أخذت التأشيرة البريطانية وقد اسم التنصل البريطانى
 فى بلاجراد أن يستقبلى ويأغو معى نحو نصف ساعة درجياً ، وعرفت منه
 أنه كان أحد الضباط الذين نزاوا بور سعيد أيام العدوان الثلاثى فى سنة
 ١٩٥٦ . قال : فى الواقع أنا مدين بحياتى لنائب محافظ بورسعيد ، فقد
 وقعت فى يد الجماهير وكادت أن تفتك بى . ولولا نائب المحافظ
 لكنت الآن فى خبر كان . اكم تمنيت أن أشكره على هذا الصنيع .
 وجرنا هذا إلى الكلام فى السياسة المصرية الإنجليزية وكان يرى أن إنجلترا
 حاولت أن تفعل بعض الخير فى مصر . قالت : نحن المصريين كان
 يسوعنا فى إنجلترا ، وهى بلد الديمقراطية . أنها كانت دائماً تعرقل نمو
 الديمقراطية المصرية بانحيازها الدائم إلى الملك وانباشوات والحكومات
 الدكتاتورية ، بحجة أن الديمقراطية الإنجليزية غير قابلة للتصدير .

قال القنصل البريطاني : هذه سنة الحياة وهذه مسؤولية كل بلدنا شيء تحرر حديثاً . إنه شيء كالأموهة . إن المرأة حين تنجب طفلها الأول تجد نفسها في مواجهة هذا الوليد بغير عون ولا تلقين إلا ما توحى به غريزتها وما تتعامله بالممارسة . تجربة شاقة أن يعلم الإنسان نفسه ولكن لا مفر منها . ووجدت نوعاً من الحكمة في ذلك على إطلاقه . ولكنى عدت فذكرته بأن الاستعمار كالغول المتربص ليبتهم كل وليد . أجاب القنصل الحكيم : وهذا أيضاً جزء من التجربة . أن تلهم فطرة الأمومة الأم أن تحمى أولادها من الغيلان . ثم عرجت على السفارة الفرنسية وحصلت على التأشيرة الفرنسية في خمس دقائق .

وبعد أن فرغت من جمع التأشيرات الغربية على جواز سفري قصدت إلى شركة الطيران العربية المتحدة . وأعاني مديرها الاستاذ مصطفى عبد الله على استبدال تذاكر سفري الروسية إلى روما ولندن وباريس ثم أبرقت إلى الأستاذ هيكل عن طريق ا. ش . الأبلغه بتغيير برنامج رحاتي وأبرقت إلى معارفي في غرب أوروبا بقدمي . وهكذا انتهى كل شيء في يوم واحد . انهارت أحلامى الروسية وأنا موزع بين الأسف والامتعاض والتوجس والحزن على فرصة العمر

ولكن بقيت في ضميري بعض الألغاز التي حرت في فهمها . فنحن والروس أصدقاء تربطنا اليوم آصرة كفاح عظيم ، ولم أفهم أن يختار الروس هذا الوقت بالذات ليؤجواوا تأشيرتي . وكنت أعرف عدداً لا يحصى من زملائي في القلم ومن رجالات مصر ومن غيرهم يتجولون كل

يوم بين القاهرة وموسكو وكأنهم يتنقلون بين القاهرة والاسكندرية .
فلماذا أنا بالذات يحال بيني وبين هذه التجربة الكبرى . ثم إنى أقرأ
كل يوم أن الاتحاد السوفيتي منذ انقشاع الاستالينية قد فتح حدوده لكل
الزائرين حتى من بلاد أعدائه .

وزاد من حيرتى أنى شخصياً ، ولنتكلم بصراحة ، بغض النظر عن
معتقداتى الشخصية ، لاقيت فى بلادى وفى غير بلادى فى مراحل
عديدة ومتعاقبة ، على امتداد عشرين عاماً ، عنثاً شديداً كلفنى أنا لقمة
عيشى وأنا حريتى وأمنى ، بل وما هو أخطر من هذا غير طريقي فى
الحياة وحولنى من أستاذ يعيش بين «أطلال» سبنسر ويتجول فى «فردوس»
ميلتون المفقود ويستمع مع شلى إلى زمزمة الرياح الغربية ويسكن عاجى
الأبراج مع فرسان كيتس وسيدة شالوت إلى أديب صحفى يضيع وقته
ووقت قرائه على أشياء علم الله أن أكثرها هباء وزبد يذهب جفاء .
كل هذا حدث لى لاعتقاد الكثيرين أنى شيوعى خطير وهو شرف لى
أدعيه وتهمه لا أنكرها . ولا شك أن الروس كغيرهم قد سمعوا بذلك .
ولم يبق أمامى إلا أن أتصور أن لى ملفاً سيئاً عند هؤلاء القوم جعلهم
يترددون طويلاً أمام اسمى لا يعرفون أيتسمون أم يتجهون .

وعلى كل فقد بقى اللغز عندى بغير حل ، ولا يزال . وكان مصدر
راحة لى أن أستعرض تجاربنى وتجارب الغير المسلية وغير المسلية مع حفاظ
الحدود فى كل بلاد العالم . ذكرت ما حدث لصديقى الدكتور على الجريتلى
حين نزل مطار نيويورك لأول مرة عام ١٩٤٦ فى طريقه إلى مؤتمر

بريتون وودز ، فقد استوقفه ضابط الجوازات وسأله هذا السؤال الغريب :
« هل جئت إلى أمريكا لاغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ؟ »
(وكانوا قبل ذلك بشهرين قد عثروا على قنبلة في البيت الأبيض دسها
شاب من كوستاريكا) . وذكرت ما قاله لي ضابط الجوازات في ميناء
نيويورك عندما وطئت أرض أمريكا لأول مرة عام ١٩٥١ في طريقى
إلى جامعة بريستون ، قال وهو يتفحص جواز سفرى « عمك محاضر فى
جامعة القاهرة . هل جئت لتحاضر فى الشيوعية بجامعة برنستون ؟ »
دعابات ثقيلة أكرم منها المنع الشامل ، فلوخبر أن يرد الضيف كريماً
من أن يلقاك رب الدار فى جهامة واسترابة .

ثم حدثت مفاجأة . فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ،
فوجئت بدق شديد متوالى الضربات على باب غرفتى بفندق سلافيا ،
فهرعت وكنت لا أزال فى بيجامتى ، إلى الباب لأعرف من الطارق
وما الخبر . وإذا بى وجهها لوجه أمام قنصل روسيا فى بلجراد . وصاح
أنا تولى ستيبانيوك عبر الباب قائلاً فى بشر عظيم : « يادكتور عوض .
لقد وصلت تأشيرتك » . قلت : أولاً تفضل ثم قل لى ما الخبر . ودخل
استيبانيوك الحجرة قائلاً : « ناولنى جواز سفرك . جاءتنا من موسكو
أمس مساء برقية تقول إن اتحاد الكتاب فى انتظارك . هات الباسبور
لأعطيك الفيزا ثم اتبعنى إلى السفارة . » قلت فى ارتباك : « ولكنى غيرت
كل شىء ، غيرت التذاكر وحصلت أمس على التأشيرات لروما ولندن
وباريس . . بل وأبرقت لرئيس تحرير الأهرام بأنى غيرت نخط سيرى

وفتح الباب القنصلى وأدخاني ثم أغلقه. وجاست أمامه أرقبه وهو يتم — إن هذا غير ممكن، فلنترك رحلتى الروسية إلى فرصة أخرى» قال وقد بدا عليه حزن شديد: «لا. لا. سوف يحزنون فى اتحاد الكتاب إذا لم تزر الاتحاد السوفيتى. إنهم أعدوا كل شىء لكى تزور ما تريد، لا بد أنها كانت غلطة من موظف صغير فى وزارة الخارجية أو فى اتحاد الكتاب أهمل البرقيات أو لم يقدر من تكون. إننى أعتذر بحرارة.»

وكان استيبانويوك طبعاً يعتذر «للأهرام» لالى. فهو صدى قديم ويعرف معنى «الأهرام» ولعلنا عندما التقينا لم يكن سمع باسمى، ولكن صفتى كمحرر أدبى لجريدة «الأهرام» كانت مصدراً حافواً وتوارتبا كالتى السابقة.

وكان لا بد من اتخاذ قرار فورى. وحسبها بسرعة البرق: إن رفضى دخول الاتحاد السوفيتى بعد أن جاءتنى التأشيرة سوف يؤول على أنه موقف، وأنا جئت لأتعلم لا لأتخذ مواقف. ثم إنى لست وحدى فى هذا، فهناك أيضاً جريدتى.

وسلمته جواز سفرى فى استسلام. وهول به إلى السفارة الروسية التى كانت على مسيرة خمس دقائق. وفى دقيقتين كنت فى بدلتى. وفى لحظة صهيانية أصبت برعب شديد على جواز سفرى أن يحدث له شىء، فأنت خارج بلادك بلا جواز سفر رجل فقد دليل وجوده. وبلغت للسفارة فوجدتها لا تزال مغلقة. لقد كانت الساعة السابعة والربع. ودرت حول السور فرأيت من خلال زجاج النافذة صاحبى أناتولى ستيبانوك مكتباً على مكتبه. ونقرت له زجاج النافذة، فرأنى ونهض

الاجراءات مع زملائه وصوت الآلة الكاتبة يدق عنيفاً أعنف من التيكروز
وسألني أين تريد أن تذهب ؟ قالت : موسكو ولننجراد . فقط ؟
نعم ، فقط . وكتبت الآلة : موسكو ولننجراد . كم تحب أن تبقى
قلت : أسبوعين . قال : فقط ؟ نعم ، فقط . هذا قليل . خذ شهراً .
وكتبت الآلة شهراً . ثم بعض التوقيعات وبعض الأختام ، وانتهى كل شيء .
ولم يتركني أنا تولى : اتصل أولاً بشركة الطيران الروسية وحجز لي مكاناً
في طائرة الغد ثم قال : هيا إلى شركة الطيران العربية المتحدة نبدل تذكر
السفر . وكانت هذه أشق مرحلة في الموضوع . بالأمس فقط أزعجتهم
لتغيير تذكرى إلى الغرب وهأنذا أزعجتهم اليوم من جديد لتغييرها
إلى الشرق . وفي الشركة شرحت لهم الموضوع . وأدرك الرجل الذكى
مصطفى عبد الله دقة الموقف فأولى الأمر عنايته الشخصية . ولم يتركني
أنا تولى استيبانيوك إلا وأنا على جناح الطائرة الروسى الميمون ، وكأنى وديعة
يخاف أن تضيق فى الطريق .

ولم أنس قبل سنرى أن أبرق لجريدى بالعدول عن العدول .



الفصل الرابع

موسكو

مدينة القباب والأخلاق الناضجة

عندما نزلت مطار موسكو كانت منوياتي مرتفعة إلى درجة النمام، كنت أولاً فرحاً بتحقيق حلمي الكبير . وهو زيارة الاتحاد السوفيتي . وكانت تجربتي اليوجوسلافية المرهقة ثانياً قد أعدتني نفسياً لقبول أى شيء يأتي به القدر بصدور واسع . وكان اليوم عصر السبت ، وهو يقابل عصر الخميس عندنا ، أى بداية عطلة نهاية الأسبوع ، ولم أكن أعرف إن كان اتحاد الكتاب السوفيت قد تسلم برقية القمصيل الروسي في بلجراد بوعده وصول أم لا . ولم يعد يخيفني ألا أجد من ينتظرنى في مطار أو أن أجد نفسى وسط قوم أكلمهم بمفردات عالمية تكملها لغة الإشارة . بعد عشرة أيام من الإقادة بين سلاف الجنوب كنت على تمام الأهمية لمواجهة سلاف الشمال .

وفي مطار موسكو ركبت تاكسى . وقلت : « هوتيل » .
ونزلت في فندق مينسك . لا مكان .. وبحثت لى الموظفة عن مكان
في الفنادق الأخرى .. لا مكان في فندق روسيا . لا مكان في متروبول .

لا مكان في أوكرانيا . لا مكان في الناشيونال . قلت ضاحكاً :
 يبدو أني سأنام في الشارع . قالت السيدة ضاحكة : هذا ممنوع في
 الاتحاد السوفييتي . قلت ضاحكاً : إذن سأفام في قسم البوليس . قالت :
 لا أظن أننا سنتركك تنام في قسم البوليس . واختفت دقيقتين ثم عادت
 وقالت : حجرتك رقمها ١٠١٥ ، وسيقرضك الفندق ٢٥ روبل لتحاسب
 التاكسي حتى تبدل دولاراتك غداً من البنك . وحمل السائق الصبور
 أمتعتي داخل الفندق وهو لا يكف عن الابتسام ، وكأنه شريك
 في هذه اللعبة المسلية .

وهكذا تجاوزنا الأزمة بالابتسام . وكان كل شيء في موسكو
 يشع بالدفء ، دفء القلوب ، من المطار إلى حجرتي . من موظف
 الجمرتك إلى عامل المصعد . فمن لم يبتسم لك بشفتيه ابتسم بعينيه . ولم
 أضيع وقتاً . استبدلت ملابسى ونزلت أتجول في شارع جوركى ، وسرت
 أتسكع من ميدان مايا كوفسكى إلى ميدان بوشكين ومن ميدان بوشكين
 إلى الميدان الأحمر وقبابه الذهبية في ظلال الكرملين . وشارع جوركى
 الفسيح مشرق بالنهار حتى بعد الغروب . وذهبت أتمعن تماثيل موسكو
 العظيمة الواقفة في قوة وشموخ من قوة الإنسان وشموخه ، لا تأله فيها ولا
 تعظم كذلك الواقف هادمه في السحاب في ميدان الطرف الأغر بلندن ،
 ولا صقل ولا جمال ولا واقعية كتلك الواقفة في متناول الكف في
 ميادين مدينة النور ، وإنما اعتزاز من عزة الإنسان الذى يحمل على
 كاهليه عبء مصير الإنسان . وعلى تماثيل بوشكين قرأت

أشعاره على قاعدته تقول :

« لسوف يسمعون بي في كل أركان روسيا العظيمة ولسوف يلهج

كل لسان :

أنا سليل السلاف الطموح سليل الفين والتونج المتبربرين حتى الآن
سليل الكالميك ، أصحاب السهوب » .

« ولسوف يخبنى قوى طويلا لأن قيثارتى هزت جميل المشاعر ،
ولأني أنشدت للحرية الأناشيد في زمنى العاتى ، وناديت بالرحمة
على المقهورين » .

فأجد أن بوشكين قال شيئاً أكثر من قول المتنبي : « إذا قلت
شعراً أصبح الدهر منشداً » وأكثر مما قال « وارس في قصيدته الشهيرة :
« لقد بنيت أثراً أكثر شموخاً من الهرم . . إلخ » لأن بوشكين لم يذكر
نفسه فحسب وإنما ذكر حرية الأحرار وشقاء العبيد .

ثم أعود القهقري من ميدان بوشكين إلى ميدان ما يا كوفسكى
فأقرأ شعره يقول على قاعدة تمثاله :

« وأغنى لوطنى وجمهورية ، فغنأى لربيع الإنسانية يولد من الكدح

والقتال » .

فأقول هذه رؤيا شاعر عاصر صراع البلاشفة العظيم وحلم بالعالم
الجلديد الموعود يخرج من العالم القديم الشقى كما تخرج تباشير الربيع
من أحشاء الشتاء الحزين . والشوارع كلها فسيحة جداً كأنك في
روما منتظمة تماماً ، كأنك في نيويورك كلها عمارات رازحة شهباء بنوافذها

الصغيرة الكثيرة وكأنها ألواح حجرية جسيمة مقلمة تملأ وجه السماء ،
 فللمدينة طابع خاص وشخصية خاصة ، والمدينة حديثة التخطيط
 رغم أن عمرها من العصور الوسطى . ولا مكان فيها للفيلا أو للبيت
 الصغير لأنه لا مكان فيها لفرد مستقل عن الجماعة يبنى لنفسه بيتاً
 مستقلاً عن الجماعة . وكنت من قبل أتوهم موسكو في خيالي مدينة
 قاسية عابسة مظلمة كلها قباب كقباب الكرملين تراكت عليها الغيوم
 الثقيلة المطيرة السوداء ، فإذا هي مدينة عصرية سمحة ودوتجب
 الزائرين وتعطيهم ما عندها بقلب سخى . قالوا تلك صورة موسكو ،
 بقيت لك مما قرأت من روايات دوستويفسكى أو نوادر عن إيمان الرهيب .
 أما موسكو الجديدة فهي بنت المجتمع الاشتراكي . وأحببت هذه المدينة
 منذ اليوم الأول رغم أنها لم تكن « جميلة » كروما أو باريس .
 ثم بدأت أستكشف أشياء عن مدينتي . عضنى الجوع نحو العاشرة
 مساء فخرجت أبحث عن زاد فوجدت الشوارع مقنرة أو شبه مقنرة .
 قالوا لي في الفندق إذا لم تسرع فسوف تنام على الطوى ، لأن كل
 المطاعم تظنيء أنوارها وتغلق أبوابها في الحادية عشرة . قلت : ألا تسهرون
 في موسكو ؟ فضحكوا ضحكة فيها تغامز وقالوا : كل السياح يسألون
 هذا السؤال . تقصد هل لدينا كاباريهات ؟ عندنا نكتة تقول : استوقف
 سائح رجلا من موسكو وسأله : أين أقرب كاباريه ، فأجابه الرجل :
 في هلسنكى . (وهلسنكى هذه عاصمة فنلندا !) ها ! ها ! ولكن هيا
 عجل . ستجد مطعماً قرب الميدان الأحمر . ومشيت نحو ربع ساعة

لا عمل لي إلا قراءة اللافتات التي لم أفهم منها شيئاً ، لأنها مكتوبة بالأبجدية السيريلية وليس بالأبجدية اللاتينية . وأخيراً قرأت لافتة تقول : ПЕТОРАН (الروس ينطقونها « رستوان » ويكتبونها « بكتوباه » بأبجديتهم) . وصعدت في عمارة جسيمة وفي القاعة العظيمة وجدت نحو خمسمائة طاعم يأكلون ومغنية تغنى على نغمات أوركسترا رقصات أمريكية كلها شبيهة بالتويست ، وما هي بالتويست ، والراقصون كلهم من الروس ، كانت المغنية « تجود » التويست الأمريكية بمقاطع أوبرالية ثم تعود إلى الإيقاع السريع المنتظم ! وكان لهذا وقع غريب في نفسي أحسست بأن الروس يريدون أن ينفنحوا للجاز الغربي ، ولكن منهج حياتهم الاجتماعية وبيئتهم النفسية الخاصة وربما طول عزلتهم لا تمكنهم من التعبير عن مشاعرهم باغة الجاز .

وهكذا اكتشفت منذ ليلتي الأولى في موسكو أن حياة الليل لا وجود لها في موسكو ، وقس على ذلك بقية مدن الاتحاد السوفيتي . وليس في موسكو كلها إلا بار واحد صغير بجوار الميدان الأحمر أعد للأمرىكان وأضرابهم من السياح ، يسهر حتى الخامسة صباحاً ، وليس فيه طعام ولا موسيقى وإنما فيه الشراب حتى الصباح ولا تقبل فيه عملة إلا الدولار ، وبهنا يضمون عام ترداد الروس عليه . ولعلها مجاملة من الحكومة الروسية لرجال الأعمال الأجانب الذين اعتادوا في بلادهم السهر خارج بيوتهم . أما الروس فيشربون في بيوتهم ، ويندر أن ترى روسياً خارج داره بعد منتصف الليل ، فإذا رثى روسي يترنج من الشراب في الطريق العام اعتبروا

عمله هذا مجلبة للعار على المجتمع الشيوعي . وفضحه . وذكروا لي أن أستاذاً في جامعة موسكو ضبط في حالة سكر بين ، فبعد إجراء اللازم نحوه في قسم البوليس (الدوش وغسيل الأمعاء) . التقطوا صورته وعلقوها في الأوتوبيسات بأمر الحزب لينعظ الكافة بنضيحته . وفي موسكو الأوتوبيسات بلا كسارية ، وكل راكب يقطع تذكرته بنفسه بعد الركوب ، فإن ضبطوا راكباً بالسفلة صوروه وعلقوا صورته في كل وسائل المواصلات وعلى الجدران . وهكذا يفتخرون مع كل الجرائم الصغيرة التي لا يعاقب عليها القانون ، أو الانحرافات الخلقية التي ينفع فيها الردع الاجتماعي ولا تدخل تحت طائلة قانون العقوبات ، كطالب يسرق أشياء زملائه أو عامل يهمل في عمله وغير ذلك ، ومعنى هذا أن الحزب يقوم بدور « المطوعين » ، بطريقة أقل إيذاء لشخص الإنسان ، ولكن أكثر خدشا لكرامته . وهذا عندهم وسيلة ناجحة لتربية « الضمير » الاجتماعي ، وفي الغرب يسمون هذا « الخوف » الاجتماعي ولا يعلقون في الأماكن العامة إلا صور عتاة المجرمين المطاوب القمبض عليهم . وسواء سميت هذا تربية للضمير أو تربية للخوف فقد رأيت النتيجة ماحوسة خلال أسبوعين من إقامتي في أكبر مدينتين في الاتحاد السوفيتي : موسكو ولنينجراد . كل الناس تقريباً في بيوتهم قبل منتصف الليل . لا سكارى في الطرقي العام إلا ما ندر . كل الناس كسارية نفسها في وسائل النقل الخ .

وأنا من المدرسة التي لا ترادف الضمير بالخوف ، بل أعتقد أن الضمير لا يصبح ضميراً حقيقياً إلا إذا صنى من كل شائبة من شوائب

الخوف كحال القادر على الظالم ثم لا يظلم أو القادر على السرقة أو الزنا أو أى خطأ كان ثم لا يسرق ولا يزنى ولا يخطئ . أما الإرهاب الخلقى فلا يثمر الضمير وإنما يثمر العقد النفسية وقد جربه البيوريتان وجهداعات الميثوديست فى الغرب من غلاة التطهر الدينى ، فكان القس حين يجتمع برعيته فى الكنيسة يوم الأحد يزأر وسط المصلين : « وأنت يامسز كذا ماذا كنت تفعلين فى حديقة جارك فلان بعد منتصف الليل » فترجف المرأة المسكينة تحت النظرات النارية المسددة إليها من كل جانب وتنهأ وتنتحب وتعتبرف بذنباها أو « تنقد ذاتها » كما يقولون بلغة اليوم . ومع ذلك فقد انتابنى إحساس واضح بأن هذا ليس بالضبط ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى . انتابنى الإحساس بأنى أقيم فى مجتمع « باتريستى » أو « أبوى » كبير لا يقوم على إرهاب السلطة للشعب ، ولكن يقوم على علاقة تشبه وصاية الأب أو الأم على الأبناء القصر

فكما تقول الأم اولدها : الساعة الآن التاسعة ، اشرب لبنك ونم فينصاع الولد لنصائحها بشعور غير شعور الخوف من الزجر أو بشعور مضاف إلى شعور الخوف من الزجر ، ودو شعور مزيج من الحب والولاء والثقة فى حكمة الأم وحرصها عليه ، وكما يقول الأب لابنه : لا تذهب هذا المساء إلى السينما أو إياك أن تعاكس بنت الجيران فينصاع الابن لأوصاياها ، كذلك أحسست بأن استجابة الناس لتوجيهات أولى الأمر منهم شبيهة بطاعة البنين للآباء ، أساسها ليس مجرد الخوف من التأديب ولكن عواطف عديدة مركبة مضافة إلى ذلك . وربما كان

هذا مصدر خطأ الغرب في فهم منابع الساوك الاجتماعي الروسي والطريقة الروسية في التماسك الاجتماعي والسياسي بل ومنهج الروس في التفكير الاجتماعي . فالغرب يعزو كل ما يراه من طاعة وانصياع وتمثال أو «كونفورمية» في الفكر الروسي والساوك الروسي إلى مجرد عامل الخوف من السلطة ، والأرجح عندي أن الشعور بأبوة السلطة هو الأساس الأقوى ، حتى في عهد الإرهاب الاستاليني . ومن الآباء من يربط أولاده في عمود السرير ولا يتركهم إلا بعد أن تتحطم العصا على ظهورهم بدافع الأبوة وبقصد التنشئة الصالحة .

والذي هداني إلى هذا التفكير هو ما لاحظته في مناقشاتي مع عشرات من الروس الذين التقيت بهم ، من أنه لا أثر للتعزيم الأخلاقي بالمعنى الفكتوري أو البيوريتاني عندهم ، ولا أثر لتأصيل الفضيلة في الدين ، فالماركسية قد جعلتهم علمانيين مائة في المائة وصدقتهم من الإيمان بالغيبيات التقليدية . فاستقامتهم إذن ليس منبعها نوازع الدين أو أوامره أو نواهيه ، وهم قد تخففوا في نظرتهم للجنس أو الشهوات عامة من فكرة « المحرمات » أو فكرة « الخطيئة » التي تغرسها المسيحية وكل أديان التوحيد في نفوس المؤمنين . والماركسية ذاتها ليس فيها مجموعة من القوانين الأخلاقية يمكن أن تحل محل الأخلاق الدينية . فالذي ظهر محل الأخلاق الدينية في روسيا بعد « الهوجة » الشيوعية الأولى هو لا ئحة غير مكتوبة بالحقوق والواجبات الاجتماعية التي ترسبت في وجدان الروس فاتخذت قوة القوانين الأخلاقية . وقد كان لستالين رغم

عيوبه الكثيرة فضل كبير في إقامة مجتمعه على الأخلاق الجديدة ،
وأساسها تقديس العمل وتقديس الوطن وتقديس المجتمع .

ولم أجد أحداً يتماثل من نظام « بيتك . . بيتك » قبل الساعة
العاشرة . بل على العكس من ذلك كنت أجد دفاعاً منطقياً هادئاً
من كل من حدثهم في هذا الموضوع . والمنطق بسيط وواضح :
من يسهر في الليل يتراحى في النهار . ونحن نريد أن نكون مجتمعاً منتجاً ،
ولذا فنحن لا نسهر في الليل . كان هذا الكلام يقال لي فأجده
مقنعاً وغير مقنع ، وكنت أجده يذكر بنصائح الآباء للأبناء . ولكني
كنت أتساءل : وما بال شعوب الغرب تسهر في الليل وتعمل في النهار ؟
بيكاديللي ومومارتير شعلة من ضياء في الثانية صباحاً ورغم ذلك لا
أحسب الإنجليز أو الفرنسيين أقل إنتاجاً من الروس . ووجدت تفسيراً
آخر : حياة الليل معناها حياة المتعة ، وحياة المتعة مهما كانت بريئة
معناها الإنفاق عن سعة . وفتح عيون الناس على المتعة يدفعهم إلى البحث
عن الدخل الواسع بالمشروع وبغير المشروع أو يدفعهم إلى القلق والسخط
إذا لم يجدوا إليه سبيلاً . فليغلق إذن هذا الباب بإلغاء حياة الليل . وهذه
هي الفضائل الاقتصادية . ليس فيها جديد ، فهي الفضائل الممارسة
في كل أسرة من الأسر البورجوازية الصغيرة التي تندد بكل متعة تبدد
دخل الأسرة المتقشفة على الاستهلاك بدل الاستثمار . وقد كانت هذه
هي الفضائل اللازمة للشعب الروسي الجاهل الفقير المستعبد تحت
القيصرية اللاهية: السفهية لكي يتحول إلى شعب متعلم يعيش حياة مستورة

محررة من ذل الفقراء وخنوع الجياع .

وكان على أن أواجه يومى التالى (الأحد) فى موسكو وحيداً قبل أن أتمكن من الاتصال باتحاد الكتاب فى يوم الاثنين ليرسلوا إلى مترجماً أو مرافقاً ، وما أدراك ما يوم الأحد فى بلاد لا تعرف لغتها ولا أسماء معالمها . وتنبأت بأحد مقفر ضائع أفضيه وحدى فى غرفتى لا أرى شيئاً ، فإن خرجت فلخطوات حتى لا أتوه . ولكن حظى كان خيراً مما توقعت .

دق جرس تليفونى وبدأ هذا الحوار الغريب . امرأة تقول بالروسية أى كلام ، افتراضاً « خراشو خراشو خراشو » . وأجبت بالفرنسية أنا كذا واسمى كذا وصفى كذا . أتفهمين الفرنسية ؟ . . أجابت بفرنسية متعثرة : « قليلا . . أنا أسأل عن صديقتى . سونيا » قلت : « آسف ياسيدتى لا بد أنها رحلت قبل مجيئى » ، قالت : « خسارة . كنا اتفقنا مع صديقتى لوس أن نخرج بالأطفال للجنائن » . ثم ضحكت . قلت : « آسف ياسيدتى ، ولكن صاحبتك غير موجودة » ثم لمع فى عقلى خاطر عملى غريب . مادامت هناك سيدة تريد أن تتسكع يوم الأحد فلماذا لا تتسكع معى فى المتاحف بدلا من الجنائن . قلت : « اسمعى . مادمت تريدين النزهة فأنا غريب هنا وأريد أن أزور المتاحف ولا أجد من يساعدنى على لغتكم . فهل تستطيعين مساعدتى ؟ » وضحكت ضحكة طويلة كأنما كلامى دغدغها . قالت : « توريست ؟ » (أى سائح) ؟ ولم أجد داعيا لتفسير الأمور فقلت : « نعم سائح مصرى » وعادت إلى ضحكتها فقد كان الموقف مسليا . قالت : « كم عمرك ؟ » قلت : « ٥٦ » . قالت :

« هل أنت أبيض أو أسود ؟ » وبدأت أتوجس . قلت : « متوسط » .
 قالت : « هل أنت طويل أو قصير ؟ » وضحكنا معاً . وقلت :
 « متوسط » قالت : « آتى مع صديقتى لوس والأطفال » . قلت :
 « عظيم . متى ؟ » أجابت : « الساعة الواحدة . أنا إسمى أوبلجا » .
 قلت : « تعالى فى الواحدة واطلبنى من صالون الحوتيل بالتليفون
 أنزل فوراً » . قالت : « كلا ، سننتظر خارج اللوكاندة » قلت :
 « كما تريدن . ولكنى لا أعرف شكلك » فضحكت وقالت ، « أنا
 ألبس بلوزة زرقاء . وستعرفن بالأطفال » قلت : « اتفقنا » . وانتهت هذه
 المكالمة الغريبة . وخف إلى صباح الأحد الكاتب رومانسييف الموظف
 باتحاد الكتاب . قصصت عليه قصة أوبلجا وحديثها التليفونى . فضحك
 وقال : « بداية لا بأس بها . » ويبدو أن ذهنه انصرف إلى أشياء أخرى
 وهو معذور فى ذلك . قلت : « هيا بنا ننتظر خارج الفندق فالساعة
 الآن الواحدة إلا دقيقتين » .

وخرجنا ووجدنا سيدتين متوسطتين فى الجمال فى نحو الخامسة
 والثلاثين . ومعهما ثلاث بنات بين السابعة والعاشره وعرفت أوبلجا من
 بلوزتها الزرقاء . . وتعارفنا فى لحظة .

ودعوت الجميع للغداء معى فى مطعم فندق منسك ، قبل أن نبدأ
 التجوال . وعرفت أن أوبلجا مهندسة بناء سفن وأن صاحبها خبيرة اقتصاد
 وكان حديثنا بثلاث لغات : مع رومانسييف بالإنجليزية ومع السيدتين
 بالفرنسية . وكانت تتخلله مناقشات طويلة باللغة الروسية بين أوبلجا



ورومانسييف . ثم لا حظت الارتباك على وجه أوبلحا فسألت رومانسييف :
« عم تتحدثان ؟ » قال : « كانت تعتذر لى عن تعارفكما الغريب بأنها
حين عرفت أنك سائح غريب ظنت أنها تقدم خدمة وطنية بمساعدتك » .
وضحكت فى استياء لأنى لم أستسغ هذا النوع من الكلام . ولا أعرف
إن كان رومانسييف قد أخرجها بقلة ذوق فعاتبها على هذا الأسلوب
فى التعارف بالغرباء أم أنها أحست بالحرج من وجوده فذهبت تعتذر
من تلقاء نفسها بعد أن أدركت صفتى وعرفت أنه مندوب اتحاد الكتاب .
والأمريسيان فى الحالين ، وهو وضع امرأة تخجل من سوء تصرفها وتقدم
تفسيراً عنه للغرباء ، وكأنها مسؤولة أمام رومانسييف ، وكأنه ممثل المجتمع
ويشير إليها بأصبع الاتهام رغم أنه لا تربطها به حتى أوهى الروابط .
ثم هذا التبحك فى « خدمة الوطن » كأنما مجرد الاستطلاع الإنسانى
العادى الذى يدفع الناس للتعرف بالناس أو البر بالغرباء فى حد ذاته
جريمة . لو أن هذا جرى فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لما اجترأ أحد على
التطفل على الساوك الشخصى لأحد ، ولما أحس أحد بأن فى مثل هذا
الموقف ما يستوجب الاعتذار .

وأنا أذكر هذا الحادث التافه لأبين مبلغ سطوة « الضمير »
الاجتماعى فى روسيا السوفييتية . كل يتصرف وكأن ألف عين تراقبه
حتى فى أخص خصوصياته . أقول الضمير الاجتماعى لا الضمير الأخلاقى ،
فحيث لا تزم ولا إحساس بالحطيئة نحن خارج نطاق الأخلاق .
أذكره لأبين للناس أن المجتمع الروسى السوفييتى مجتمع فضيلة ومكارم

أخلاق على عكس ما كان يشيع عنه أعداؤه المضالون .
وصحبتني أوبلنا ومجموعتها إلى متحف قصر الأمير يوسوبوف خارج
موسكو وسط غابة ارخانجاسكويآ .

دخلت متحفاً صغيراً ثم غابة كبيرة تبلغ نحو عشرين فداناً . وقبل
أن أدخل المتحف وجدت نفسي ألبس فوق حدائي كبتية الداخين
أنحفاً من كاوتشوك ، فأحسست برهبة المصلي يخلع نعله قبل الصلاة .
وكان المقصود حماية باركيه القصر من آلاف بل ملايين الأقدام ،
وربما منع التزييق والكركمة ليتأمل الناس في صمت وجلال . ووجدت
نفسى بين كنوز من أروع نفائس أوربا في التصوير والنحت ومن كل
مدارس الفن ، جمعها هذا الأمير الخطير الذى اشتهر اسمه فى التاريخ بأنه
قاتل راسبوتين الجبار . كان يوسوبوف من أوسع أرستقراطي روسيا
ثراء أيام القيصرية وكانت له ضياع لا حصر لها : خمسة قصور أوستة
مبثوثة فى أرجاء روسيا ، فاستولى عليها البلاشفة ، وحوأوها إلى متاحف ومرافق
عامة : نهب الفلاحين ليجمع كنوز الفن على تقاليد الأرستقراطية
الأصيلة فظلم بلاده وخدمها فى آن واحد .

ولم أروا لحا بعد ذلك المساء . قلت : غدا يتسلمنى اتحاد الكتاب .
شكراً من القلب ووداعاً .

أربعة عشر يوماً قضيتها فى روسيا بين موسكو ولندنجراد وبعض
الريف . لم أر فيها متعتلاً متمسكهاً أو شحاذاً أو رجلاً أو امرأة فى
أستمال أو بغياً تنساب بين مصابيح الشارع . ولا شك أن هناك نماذج

من هؤلاء وأولئك ولكنها نادرة لا تراها إلا العين المترصدة ولم أر إلا مخموراً واحداً رغم شهرة الروس في قربة الفودكا . أربعة عشر يوماً قضيتها في روسيا ونظمت فيها مئات المواعيد للقاءاتي وتحركاتي فلم يحدث قط أن اختلت المواعيد واو دقيقة واحدة . يقوون في الثامنة أو العاشرة فيتم المطلوب في الثامنة أو العاشرة . ولم أر إلا (ميني جيب) واحدة ولم أر شابا واحداً من طراز الهمبيز . ولم أر رجلا واحداً أنيقاً أو امرأة واحدة أنيقة ، ولكني رأيت ملايين الناس ، حتى الخدم وأفقر الفقراء في ملابس سورية نظيفة وسط لا رثاثة فيها ولا هندام .



رحلة في عقل ساشاسخاروف

جاءني رجل وقال بالفرنسية: « اسمي تشيزنوكونوف من اتحاد الكتاب القسم الإفريقي ، جئت في الموعد المحدد لأصطحبك إلى الاتحاد لتلتقي بالمستولين وترسم معهم برنامج زيارتك للاتحاد السوفيتي . لقد كنت المترجم المعين لمرافقة الدكتور محمد مندور منذ أكثر من عشر سنوات . كنت أحب أن أكون مرافقك ولكنهم عينوا لك مرافقاً آخر . ومع ذلك فربما جئت لمساعدتك في بعض المراحل . سيخصصون لك سيارة لانتقالاتك أو ما يقوم مقامها » .

وكان ذكر الدكتور مندور كافياً لإزالة الحواجز بيني وبينه . وفي الطريق طفقنا نتبادل الذكريات عن الدكتور مندور ، ونخيل إلى أن تشيزنوكونوف خير من يكتب فصلاً اسمه « محمد مندور في الاتحاد السوفيتي » تنشره مجلة « الشرق » التي رأس تحريرها زمنا وفاء لذكراه ثم اكتشفت أن تشيزنوكونوف يعرف كل أدبائنا الذين زاروا الاتحاد السوفيتي معرفة شخصية وقرأت في عينيه المداعبتين أن له آراء فيهم وإن لم يفصح لي بشيء منها .

وبلغنا اتحاد الكتاب . قال : هذا القصر كان قصر الكونت سولوجوب فصادرته الدولة في ثورة ١٩١٧ . أتذكر شخصية الكونت روستوف في « الحرب والسلام » لتولستوى ؟ قلت : نعم ؟ قال : سولوجوب هو النموذج الحى الذى بنى عليه تولستوى شخصية الكونت روستوف . نحن لن نذهب إلى القصر ولكن إلى هذا الجناح . وأشار إلى مبنى قسمى يشبه جزءاً من كلية الفنون التطبيقية عندنا إلى اليسار : « هنا إدارة العلاقات الثقافية الخارجية . ستقابل رئيسها الرفيق كوسور وكوف ، والرفيق تكاتشيف رئيس القسم الأفروأسيوى فيها . هذا المبنى كان اسطبلات القصر » .

وسألت تشيزنو كوف : « هل المستشفة يالينا ستيفانونا تعمل معكم ؟ أنا أحب أن أقابلها فقد تعرفت بها في القاهرة وأحب أن أراها » . قال : « لا أظن أنك تستطيع أن تراها . فأمرها مريضة في المستشفى وهى تلازمها ثم إنها في أجازة . وقفزت إلى ذاكرتى كلمات كنت قد سمعتها في القاهرة منذ سنة ، إن ستيفانوا مغضوب عليها من اتحاد الكتاب . وتأملت كلمات تشيزنو كوف فوجدتها غير مقنعة فكلنا لنا أقارب في المستشفيات ولكننا لا نلازمهم ٢٤ ساعة في اليوم .. أعدت في إصرار : « أرجو أن أراها ، فأنا في حياتى النقيت بعشرات المستشرقين . ولكنى لم أجد منهم من يتقن لغتنا الدارجة بلهجتها غير يالينا ستيفانوا وصديقى الإنجليزى دنيس جونسون ديفيز ، وصديقى الهولندى يان بروخمان الأستاذ بجامعة لايدن » . قال : سنرى .

والتقيت بالمسؤولين فى اتحاد الكتاب وتداولنا فى برنامج زيارتى

وكانت المشكلة أننا في عز الصيف وأكثر الكتاب خارج موسكو .
 هكذا قالوا . طلبت مقابلة الشاعر يوفتيشنكو والشاعرة بيالا أحمدو ليينا
 وغيرهما فقاوا هم جميعاً في المصايف أو الأرياف . قلت : مستحيل
 أن تقتصر زيارتي على مقابلة المباني والآثار والأحجار . أنا أريد أن
 ألتقي بالبشر . قالوا : هل لك اهتمامات خاصة ؟ قلت . أريد أن أدرس
 حالة المسرح الرومى . وبالذات من الناحية التنظيمية كذلك أريد
 أن ألتقى ببعض خبراء التعليم لأعرف شيئاً عن التعليم في بلادكم ، وأن
 ألتقى ببعض الشبان : وبعض المهتمين بالدراسات الشرقية . قالوا :
 سنرتب لك لقاء مع بعض أساتذة معهد الماركسية اللينينية ومع بعض الشبان
 من محررى مجلة « يوناست » (الشباب) ومع الرفيق جروموف المختص
 فى المسرح . ونقترح أيضاً أن تزور عزبة تولستوى فى ياسنيا بوليانا
 قبل سفرك إلى ليننجراد ، وأن تحاضرنا فى اتحاد الكتاب عن الأدب
 المصرى الحديث . . قلت : كل هذا جميل ولكن . . أين الأدباء ؟
 قالوا : سنحاول . وأحسست أن زيارتي ستكون على غير ما كنت
 أرجو .

وتذكرت يايينا ستيفانوفا ، وطلبت مقابلاتها ، فأعادوا على نفس
 الكلام الذى سمعته من تشيزنوكوف . وانتابنى شيء من الضيق . قلت :
 « لست أفهم ، هل المريضة فى المستشفى أمها أم هى ؟ » . قلتما بطريقة
 تعنى : أننا نقرأ عنكم أنكم تضعون بعض الأدباء المغضوب عليهم فى
 المستشفيات على طريقة الروائيين دانييل وسنيافسكى . وأضفت : « أنا

أفهم أن تقول هي إنها لا تستطيع مقابلاتي أما أن يقول هذا غيرها فغير مفهوم . أعطوني رقم تليفونها » . ولم تحدث كلماتي أى أثر فقد كانت الوجوه كالأقنعة . وكرروا في هدوء نفس العبارات الأولى ، ونسوا رقم التليفون .

وقبل أن أنصرف عرفوني بشاب ضئيل الجسم طولا وعرضاً ممتقع الوجه خال من الوسامة في الثانية والعشرين من عمره ، وقالوا : هذا ساشا . . ساشا سخاروف ، سيكون مترجمك أثناء إقامتك ، وهو يعرف الإنجليزية قلت : تشرفنا وشكراً ، وخرجت أتوكأ على مرافقي .

فيما بعد عرفت أن « ساشا » هو اسم التديل الروسي لاسم الكساندر وان « سخاروف » معناها « السكرى » أو أى شىء متصل بالسكر . وبعد ذلك اكتشفت أن ساشا هذا من أئمن الأشياء التي عرفتها في الاتحاد السوفييتي ، فقد كان فتى شديد الذكاء يفهم ما يلقي إليه من كلام مهما كان مغلفاً . وكان يتقن الإنجليزية إتقان مختص قليل الأخطاء رغم أنه كان في السنة النهائية بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة موسكو ، وكان يعرف عن الأدب ما يكفي ، ثم اختار أن يتخصص في فرع من اللغويات الإنجليزية حديث جدا غايته تركيز اللغة في بوثقة بحيث تصلح لتغذية العقول الأليكترونية بالمعلومات . وكان يعرف الكثير عن بلاده وعن العالم الخارجى ويتمتع بدرجة عالية من الفضول العقلى ومن ملكة النقد والتحليل . وكان تحت مظهره الهادىء يحمل شحنة عاطفية ضخمة نجح في اخفائها تحت سطح من الدعابة والتظاهر بالاستخفاف ، كما نجح

في إخفاء إرادته الحديدية وقدرته على تحمل الشقاء بنفس المنهج .
 ومنذ تعارفنا في اليوم الأول سرى بيننا سيال كهربائي غريب كذلك
 السيال الذي يسرى بين الآباء والأبناء ، وتمهيت أن يكون لي ولد مثله
 فأنا أعيش من غير ولد وكأني أوليس يبحث عن تليماك . عرفت منه
 مصادفة أنه ابن زنا ، لا ترتعب ، ففي الاتحاد السوفييتي تفقد هذه العبارة
 مداولها البشع عندنا . ولم يكن هناك أي أثر من آثار الحجل الاجتماعي
 في كلامه .

قلت : كيف أتيج لك أن تتقن الإنجليزية المثقفة على هذا الوجه .
 هل هذا مستواكم في الجامعة ؟ قال ببساطة : أمي التي ربنتي بمفردها
 كانت مدرسة لغة إنجليزية وقد علمتني الإنجليزية منذ أن كنت صبيًا ،
 لقد ماتت في العام الماضي وأنا أحياناً أفتقدها . قالها ساهماً ففهمت أن
 أغواره تقول : وأنا أفتقدها طول الوقت ، ثم أضاف : لقد كانت امرأة
 مجاهدة مثابرة . وحسبت أني بإزاء قصة كلاسيكية لولد نشأ يتيمًا ، فسألته
 هل مات أبوك وأنت صغير ؟ أجاب : كلا . أبي لا يزال حيًا .
 وهو متزوج وله أولاد . قلت : طلاق ؟ عفوا ، أنا لا أريد أن أتطفل ..
 أجاب بهدوء : لا . أبي ترك أمي ، وهي حامل بي . أراد أن يتزوجها بعد أن
 حملت ولكنها طردته . كانت تحبه ولكنها أحست أنه لم يكن يحبها ،
 ولهذا رفضت أن تتزوج لمجرد استيفاء الشكل أو من باب قبول الاحسان ،
 ثم تعيش بعد ذلك مع زوج لا يحبها . وتذكرت أني التقيت منذ
 ثلاثين عاماً بامرأة أخرى من هذا الطراز هي شخصية استر ووترز في

رواية جورج بور التي تحمل هذا الاسم . فقد فعلت إستر بصاحبها المتلاف وليم عين ما فعلته أم ساشا بالرفيق سخاروف ، ولكن استر كانت من البيوريتان ، من الأخوات البلموس ، ونحن هنا في عالم الاشتراكية العلمية . يالنا من القلب الإنساني ومن الشخصية الإنسانية ! هذه آلام ساشا الدفينة التي كان يخفيها تحت دعاياته العقلية الهادئة . وكان مفتاح شخصيته الانطوائية : أى شىء إلا أن يظهر ضعفك أمام الناس . ومادنا في موسكو فلنبدأ ببداية كل الأشياء : بناء على طلبي بدأنا البرنامج بزيارة ضريح لينين في سفح قصر الكرملين . جاءني ساشا في الثامنة وأفطرنا معاً ثم ركبنا إلى الميدان الأحمر . وكان أمامنا طابور من البشر أزواجاً أزواجاً طوله نحو كياومتر (أحياناً يبلغ الطابور ثلاثة كياومترات) والطابور يتحرك في ببطء بطيء كأنما يسير في موكب جنازى . وأبرز ساشا أوراقاً للحراس عند مدخل الميدان الأحمر فتركونا ندخل متجاوزين دورنا في الطابور ومن باب اللياقة اندمجنا في الطابور مرة أخرى على مبعده مائتي متر من الضريح حتى لا نمتن هذا الراقد المسجى فنؤم مثواه كما يؤم السياح برج إيفيل . وكان واضحاً أن آلاف الحجاج وأغلبهم من الروس ، يأتون من أطراف الاتحاد السوفييتى ليؤدوا فريضة الذكرى لهذا الرجل العظيم . وكان على الوجوه خشوع . حتى بلغنا مدخل الضريح برخامه الأسود والأحمر ونفقدنا بين الحارسين المتواجهين في المدخل كأنهما تمثالان بلنديين من الشمع لا يحتاج لهما رمش ولا يتحرك إنسان عين . . . ونزلنا الدرج فقادنا إلى ممر تحت الأرض

غير عميق ، ثم أفضى بنا الممر إلى المرقد الأكبر حيث تابوت من زجاج
 رقد في داخله جثمان فلاديمير ايلاش لينين المنحط في كامل ثيابه وقد
 أضاء محياه نور خفي دائم ، فبدأ على غير ما تبدو ، ومياواتنا السوداء ،
 أبيض لا معاً ، شرباً بالحمرة بأحماض غير أحماض الفراعنة ، وعلى شفثيه
 ابتسامة الغبطة تحس ولا تحس ، وطوفنا بالجثمان مرة واحدة حتى قادنا
 الطواف إلى دهليز مقابل انتهى بنا إلى الدرج الذي أفضى بنا إلى الحلاء
 من جديد عند سفح الكرماين حيث وجدنا أنفسنا نمر بين مائة قبر
 كلها رخام أسود وكلها على مستوى سطح الأرض يخفيها عشب دائم الخضرة
 وكلها منقوشة بأسماء زعماء الثورة البلشفية . وفي المقدمة نحو عشرة تماثيل
 نصفية لزعماء وقراد لا يكفي لتخليدهم رخام القبور ميزت بينهم كالينين .
 وفوروشياوف وفيشنسكى وستاين وجاجارين . وبغول جدار الكرماين
 مائة لوحة رخامية مثبتة نقشت عليها أسماء أبطال الثورة البلشفية ومن
 وراء هذه الألواح وضع رماد أجدادهم . وقرأت بينهم اسم كروبسكاي
 زوجة لينين . وكانت هذه كعبة الشيوعيين .

وأنا لا أعرف إن كان الروس يصابون أم لا يصابون ، ولكن الجو
 اللدني قد نشر على المكان ضلالة من الرهبوت . وآلاف الحجيج يأتون
 كل صباح إلى مقام لينين وكأنه دزار ولي عظيم من أولياء الله الصالحين
 في بلاد الكاثوليك أو المسامين أو أقباط مرقس الرسول . ولا تحس بأن
 الدولة تهيء أحداً للمزار ولا تحس بأن الحزب يجيش الجماعات لأداء
 الطقوس ، ولا تحس بأن ناظر مدرسة كذا الثانوية يقود أبناءه في رحلة

استطلاع أو لتقديم الفروض . إنما كل من هناك ساع بقدميه وباختياره مستجيب لنداء داخلي كالهاتف الديني ، وتميز بينهم الفلاحين الذين نزلوا المدينة لأول مرة ، كما نفعل نحن بالسيدة زينب وسيدنا الحسين . لقد انتصرت الميتافيزيقا في أرض اللامتافيزيقا ، ولم أجد لهذه الظاهرة تفسيراً إلا أن الشعب الروسي الذي اشتهر بعبادة قديسيه قد حافظ على العبادة وغير أسماء القديسين . وفي الشوارع والميادين والعمائر العامة والخاصة صور لينين بكل حجم وبغير عدد ، أيقونات عصرية مبثوثة في كل مكان . إن للماركسية ملامح « الدين » الجديد . ومع ذلك فقد أكبرت هذا الشعب الوفي لذكرى منتشله من قاع الجحيم — هكذا استقر في روع الروس من أبسط البسطاء إلى أعقد المثقفين أن لينين هو أبوهم جسداً وروحاً . وكانت هناك فتاة تكفكف دمها كمن فقد أباه الليلة البارحة . فما أعظم الولاء لذكرى مصلح عظيم .

وكنت كلما ناقشت ساشا في موضوع ، ذكر لي آية من لينين . نتكلم عن الاستعمار والصهيونية أو عن الحرب والسلام أو عن الكولوز والسوفخوز أو عن الحب أو عن التكنولوجيا أو عن التعليم أو عن المساكن أو عن القنون أو عن الملوخية أو عن المهلبية فيبدأ ساشا كلامه بقوله : « لينين قال . . . » وأحياناً يذكر ماركس ، فالحقيقة الكبرى في الاتحاد السوفيتي هي لينين قبل ماركس ، أو قل لينين للشعب وماركس للمثقفين ، رغم أنهم رسمياً يعترفون في كل مكان بأن ماركس هو مؤسس الشيوعية العظيم ، ومقابل كل صورة رأيتها لكارل ماركس رأيت عشرا

للينين . أما انجاز فنادراً ما ورد ذكره أمامي . ولم يكن ساشا وحده في ذلك ، فقد كان كل من قابلت يتحدث علي هذا النحو ويعنن في كلامه عن ماركس وعن لينين ، وكنت أقبل هذا من الآخرين لأنني كنت أناقشهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا في اليوم ، أما من ساشا الذي كان يلزمني كظلي ، فبعد فترة أصبحت أجده هذه الطريقة مستفزة ، وبعد أربعة أيام لم أعد أحتمل فقلت لساشا : « ساشا يا بني . اسمع جيداً . أنا قرأت كل ماركس وكل انجاز ونصف لينين قبل أن تولد أنت بعشر سنوات . وأنا الآن لا أناقش لينين ولكن أناقش ساشا ساخاروف . أنت طبعاً تريد أن تقنعني لا أن تثبت لي أنك تلميذ نجيب أجاد حفظ دروسه الماركسية ، فإذا أردت أن تتبنى رأيا للينين فهذا من حقلك . ولكن أرجو أن تعبر عنه بلغتك الخاصة وأن تنسبه لنفسك وكأنك صاحبه لأنك مقتنع به . صدقني أن نسبة أي رأي للينين لن يزيد عندي قوة أكثر من نسبته لساشا لأنني أناقش ساشا ولا أناقش لينين » . ثم أردت إيلايه قليلا حتى لا ينسى في المستقبل ، وكنت طبعاً أعرف أن تفكيره مصني من الغيبات بسبب إيمانه بالمادية الجدلية . قلت : « أنا لا أعرف كيف أصور لك وقع كلامك في نفس سامعك . أنت طبعاً غير مؤمن بالمسيحية ، وهذا من حقلك ، فتصور أنك، تناقش رجلا مؤمنا بها إيمانك بالماركسية ، وكالما جادلته في شيء أجابك : قال بطرس الرسول أو قال بولس الرسول : هي مقدسات عنده ولكنها لا تعني شيئاً بالنسبة لك . فماذا يكون وقع كلامه في نفسك ؟ ألا ترى أنكم بهذه الطريقة تحولون الماركسية إلى دين ؟ إذا

أردت أن تناقش ، فناقش بالمنطق وفي حدود الواقع المعروف . «
وأحس ساشا بالحجل ولم يعد بعد ذلك إلى العنينة .

وكان ساشا يجيئني كل يوم في الثامنة صباحاً ولا يتركني حتى يطمئن إلى أني دخلت سريري نحو العاشرة مساء . ولا أظن أنه كان مكافئاً بذلك من اتحاد الكتاب ، فيوم العمل عندهم سبع ساعات . ولكن يبدو أنه انجذب نحوى بقوة كما انجذبت نحوه بقوة ، فأصبح لا يستغني عن صحبتي كما أصبحت لا أستغني عن صحبته . وكنت أحياناً أحب أن أخاو إلى نفسي وأن أسترد حريتي وأول لساعات قليلة فلا أستطيع التخلص منه دون جرح لشعوره . وكنت أحياناً أتميز غيظاً وأكاد أحس أنه معين لرصد تحركاتي ومعرفة كل مقابلاتي وقراءة كل أفكارى . وكان الفتى حساساً يشعر بالخرج من هذه الملازمة فيتطوع بقوله : « إذا أردت أن تنفرد بنفسك انصرفت وعدت إليك غداً » ؛ ولكنه كان يقولها بطريقة تعنى : « أرجوك ألا تأمرنى بالانصراف لأنى أحب البقاء معك » . فأجيب صادقاً : « لا . ابق معى ياساشا . فإذا أفعل بحريتي مادمت لا أفهم لغة بلادكم ؟ أنت على الأقل تمثل صلتى بالعالم الخارجى ، ثم إن صحبتك ممتعة ونافعة جداً » . لقد أصبحت كالطفل ، أخاف أن أترك وحدى .

ثم قلت لساشا : الوقت يمضى ، وبعد خمسة أيام نساغر إلى لينينجراد أرجو أن تبأغ اتحاد الكتاب شيئين . أولاً أنى مهتم اهتماماً خاصاً بمقابلة

يلينا ستيفانوفنا، وأنى أصر على مقابلة عدد من الأدباء الروس قبل عودتي إلى مصر . أنا لا أريد أن أخرجهم فأطاب مقابلة الروائي سوليجنيتسين الذى سمعت أن إقامته محددة فى بيته الرينى ولا مقابلة دانييل وسنيافسكى وهما فى « المستشفى » كما يقاوان ، ولكن اعطهم هذه القائمة غير يفتوشنكو وبيلا أحمد واينا ونجيبين الذين يقاوان كل الناس : أريد أن أقابل أندريا فوشنسكى وجرىجورى بكلانوف وجرىباتشوف وكوتشيتوف وكو جيفنيكوف ثم طبعاً صديقى الطيب سوفروف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » . إن أكثر هؤلاء من الأدباء المحافظين المتمسكين مع « الحظ » ولا أظن أن هناك ضيراً فى ترتيب لقاءات معهم .

وكنت أسمع عن حال الأدب الروسى الراهن أنها حال لا تسر وأتبع ما يجرى فى مجلاتهم الأدبية من تقلبات ، فربما كانت الصراعات داخل المجلات الأدبية السوفيتية هى المؤشر الحقيقى لاتجاهات الأدب الروسى الحديث . وقد كانت مجلة « نووى مير » Nowe Meer « العالم الجديد » ، التى صدرت قبيل الحرب العالمية الثانية هى محور الحياة الثقافية فى الاتحاد السوفيتى ، وكانت أكثر تقدسية وتفتحاً وإيماناً برسالة الثقافة من كل المجلات الأدبية الأخرى . وكان يتبادل رئاسة تحريرها الروائى الكبير كونستنتين سيمونوف Simonov والشاعر الكبير تفاردوفسكى Twardowski ، وهو شاعر محافظ ملتهب الوطنية ملتزم بالخط الماركسى الحزبى ، اشتهر قبل الحرب وعمره الآن نحو الستين ، وقد حارب فى الجبهة وله قصائد مأثورة فى الوطنية كتبها أيام الحرب ، ورواية

اسمها فاسيلي توركين « تصف أمجاد جندي روسي بطل بهذا الاسم ، وهو متفان في تمجيد الروح الروسية . وكانوا كما غضبوا على تفاردوفسكى أسندوا رئاسة تحرير « نووى مير » إلى سيمونوف .

وفي السنتين الأخيرتين بدأت مجلة « نووى مير » تواجه متاعب حقيقية فاتهمت بالانحراف ولا سيما فيما تنشر من مقالات تحايلية خاصة بتقييم التاريخ ، كما اتهمت بالانحراف لأنها دأبت على نشر القصص المتشائمة ، وقد غضبوا عليه ، وحين أقول غضبوا عليه أقصد غضب عليه القسم الثقافي داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي ، وطلبوا إليه الاستقالة لكنه رفض وطلب إليهم أن يقيلوه إذا شاءوا ، فلجئوا إلى ترتيب جديد أكرهه الشاعر الكبير تفاردوفسكى على الاستقالة . وهو تغيير مجلس تحرير مجلة « نووى مير » مع إبقائه رئيساً للتحرير احتراماً لمقامه . ولما لم تجد اعتراضاته قدم استقالته ، ومنحوه وساماً رفيعاً من باب التكريم الأدبي ، وهو الآن يعيش معتكفاً في بيته الريفي مركزاً على الرف . وقد سمعت أنه رجل مغرور يعتبر نفسه الأب الروحي للمثقفين اليساريين الروس .

أما مجلة « الاتحاد السوفيتي » فرئيس تحريرها هو الشاعر جريباتشوف Gribatchov وهو رجل متمزم جامد التفكير يسير على الخط الشيوعي التقليدي الأورثوذكسي الذي لا مجال فيه للاجتهادات الجديدة ، ويقال عنه إنه في داخل الإطار الشيوعي يميني متطرف متمسك بالمبادئ الأولى على حرفيتها ، وإنه سفاح أدبي يضرب أصحاب الأفكار الجديدة بقسوة

لا ترحم ، ولكنه رغم جموده يتمتع بسمعة الكاتب الشريف الخالي من الانتهازية .

أما مجلة « زناميا » (الراية) فهي مجلة معتدلة اتجاهها . وسط بين المحافظين والمجددين من الشيوعيين الروس . ورئيس تحريرها هو كوجيفنيكوف Kozevnikov وقد تخصصت هذه المجلة في نشر قصص الحرب وأدبها بصفة عامة ، وقد تعود الروائي الكبير كونستانتين سيمونوف أن ينشر فيها رواياته .

وأخيراً فهناك مجلة « أكتوبر » التي يرأس تحريرها الروائي كوتشيتوف Kotchetov الذي اشتهر بروايته السياسية التي يندد فيها بالمتقنين الروس ويصورهم في صورة المعادين للسلطة السوفيتية الموالين للغرب . وعنده أن الشيوعي الروسي المخلص هو « العامل » الذي يرفض الثقافة الغربية . وقد أصدر كوتشيتوف هذا منذ شهر رواية اسمها « عاوز إيه بقي ؟ » يهاجم فيها مجلة « نوى مير » والمثقفين اليساريين في روسيا ، وبطل هذه الرواية رسم على نموذج الشيوعي الإيطالي فيتوريو سترادا الذي تعلم في الاتحاد السوفيتي وتزوج من روسية ثم أقام في روما . ولكنه انحرف بالأفكار الجديدة المشبعة بالتعاطف مع الغرب . أما زوجته الروسية الصميمة فراها في هذه الرواية نادمة على زواجها من أجنبي . وراها تحب رجلاً روسياً كان يزور روما وتستنجد به لإنقاذها من الجحيم الذي تعيش فيه . فالزوج المثالي عند هذا الروائي هو الرجل الروسي وكوتشيتوف مثل جربياتشوف متخصصان في تأليب السلطة على المثقفين .

فهناك إذن صراع ساغر بين المحافظين والمجددين . أو ما يسمونه اليمين واليسار ، في المجتمع السوفييتي ، وقد اتخذ هذا الصراع تعبيراً عنه في طلب السلطة داخل الحزب الشيوعي من ناحية وفي الأدب والفكر من ناحية أخرى . وجوهر هذا الصراع ، كما استطعت أن أذهمه هو : إلى أي مدى يجوز أو لا يجوز للحضارة السوفيتية أن تتفتح للحضارة الغرب ؟ . المحافظون ينادون بصراع الأضداد وبمزيد من مركزية السلطة والمجددون ينادون بفتح النوافذ والانفتاح لمزيد من الحريات الليبرالية . وقد كان آخر جريح كبير في هذه المعركة منذ باسترنك صاحب الدكتور « جيفاجو » هو الروائي المعروف سولجنيتسن Solgenitsen الذي نشر في مجلة « نوى مير » أيام خروشوف وبأدر خاص منه روايته الشهيرة « يوم واحد من حياة إيفان دنيسوفيتش » . وهي تصور قصة فلاح روسي في معتقلات سيبيريا أيام الحكم الاستاليني . وقد صرح خروشوف بنشرها لإدانتها لعهد ستالين ، وقبل مؤلفها عضواً في اتحاد الكتاب ، ثم أُرْدِف سولجنيتسن هذه الرواية بروايتين أخريين تدخلان في باب الأدب السري لأن نشرهما محظور في الاتحاد السوفييتي : الأولى هي « مستشفى السرطان » ، وهي رواية رمزية تصور الحياة في جناح السرطان بأحد المستشفيات تصويراً لتجربة شخصية لمجموعة من المثقفين احتجزت في هذا الجناح لاشتباهاً إصابتهم بهذا المرض الخبيث . ولكن الرمز فيها شفاف يشير إلى أن حياة الفكر في الاتحاد السوفييتي تجلب شبهة الإصابة بالسرطان ، وحيث السرطان يكون الاستئصال . أما الرواية الثانية فعنوانها « في الدائرة الأولى »

وهي مصممة على غرار « جعيم » دانتى حيث طبقات الجحيم مصورة في صورة الدوائر . والدائرة الأولى عند سوبلخنيتمس ليست حياة السجون والمعتقلات في الاتحاد السوفيتي ولكن حياة العلماء وأهل التكنواوجيا الذين يقبلهم الاتحاد السوفيتي للاستفادة منهم . وقد نشرت هذه الرواية بالإنجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات أوروبا ومنع نشرها في روسيا وطرد مؤلفها من اتحاد الكتاب ، وبعد أزمة تشيكوساوفاكيا فإوضوه في حذف أجزاء منها لنشرها بالروسية ولكنه رفض ، وهو يعيش الآن فيما يقال محدد الإقامة في الريف أو ما يشبه ذلك .

كل هذه المعاونات جمعتهما من روسيا نفسها وليس من صحافة الغرب التي أقرأ فيها الكثير ، رغم أن ساشا العزيز لم يكن يتركني إلا سواد الليل . وانتهت أيام العشرة في موسكو دون أن ألتقي بشاعر أو ناثر . بيسين أو يسار . فيما خلا صاحبنا الطيب أنا تولى سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » ، الذي سمعت أن له سطوة كبيرة غير رسمية في اتحاد الكتاب من خلال نفوذه السياسي في اللجنة المركزية . كما سمعت أنه من أهل الميمنة الذين لا يتركون كل الزهور تفتح . أرجو ألا أكون قد ظلمت أحداً بسرد ما سمعت من طرف واحد ، ولكن ما حيلتي إذا كان اتحاد الكتاب لم يتح لي لقاء أحد ينير لي شعاب الطريق .

لقد كانت مهمتي الشاقة هي : كيف لا تصبح رحلتي الروسية

مجرد رحلة في عقل ساشا سخاروف .

الباب الثاني

رحلاتي الأمريكية

أمريكا

كيف تراها ولا تراها

منذ جملة شهور ، تلقيت دعوة من جماعة عربية في أمريكا ، للمشاركة في أعمال مؤتمرها السنوي الرابع ، المنعقد بمدينة بوسطن بين ٢٩ و ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧١ ، بقراءة ورقة بالإنجليزية في موضوع « إمكانات الحوار في المجتمع العربي المعاصر » . وكانت الجماعة تسمى نفسها : « اتحاد الخريجين العرب الأمريكيين » . أو « الأمريكيين العرب » على الأصح . . فأدركت أنها جماعة من جماعات المهاجرين أو المغتربين العرب . . ولم يكن لقاء المهاجرين أو المغتربين العرب في أمريكا جديداً عليّ ، فقد عرفت منهم عشرات وعشرات في أثناء إقامتي في أمريكا منذ سنوات مديدة . فقبلت الدعوة شاكراً ، لأنها هيأت لي فرصة زيارة أمريكا بعد خمس عشرة سنة كاملة . أي منذ استقالي من الأمم المتحدة عام ١٩٥٦ .

وكنت قبل سفرى أمني نفسى بشيئين : أحدهما أن أدرس آخر تطورات الفنون والآداب في غرب أوروبا ، وفي أمريكا بصفة خاصة

وأن تتاح لي دراسة حركات الشباب « على الطبيعة » في أمريكا ، وهي أكبر مركز للرفض والاحتجاج اللذين اتسمت بهما حركات الشباب في العالم . . كنت أتمنى أن أدرس مجتمعات الهيبيز عن كثب ، لا دراسة كتب ، ولكن دراسة تجربة .

بل لقد ذهب خيالي إلى أبعد من هذا ، فقد كان ولا يزال رأيي الثابت أننا لن نستطيع أن نرى بصيصاً من القرن الحادى والعشرين الذى نستشرفه إلا إذا استكشفتنا حقيقة ما يجرى فى عقول شباب العالم وما يجرى فى قلوبهم اليوم . فالهيبيز ليسوا مجرد حاققة مانسون وقتلة شارون تيت أو متعاطى المخدرات الهاثمين بشعورهم الطويلة وملابسهم المرقعة فى فردوس أو جحيم من الفوضى الجنسية ، ولكنهم أيضاً اليسار الحديد المتظاهر بمئات الآلاف ضد حرب فيتنام والتميز العنصرى . وربما أيضاً كانت بينهم أنماط ثلاثة ورابعة لا تحفل بالجنس والمخدرات ولا تحفل بالقضايا السياسية الصارخة ، وإنما تبحث عن خلاصها فى صمت وهدوء لعلها تكتشف حياتها وللحياة الاجتماعية مغزى مقنعاً ، وقد كان يسيراً على مثلى أن ألتقى ببعض هؤلاء الشباب فى عواصم العالم المختلفة لقاء « الانترفيو » الصحفى ، أطرح عليهم الأسئلة وأستمع لإجاباتهم ، فأخرج بفكرة عن فاسفتهم ومعتقداتهم ومنابع قلقهم وآمالهم فى الحياة . ولكن هذا الأسلوب فى نظرى هو أسوأ سبيل إلى التعرف على الحقيقة ، كما أنه ينطوى على خدش لكرامة الإنسان فيهم ، أن تنظر إلى الإنسان نظرك إلى قرد أو دب أو ببر فى حديقة الحيوان تتأمله فى تعال وانفصال

تام وكأنه « ظاهرة » أو تتجسس على دحيانة نفسه تجسس العدو أو الفضولي . لهذا كنت آمل أن تتيح لي الظروف أن أعتكف في مستعمرة من مستعمرات الهبيز في أمريكا وأن أخاطبهم أسبوعاً أو أسبوعين مخالطة الإنسان للإنسان عسى أن أفهم بالمشاركة شيئاً عن هذه الدراما العظيمة التي تتخلق درجة درجة في نهايات القرن العشرين ، واعدة بخير عميم أو بشر مستطير لما سيأتي بعدنا من أجيال .

ولكن أحلامي كلها طارت بعد أن وطئت قدماي أرض باريس في طريقي إلى أمريكا . فقد اعتكفت نحو أسبوعين في فندقى بباريس بين أسقام المرض والإكباب على بحث كنت أكتبه بالإنجليزية « مجلة اليونسكو التاريخية » . بناء على طلب اليونسكو عن « غايات القومية العربية وبواعثها » . ولم يخفف عنى أسقام المرض والبحث لإعطاء سخي من قلب زميلي الشاب مصطفى إبراهيم مصطفى ، الذى كان قبل عامين ناقد الأهرام الفنى ثم تركنا ليتم علومه في باريس ، فقد ترك كتبه وفراشه في المدينة الجامعية ولا زمني في بنوة حقيقية يسهر الليالى ليوقظنى كل أربع ساعات لأتناول البنسلين . وكنت في أيام العافية أتجول بين الأشباح والأحياء ، فكنت أتردد على زميلنا الشاب وحيد النقاش الراقدرقدة الموت في مستشفى كوشان تحت أنبوبة الجلوكوز ، الكل يعلم بموعد تنفيذ حكم الإعدام فيه ويحدثه في مرح مصطفى عن موعد الشفاء . أما هو فالله وحده يعلم ماذا كان يخفى من هواجس خلف عينيه الزجاجيتين الجميلتين وبشرته الخضراء وثغره الباسم ، يلغو في هدوء عن أخبار الأدب والأدباء ،

كنت أتردد على معرض الفنانه جاذبية سرى قرب الشانز يايويه وأتأمل أساوبها
الجلديد المنقبض حيث تداعت منازلها القديمة وتلاشت أوانها الساخنة
وحلت محلها رموز انكماشية وانزوائية داخل أطر قائمة وكأنها تعبر عن
رغبة في الا نسحاب داخل الرحم . موجة من الكتابة تجتاح فنانينا الكبار
كما اجتاحت أدباءنا الكبار . وبرغم قلة روادها بسبب إضراب عمال
المتر وشلل المواصلات في باريس مدة أسبوعين ، فقد استطاعت
جاذبية سرى أن تبعيع اوحتين أو ثلاثاً .

وكنت أزمع السفر إلى أمريكا بعد أسبوع من وصولي باريس ولكني
أجلت سفرى أسبوعاً آخر حتى أشهد افتتاح معرض «الفن المصرى المعاصر»
الذى افتتحه سفيرنا عبد الله العريان في متحف جاليريا يوم ٢٢ أكتوبر
١٩٧١ ، وحضره دوها ميل وزير الثقافة الفرنسى والوزير جوكس وغيرهما
من الرسميين المعنيين برعاية الفنون والأداب . وكان معرضاً يضم نماذج
من أعمال خمسين فناناً مصرياً فى مقدمتهم ريسيس يونان والجزار (لا أعلم
اذا نسوا كمال خليفة ماداموا قد تذكروا الموتي) ثم تحية حاييم وجاذبية
سرى وفؤاد كامل وأنجى أفلاطون وحامد ندا وسيف وانلى وصالح طاهر
وكنعان إلخ . . ومن النحاتين عبد القادر رزق وآدم حنين والسجيني
ومحمود موسى وهجرس ومحيى الدين طاهر وصالح عبد الكريم . ولا
أعرف إن كان المعرض قد استقبل من الصحافة الفنية استقبالا حافلاً أم لا
لأنى طرت إلى أمريكا بعد ثلاثة أيام من افتتاحه ، ولكنى شخصياً برغم
سعادتى بأن أرى فن مصر يعرض فى عاصمة العالم الفنية ، لم أسعد بتاناً

بأن أرى جناحاً من حجرتين في المعرض يخصص للفنانين المصريين الشبان الذين بدت أكثر أوجاعهم كاجتهادات تلامذة نجباء ، ربما كانوا أصحاب مواهب واعدة ، ولكنهم حتى الآن مازالوا في طور التكوين . وقد كنت أؤثر أن يقنصر المعرض على أعمال عشرة أو خمسة عشر . من كبار فنانينا يمثل كل منهم تمثيلاً كافياً بدلاً من كل هذا الحشد الغفير من الأسماء بقصد إرضاء كل الناس هنا ، وبهذا اختلط النابغون بالأوساط واختلط الأوساط بالمبتدئين (ليس في فرنسا نفسها أو إنجلترا أو أية دولة متقدمة خمسون فناً يستحقون العرض) . وما في كل يوم يتاح لمصر أن تعرض في متحف مثل جاليريا . ومن يذهب إلى سوق الجواهرجية لا يحصل معه كل جواهره من ماسات حقيقية وزجاجية . أما تشجيع الشباب فله وسائل أخرى ، ونحن لانتصور مثلاً أن فرنسا تقيم بيننا معرضاً لبيكاسو وبرك وجيا كومتى ثم تعرض معهم لوحات بعض خريجي كلية الفنون الجميلة بباريس .

بل لقد ساءنى في هذا المعرض أن أرى عديداً من أردأ أعمال فنانينا المعروفين مثل عمر النجدي ويوسف سيده وخديجة رياض وعفت ناجي ومخير كنعان ورمزي مصطفى ، حتى سيف وانلى لم يكن ممثلاً خير تمثيل ، وأنا أعرف لكل من هؤلاء لوحات تفضل ما رأيت في باريس مائة مرة . وحين سألت قومي سيرة المعرض الفنانة أنجي أفلاطون في سر هذا الاختيار الرديء أبلغتني أن المندوبة الفرنسية هي التي قامت بهذا الاختيار عند مجيئها إلى مصر ، فلتسمح لي وزارة الثقافة هنا وهناك أن أقول لهما إن

المندوبة الفرنسية لا شك عاشقة لمصر بدليل أنها كانت في الاستقبال تلبس قفطاناً تركياً مزركشاً بالقصب مثل إشماسرجية الهيلتون وشميراميس ، ولا شك تحمل لنا أطيب النوايا ولكنها لا تفهم كثيراً في الفن إذا كانت هذه هي اختياراتها . وقد لاحظت أن عقلية سياح خان الخليلي والأواني المزخرفة هي التي سيطرت على اختيار المعروضات ، وهذا معناه ببساطة أن أوربا تقول لنا : لنا الفن ولكم الزخرفة فابقوا في مكانكم ولا تحاولوا أشياء لا تتقنها . نحن نحب فيكم نكهتكم الشرقية المملوكية فلا تفسدوها بالتفلسف أو التحليق أو الغوص إلى الأعماق . أبعادوا عن الفيجوارتيف ، وعن التجريد معاً . ابعادوا عن الألم والفرح والقلق والصفاء والزموا الدندشة بأشكالكم الهندسية المتكررة في صواوينكم وأباريقكم وصوانيككم ومشكاواتكم وأطالوا على العالم من وراء مشربياتكم ، فجمالكم الحقيقي أنكم لا تصلحون للقرن العشرين .

كلمة للمستقبل . لو أتيت لنا معرض آخر خارج حدود مصر ، فن واجب وزارة الثقافة أن تستغني عن خمسمائة جنيه وتدعو لجنة ثلاثية من أكبر نقاد الفن في العالم تقيم بيننا أسبوعاً لترشد وزارة الثقافة في عملية الاختيار . ولكي يكون الاختيار ممثلاً لوجه مصر الحقيقي ولفن مصر الحقيقي يجب إنشاء سجل في وزارة الثقافة تدون فيه سيرة كل عمل من أعمال فنانينا الكبار منذ خروجه إلى الحياة تماماً كسجل المواليد ترصد فيه حركة كل لوحة أو تمثال . فأنا أعلم أن خير أعمال فنانينا محبوب في مجموعات خاصة وموزع بين القاهرة والإسكندرية واستوكهولم وبرلين

وباريس ولندن ونيويورك وغيرها من مدن العالم الكبيرة والصغيرة ، وقد رأيت في رحلتي الأخيرة في بروكلين وفي واشنطن لوحات معروفة لرمسيس يونان وفؤاد كامل وتحيةة حلیم وجاذبة سرى بين مقتنيات بعض المصريين المهاجرين ، كما أنى أعلم أن زوارنا الأجانب يشتركون أولاً بأول صفوة إنتاج فنائنا الكبار ويعودون به إلى بلادهم . وإذا كنا نوثق عقود بيع السيارات في الشهر العقاري ، فلا أقل من أن نفتح سجلاً في كل قنصلية مصرية توثق فيه كل لوحة مصرية تباع في الخارج بحيث نعرف أين مستقرها ، ونستعيرها أو نؤجرها للعرض في المعارض الدولية . بهذا نبرز للعالم أصدق مالدينا ولا نترك عملية الاختيار للمصادفة العمياء أو للبحث بين نفايات الفن التي لا تجد من يشتريها .

وقد كان العقاب أليماً في باريس ، ثلاثة أيام ترددت فيها على متحف جاليريا . بالساعات الطوال بعد افتتاحه ، فلم أر قدماً « تهوب » في المكان إلا عابراً طارئاً في الصباح وعابراً طارئاً في المساء برغم أن موصلات باريس كانت قد عادت إلى الانتظام ، قال الفنانون المصريون المرافقون للمعرض : نحن حقاً منحوسون ، فقد جاء معرضنا وقت تنويع بيكاسو في باريس فلم يلتفت أحد إلينا لأن كل الناس في معرض بيكاسو . ربما . ولكن الحمد لله أنى لم أسمع أحداً يقول إنها كانت مؤامرة من الصهيونية العالمية .

وفي السابع والعشرين من أكتوبر ١٩٧١ طرت إلى بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية لأشترك في مؤتمر الخريجين العرب . وكانت

تنتابني إحساسات متضاربة أكثرها من إحساسات العائد إلى مكان
بعد خمسة عشر عاماً . وكان معي في الطائرة الصحفي الفرنسي المعروف
اريك رولو الذي كان مدعوًا مع الاستاذ جاك بيرك للاشتراك في
مؤتمر بوسطن . وبعد رحلة سبع ساعات مملّة تسلينا فيها بمشاهدة فيلم
سخيّف على متن الطائرة نزلنا مطار بوسطن . وبدأت أول روايح أمريكا
تهب علينا في أرض المطار .

شيء لم نألفه في أوروبا . في الجوهر يكفون الحقائق . وقد كان .
وما إن تجاوزنا المنطقة الجوية وهمسنا بالخروج إلى المدينة حتى استوقف
مخبران صاحبنا الصحفي المعروف وقاداه للتفتيش الشخصي ! لماذا هو
بالذات ؟ لا أدري . كنت معه ولكنهما لم يتعرضا لي . وحرصت على
ملازمته في هذه الورطة من باب اللياقة والعجب يماؤني ! ووقفت خارج
كابينة التفتيش أرقب ما يجرى فوجدت المخبر يتفحص جواز سفره بعناية
ثم يساعده على خلع جاكته ويفتشها بدقة ، ثم على خلع قميصه . ثم
أخذ يتحسس جسمه شبه العاري حتى الوسط ، وأرشك الصحفي أن يخلع
بنطلونه ولكن الرجل اكتفى بلبس يده في كل جيوب البنطلون ثم مضى
يتحسس بدقة فخذيّه وساقيه حتى القدمين . وبعد أن فرغ من مراسم
التفتيش بدأ استجواباً قصيراً ثم أدخل سبيله .

وفي الطريق أخذتنا الحيرة ، لماذا هو؟ وعم يبحثون؟ عن سلاح؟
هل ظنوه شخصاً آخر يبحثون عنه؟ وكان رأي أنهم يبحثون عن مخدرات
قلت له : « أعتقد أن لحيتك هي السبب . فأنت برغم هندامك تشبهه

جماعة الهبيز ، ونحن الآن في بلاد الهبيز » . وقد ثبت صدق ظني . .
 فما إن نزلنا مدينة بوسطون وأخذنا نسأل الناس نفسيراً لهذا الحادث حتى
 عرفنا أن ما رأينا شيء مألوف يجري كل يوم وكل ساعة في مطارات
 أمريكا وموانئها ، ولا سيما للقادمين من فرنسا . سواء أكانوا من الفرنسيين
 أم كانوا من الأمريكيين . إنهم يبحثون عن مخدرات . وقد غدت
 فرنسا من المراكز الرئيسية لتهرب المخدرات إلى أمريكا . (قبلها بفترة
 وجيزة ضبطوا دباو ناسيا فرنسيا اتهم بتهرب ما قيمته ١١ مليون دولار
 من الميروين في سيارة فولكسفاجن استوردها من الخارج) . ولا يعنى
 المرء أن يكون ذا مركز « محترم » فأستاذ الجامعة قابل للتفتيش الشخصى
 كتلميذ الجامعة وكأى صعاوك « لا يملك في الحياة إلا شعره » كما تقول
 أغنية الهبيز المشهورة ، ومع ذلك فالزائر يحس بالمهانة عند التفتيش
 الشخصى ، فهذا أسوأ استقبال يمكن أن يتعرض له إنسان برئ حالمًا
 تطأ قدماه أرض الولايات المتحدة . مشكلة ، لأن الحكومة الأمريكية
 معذورة أيضاً في هذه الإجراءات المتعسفة . حين تقيم في أمريكا قليلا
 تدرك أن المخدرات قد غدت فيها وباء قومياً لا بد من مكافحته بأى
 ثمن .

كذلك ما إن تقيم في أمريكا أياماً حتى تدرك أن فيها وباء آخر
 هو اختلال الأمن في المدن الكبرى . كلما سألت أحد معارفى الأمريكين
 في نيويورك عن مكان أفضى فيه السمرة كان الجواب دائماً واحداً :
 لا تسهر بالليل ، فنيويورك أمست غير آمنة ، كل ليلة عشرات من حوادث

القتل بقصد السرقة تتم والبوليس غير قادر على السيطرة على الموقف . شبان ورجال من المتعطلين أو من مدمنى المخدرات يتعرضون بالمسلسلات فى جماعات صغيرة للمارة فى أرقى الشوارع وفى أقدرها طلباً لمخافتهم ، وأدنى مقاومة أو إحساس بالخطر معناها الرصاص . الحكيم من يسلم كل ما فى جيبه فى إذعان . وأسوأ ما فى الأمر أن التحقيقات تثبت أن هذه الاعتداءات لا تنظمها عصابات محترفة كما كان الأمر فى العشرينيات والثلاثينيات أيام آل كابونى وجاك ديالنجر وبقية ملوك الإجرام ، وإنما يقوم بها مواطنون عاديون من البيض أو من السود ذاقوا مرارة البطالة المتصلة فأعلنوا الحرب على المجتمع ، أو مواطنون عاديون من المدمنين لم يجدوا إلا السطو سبيلاً للحصول على المال . وهناك أيضاً فئة ثالثة من المواطنين العاديين تعلمت الإجرام فى مدرسة فييتنام . أما السطو على المنازل فقد غدا فى نيويورك خاصة وغيرها من المدن الكبرى ظاهرة مأوفة إلى حد جعل سكان كثير من العمارات ينشئون فيما بينهم جمعيات تعاونية للدفاع عن أنفسهم يأسا من قدرة البوليس على حماية الأرواح والأموال .

وبالطبع لم ألق بالآلى هذه التحذيرات وإلا بقيت سجين فندق البلتمور طوال الأسبوع الذى قضيته فى نيويورك . فخرجت ثلاث مرات بممردى بعد التاسعة مساء إلى الواحدة صباحاً أتجول فى برودواى والشارع ٤٢ وحول تايمز سكوير لأرى أضواء المدينة ، ولأدرس بنفسى ذلك الوباء الثالث الذى سمعت بعد نزولى أمريكا أنه يحتاجها من أقصاها



إلى أقصاها ، ألا وهو أفلام الجنس . ولم يهاجمنى أحد ، ومع ذلك أحسست فعلا بجو الجريمة يتمدد آلاف السابرة في وضع الليل . وكنت قد قرأت شيئاً لتوفيق الحكيم وهو يصف رحلته في العام الماضي إلى باريس . . يقول إن مشكلات الجنس تعالج الآن في الأفلام الأوربية معالجة علمية وإن الجمهور يتتبعها في احترام تام . أما في أمريكا فقد رأيت ستة أفلام في تايمز سكوير ولكنى لم أرها مشكلات ولا جنساً ولا علماً ، وإنما رأيت مجرد دعارات مقززة لبغايا وصعاليك يؤدون العملية الجنسية أمامك على الشاشة مصورة من جميع الزوايا الممكنة مع الاهتمام الخاص بالسحاق ، ولم يكن بينها إلا فيلم واحد يقترب قليلاً مما حدثنا عنه توفيق الحكيم ، وهو تعاون الفن والعلم في اكتشاف العلل الجنسية ، ومحاولة علاجها . ومع ذلك ، فمن يدقق النظر فيما يشاهد يجد أنه لا فرق بين هذا الفيلم وسواه ، إلا أن كاتب السيناريو له قواد مثقف عرف كيف يرضى على القوادة رداء الثقافة ، فأوهمنا أنه أقام ندوة مع طبيبة في علم النفس ، ووضوعها العلل الجنسية بين الأزواج وانحرافات الفراش في عشرة نماذج أو « حالات » من مرضى هذه الطبيبة ، وكان يتتبع هؤلاء الأزواج ويدعوهم إلى الاستوديو لسرد قصص مرضهم وقصص شفائهم بالتفصيل بالصورة أمام الكاميرا فيستجيبون له .

وحاولت أن أستقصى من معارفى الأمريكيين عن أسباب هذه الأزمة التي دخلت فيها السينما الأمريكية ؟ يقاؤون إن الموجة جاءتهم أولاً من السويد والدنمارك ، فكان بعضهم يربطها بالثورة الجنسية أو

حركة التحور الجنسي التي تجتاح العالم اليوم وتحتاج أميركا بصفة خاصة وهي وجه من وجوه ثورة الشباب والهميز والبحث عن أخلاقيات جديدة للجنس غير ما ورثناه عن الآباء والأجداد من معتقدات روحية وجسدية باسم مكارم الأخلاق وسيادة الروح على الجسد . وكان آخرون يربطونها بالتشوهات النفسية الناجمة عن الحروب ولا سيما حرب فيتنام . ولم أجد هذا مقنعاً ولا ذلك مقنعاً . فالهميز ودعاة التحرر لا يكثرثون بأفلام الجنس لأنهم يفضلون ممارستها على الطبيعة كما أن هذه الأفلام لو كانت تعبيراً عن فلسفة تحررية جديدة لكانت لإباحتها أكثر فناً من كل هذا . والسويد والدنمارك لم تشتركا في حرب فيتنام ولا في أي حرب من الحروب العالمية ، وآخر حرب اشتركت فيها السويد إذا لم تخفى الذاكرة كانت منذ نحو ٢٥٠ سنة في القرن الثامن عشر ، حقبة خلدها فولتير في كتابه الخالد « سيرة شارل الثاني عشر » . بل إن هذه الأفلام لم ترق حتى إلى مستوى أمراض الحضارة والترف ، فالرومان والعباسيون عندما أصابتهم أمراض الحضارة لم يعربدوها بهذه الغلظة وإنما عربدوا بتفنن وجمال . وتصورت أن أزمة السينما ربما كانت نابعة من سيطرة التليفزيون الذي فتح في كل بيت داراً للعرض الخاص وفتت البشر إلى ملايين من الحزير الضئيلة المنفصل بعضها عن البعض الآخر بحيث أصبح من أعسر الأمور تجميعهم في مسرح أو سينما إلا على شيء خارق في الإثارة ، ومن هنا بلحات صناعة السينما إلى موجة من أفلام الجنس كما كانت تلجأ في الماضي إلى أفلام الجريمة وأفلام رعاة البقر لتجتذب

المراهقين والبسطاء . فإن كان الأمر كذلك فلعلها موجة ثم تنحسر ، ولكن الخطر أيضاً ماثل ، وهو أن تمتد هذه الموجة بعد عشر سنوات إلى شاشة التليفزيون حيث تجد تجاوبا أعمق ، لأن الجنس في صميمه تجربة فردية لآحياء فيها ، بل قد تكون لها قداسة ، بين جدران أربعة . أما عرض قدراتها على الناس جماعة في الأسواق ففيه دائماً ما يصد البشر الأسوياء . وبالفعل كان أكثر من رأيت حولي في سينمات الأفلام الجنسية كهؤلاء يبدو عليهم الحرمان وإرهاق المراهقين ، ولم أر من النسوة إلا قليلا ، وندر أن تجد وجها عليه سماء الفضول العقلية أو رغبة الاستكشاف ، وندر أن تجد رجلا اصطحب زوجته أو صاحبتة طلباً للإبرتييف قبل مواجهة الحلاوة . إنهم نفس جمهور « السينما الزرقاء » التي كانت تنفشي في أوروبا في الثلاثينيات قبل الحرب العالمية الثانية .

» * *

هذه هي الأوبئة الثلاثة التي شهدتها في أمريكا في زيارتي الأخيرة : انتشار المخدرات ، واختلال الأمن ، والأفلام الجنسية . والصحافة الأمريكية تتحدث عن وباء رابع وشيك الانتشار في أمريكا هو الأمراض السرية . ولكن الذي يخفف من حدة هذه الأوبئة أن الديمقراطية الأمريكية مجتمع مفتوح لا همس فيه ولا تكتم ، فكل الناس تتحدث عن هذه القضايا بصراحة والصحافة والإذاعة والتليفزيون وكل منابر الرأي والبحث تخوض في هذه المشاكل ليل نهار ، وتحاول استقصاء أسبابها ونتائجها ووسائل علاجها . وحيث الرأي الحر مكفول فكل شيء قابل

للتصحيح . فلا حرج عند أحد من اتهام البوليس الأمريكى مثلاً بالإهمال أو بالتستر على الجريمة للإرتشاء . وهم هناك لا يضيعون وقتهم كثيراً فى التنديد بعيوب المجتمع الأمريكى على أساس مكارم الأخلاق بل يلجأون إلى أساليب البحث العلمى فى استقصاء الأسباب والنتائج ووسائل العلاج . حتى ظاهرة الشذوذ الجنسى التى تفشت مؤخراً فى أمريكا وبعض مجتمعات شمال أوروبا وإنجلترا غدوا يخضعونها لدراسة الكيمياء الحيوية بفحص سلوك الهرمونات ونسبها فى أنماط الشذوذ المختلفة . ومن وضع يده على الحقيقة سهل عليه العلاج .

* * *

وحين استفسرت عن مستعمرات الهبيز قال لى أصدقائى الأمريكيون : سنحاول أن نرتب لك الإقامة بينهم أسبوعاً أو نحو ذلك ، ولكننا نطلب بعض الوقت لإجراء هذا الترتيب . أمامك الاختيار بين كومونات نيويورك، (والكوبون عمارة تستأجرها أية جماعة من الهبيز بقصد المعيشة المشتركة ، فلا أحد يمتلك فيها شيئاً حتى علبة سجائره ، وكل عضو فى الجماعة يصب فيها كل مكاسبه ، ويستهلك فيها بحسب حاجته بغير حساب) ومعسكرات الطواء الطلق ، وهذه أقربها على بعد مئات من الأميال . وهنا تدخل فى الحديث سائق التاكسى الذى كان يتتبع حديثنا ، وكان من الهبيز ويدرس للماجستير فى جامعة كواوبيا : « أنصحك ياسيدى أن تذهب إلى مستعمرات الطواء الطلق ، هؤلاء هم الهبيز الحقيقيون . أما كومونات المدينة فهم الهبيز المزيفون الذين أساءوا إلى سمعة حركة

الشباب ، وهم في العادة جماعات مغلقة . إنهم يتدربون بمظهر الهبيز ، فيرسلون شعورهم ويتحدثون عن المجتمع الجديد ويحتجون على القيم السائدة ، ليعيشوا حياة الإباحية والفوضى والكسل وتعاطى المخدرات . أما معسكرات الريف فهي الصحة والإيمان السليم . هناك يعيش الشباب حياة البساطة الأولى ، يزرعون ويقلعون ويربون ويأكلون مما زرعوا وقلعوا وربوا ، ويصنعون ما يثقون من مصنوعات يدوية ويبيعونها للحصول على لوازمهم . وإذا ذهبت إلى هناك فسيستقبأونك بالترحاب ، ولن ينتظروا منك إلا أن تزرع أو تقلع أو تصنع مثلهم . هؤلاء من حقهم أن يحتجوا على مفساد المجتمع الرأسمالي لأنهم تجردوا من غريزة الملكية دون أن يكتسبوا مفساد أخرى . انظر إلى مثلاً . أنا واحد من الهبيز ، ولكني لا أعيش في كومون » .

وعرفت في أمريكا أن بعض رجال الدين يسايرون حركة الهبيز ، ويفتحون لهم الكنائس لإقامة حفلاتهم الراقصة الصاخبة بقصد استدراجهم إلى حظيرة الدين واصطياد أرواحهم بعد أن يشبثوا لهم أن الدين ليس مناهضاً لحركات التجديد مهما كانت ثورية . كذلك عرفت أن البوليس الأمريكي له رجال من الهبيز يطلقون شعورهم ويمشون حفاة في هلاميل ، فما إن يقوم الهبيز بمظاهرة حتى يتحولوا إلى رجال أمن ويشاهدوا في سيارات البوليس .

* * *

وتدكرت جماعات الشباب - فتية وفتيات - الذين رأيتهم جالسين

على الأرصفة حفاة في ثياب مهلهلة في ميدان سان ميشيل بباريس وفي مختلف أرجاء الحى اللاتينى وسواه ، ثم رأيت أمثالهم على أرصفة جامعة هارفارد ومدينة أوستن حيث جامعة تكساس ، وقد فرشوا مصنوعاتهم على الأرض ليشتريها المارة ، من إشارات وبواوفرات وشنط ومحافظ جملدية وأحزمة مزركشة وكلها أشياء جميلة . وكنت أحسب أنهم يشترونها جاهزة ليتاجروا فيها . ثم عرفت أنها من صنع أيديهم ودو نوع من الاحتجاج على عصر الآلة وعلى مبدأ التجارة القائم على وجود وسيط بين المنتج والمستهلك . نوع من العودة إلى العصور الوسطى على طريقة وليم دوريس ، إلى مجتمع الإنتاج اليدوى ومجتمع المقايضة ، ولكن بغير أشرف ولا إقطاع ولا فرسان ولا كهنوت ، وعندما سمعت كلام سائق التاكسى أدركت أن الأمر أعقد مما كنت أتصور . فاستبعدت فكرة كويون المدينة لأنى لا أتصور نفسى بين جماعة تتعاطى المخدرات وأومن أجل التجربة ، ثم استبعدت فكرة العودة إلى الطبيعة برغم انجذابى إليها ، لأنها ستحتاج إلى شهر كامل . ومن يدري ؟ فر بما صنعت فيها ولم أعد إلى قومي ؟ إن هاتفاً عميقاً يلازمى منذ سنوات طويلاً أن انسحب نهائياً من حياة المجتمع ، ولكنى لم أجد الشجاعة حتى الآن لأجيب نداءه . وقررت أن أبتعد عن مواطن الغواية .

* * *

وهكذا تبخر أحد الأملين الكبيرين اللذين كنت أحلم بهما قبيل نزولى بأرض أمريكا : أن أدرس عن كذب مشكلة الهبيز في بلاد الهبيز ،

أما الأمل الثاني، وهو أن أتابع ما يجري في المسرح الأمريكي بصفة خاصة وفي الأدب الأمريكي بصفة عامة، فقد تبخر أيضاً وأنا لا أزال في مؤتمر بوسطن في الأيام الثلاثة الأولى من رحلتي الأمريكية.

فقد توالى الأحداث في سرعة سريعة منذ اليوم. وجدت نفسي بين نحو مائتين من عرب أم يركا أكثرهم يعملون أساتذة في الجامعات الأمريكية، وبعضهم لا يحسنون العربية كلاماً لطول هجرتهم إلى الولايات المتحدة أو لأنهم وادون بها. وقرأت على المؤتمرين كلمتي، واستمعت إلى كلمة جاك بيرك وإلى كلمة نجم باذرجان الأستاذ بجامعة تكساس وإلى كلمة يروسلاف ستكيفيتش الأستاذ بجامعة شيكاغو، وهي كلمات سأعود إليها فيما بعد. كذلك أحاط بي الطلبة المصريون بعد حضور المؤتمر، وكانوا وافدين من جامعات أمريكية عديدة، وطلبوا إلى أن ألتقي بهم في جامعاتهم وأنا لا أرفض للطلبة طلباً: عقدة جامعية قديمة ما زالت تلازمي برغم مرور السنين. وبين الأساتذة والطلبة وجدت نفسي بين يوم وليلة مرتبطاً بجولة محاضرات رهيبة قوامها عشر محاضرات في عشر جامعات مختلفة خلال عشرين يوماً، وكانت كلها تدور حول موضوعين رئيسيين هما «التطورات الثقافية في مصر منذ ١٩٥٢» و«دور المثقفين في مصر الحديثة»، وبين يوم وليلة دقت التليفونات في عشر جامعات لإعداد الترتيبات اللازمة وبين الجامعة والجامعة ألف كياومتر. بين يوم وليلة كل شيء تم بالتليفون. وألقيت أولى محاضراتي في جامعة هارفارد، ثم طرت إلى جامعة لافال

في كويبيك بكندا . قالوا : في عودتك من كندا إلى الولايات المتحدة ستمر طبعاً بمطار مونتريال لتغيير الطائرة ، وهناك ستجد زميلاً لنا في انتظارك في المطار ليسامك تذاكر رحلتك ، وقد كان . وطرت أولاً إلى نيويورك التي اتخذتها قاعدة لى . ومن نيويورك طرت إلى جامعة ميتشجان (آن آر بور) ، ومن ميتشجان إلى جامعة شيكاغو ومن شيكاغو إلى جامعة مينسوتا في منيا بوليس ومن منيا بوليس إلى جامعة وسكونسن ، ومن وسكونسن إلى جامعة برديو في لا فاييت انديانا ومن لا فاييت إلى جامعة تكساس في أوستن ، ومن أوستن إلى واشنطن ومن واشنطن إلى جامعة برنستون ومن برنستون إلى نيويورك حيث أقيمت محاضرتين احدهما في جامعة كواومبيا والأخرى في جامعة نيويورك . واولاً أنى فررت من أمريكا فراراً اوجدت نفسى أطوف بعشرين جامعة أخرى . وكانت متعة عظيمة أن أجد نفسى ثانية بين أبناء عشيرتى الأولى أساتذة الجامعات وطلابها ، واحتملت مشقة لا يحتملها ابن العشرين : . أظير ألف كيلو متر في الصباح وأحاضر في المساء وأبيت الليلة في فندق أو في المدينة الجامعية لأظير في اليوم التالى ألف كيلو متر في الصباح . وأحاضر في المساء ، - وكانت راحتي الوحيدة أن يحل بي يوماً سبت وأحد حين لا يعمل الناس - ومع ذلك لم أحس بأدنى إجهاد إلا في نهاية المطاف . كل شيء مرتب بإحكام كأنك تدور مع عقارب ساعة جسيمة متقنة الصنع لا تخطئ أبداً . الطائرة دائماً تصل في الموعد المحدد . السيارة دائماً تنتظر في المطار . غرفة نومك دائماً محجوزة . محاضرتك دائماً تبدأ

وتنتهى فى الوقت المحدد لها . للغداء وقت محدد ، ولحفلة الاستقبال وقت محدد ، ولم يحدث خلال واحد .

* * *

وانقضى الشهر الذى خصصته لزيارة أمريكا . وهكذا دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً ، إلا « الدير » فى نيويورك ومعرض ميرو فى منيابوليس . لم أرمسرحية واحدة أو أوبرا واحدة ، وكان الكتاب الوحيد الذى عدت به « قايوس فى لغة البربر » و« أجرومية لغة البربر » ، وهما من تأليف أستاذ مصرى فى جامعة ميتشجان اسمه أرنست عبد المسيح . وبرغم أنى دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً من فنونها وآدابها ، فقد تعاملت أشياء كثيرة غير ما قصدت إليه من رحلتى الأمريكية ، أشياء ربما كانت أهم من الفنون والآداب . ففند أن التقيت فى اليوم الأول بجامعة هارفارد بفتاة مصرية تدرس الدكتوراه يتدلى على صدرها « العنخ » أو مفتاح الحياة ، قررت أن أدرس أحوال المصريين المغتربين فى أمريكا . وفى كل مكان نزلت به جمعت باقة من المشكلات والحلول . وفى كل مكان نزلت به لم أكف عن مناقشة الناس فى المسألة المصرية وجميع الا نطباعات عن رأى العام الأمريكى فيما يسمونه « الحل السلمى » . وقد أتاحت لى تنقلاتى المتواصلة أن ألتقى بمئات الناس من مختلف الطبقات والمستويات والمهن والتخصصات . وفى الحالين وصلت إلى نتائج أجد أن من واجبى أن أعرضها على أبناء وطنى ، ليعرفوا شيئاً عن مآل إخوتهم المهاجرين فى الخارج ، وليعرفوا شيئاً عن رأى رجل الشارع الأمريكى فى محنتنا الوطنية .

إمكانيات الحوار في المجتمع المصري ترجمة لنص محاضرتي في مؤتمر بوسطون

سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى .

إنه لمصدر اعتزاز لى أن أزور الولايات المتحدة الأمريكية بعد غيبة طويلة امتدت خمس عشرة سنة ، لأتحدث إليكم فى موضوع «إمكانيات الحوار الصادق فى المجتمع العربى المعاصر» . ولذا فإنى أقدم الشكر لاتحاد الحريجين الأمريكيين العرب لتفضله بتوفير هذه الفرصة لى ، بدعوتى للتحدث إلى مؤتمره الرابع المنعقد فى بوسطون .

على أنه لم يكن واضحاً تماماً عندى إن كان المراد أن أتحدث عن إمكانيات الحوار بين المجتمع العربى وبقية العالم ، أو أن أتحدث عن إمكانيات الحوار داخل المجتمع العربى نفسه . ولما كنت أنتمى إلى بلد لم يكف منذ كارثة ١٩٦٧ عن محاولة فتح باب التفاهم مع العالم الخارجى ، ومع ذلك لا يجد أن كل الأطراف المعنية تفهمه بوضوح تام ، فإنى أسلم بأن جهودنا التى لا تكفل لإقامة الحوار مع بقية بلاد العالم ليست وضع شك من أحد . وبناء عليه فإنى سأمضى إلى استقصاء الوجه الآخر من الموضوع ، ألا وهو طبيعة التفاهم المتبادل ومداه داخل ما يسمى

بالمجتمع العربى نفسه. ولما كنت لا أعرف شيئاً كثيراً عما يجرى داخل البلاد العربية الأخرى ، فإنى سأقصر كلامى على البلد الذى أعرفه أكثر من سواه ، وهو بلدى ، مصر . كذلك فإنى سأحدد نطاق فكرتى عن المعاصرة بحيث تقتصر على أحوال عصرنا منذ ١٩٥٢ ، ولو أنى واثق من أن بعضكم يود منى أن أكون أكثر معاصرة من ذلك .

لو أننا رجعنا إلى السنوات القليلة السابقة لثورة ١٩٥٢ ، وهى آخر أيام القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية ، لوجدنا أن الحرب العالمية الثانية تلتها سبع سنوات من الفوضى السياسية والقتال والجنوح إلى اللا عقل ، ليس فقط داخل المجتمع المصرى نفسه ، ولكن كذلك بين الدول القديمة والحديثة التى كانت لها من قبل علاقات تقليدية بمصر ، وأهمها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . كانت تلك الفترة فترة اللاتفاهم العظيم : ففى مصر رفض البريطانيون فى عناد سحب جيش الاحتلال ، برغم أن انتصارهم فى الحرب جعل استمرار الوجود البريطانى فى مصر بغرض الدفاع عن النفس أمراً لا معنى له ، فى حين بلغ الشعور الوطنى المصرى نقطة الانفجار . كذلك بلغت الحزازات الطبقيّة نقطة الانفجار ، عندما رفضت طبقة الباشوات ، يقودها ملك لا يحسن بالمسئولية ، فى عناد ، كل محاولة للتصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق إصدار تشريعات عمالية تكون أقرب إلى العدالة . أما رأس المال الأجنبى فى مصر ، وقد كان خلال مائة عام يحتل مركزاً ممتازاً ، فقد رفض فى عناد أن يتخلى عن هذا المركز الممتاز

وأن يصل إلى اتفاق مع البورجوازية المصرية ومع التكنوقراطية المصرية الناميتين أبدأ ، ومع رأس المال الأجنبي ، كان هناك ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين الذين تشبثوا في عناد باعتقادهم في تفوق أصلهم الأوربي ، وآثروا الخروج من مصر جماعة على أن يستسلموا في إذعان لمصير المواطن المصري المتجنس ، وهو مصير غير مريح . ولكي تتم السيطرة على كل هذه التوترات الفظيعة ، أقام الملك فاروق خمس دكتاتوريات : النقراشي وصدقي والنقراشي وعبد الهادي وسري ، التي توالى في تعاقب سريع . وقد أضافت الدراما الفلسطينية الإسرائيلية اللمسة الأخيرة في هذه الصورة حين تطورت في الحلفية في سرعة لاهثة . وأخيراً ولد نقيض الموضوع ، وهو الثورة من الموضوع ، وهو العهد البائد . وأخيراً استجدت للبلاد الناطقة بالعربية قضية مشتركة تلتف من حولها ، وأعطى الإحساس بالمصير المشترك معنى ودفعة لفكرة العروبة .

وفي اعتقادي أنه ينبغي النظر إلى حكومة الوفد بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ على أنها آخر محاولة يائسة لإنقاذ العهد البائد الذي كانت دعامته القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية . وقد أفضى إخفاقها إلى نهاية عصر وبداية عصر آخر . وقد كان ينبغي أن تقوم ثورة ١٩٥٢ في ٢٦ يناير لا في ٢٣ يوليو .

كان ما تحتاج إليه مصر هو قيام نظام قوى يضع حداً للفوضى وللقلق وللجنوح إلى اللاعقل ، نظام فتي يقدم الحاول لكل هذه

التوترات التي لا سبيل إلى حلها ، نظام يرد لمصر كبرياءها القومي بتخليصها من الاحتلال البريطاني ، نظام يعيد لمصر استقرارها السياسي والاقتصادي بالتعجيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وبإقرار التصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعي وعن طريق ترقية تشريعات الطبقة العاملة ، نظام يجعل مصر للمصريين بتصنيفية المصالح الأجنبية و« الاستيطان » الأجنبي في مصر، وأخيراً نظام يجد حلاً مرضياً لعقدة الدراما الفلسطينية الإسرائيلية نصف المرتجلة. وبوجه عام ، حاول نظام جمال عبد الناصر - لو حكمنا عليه داخل سياقه التاريخي وفي نطاق الطبقة الوسطى الصغيرة التي حددت إمكانياته - تقديم حلول ناجحة لكل هذه التوترات التي لا سبيل إلى حلها ، ولكنه عندما تقدم لحل المشكلة العربية الإسرائيلية ، كان التحدي أكبر من طاقاته . فقد استبان بعد فوات الأوان أنه كان يتعامل مع مجهولات في السياسة الدولية لم يكن معداً لها الإعداد الكافي ، ولكنه أيضاً استبان بعد فوات الأوان أيضاً أنه بالرغم من أنه حل تناقضات عديدة داخل المجتمع قد استحدث تناقضات أخرى لم يستطع حلها لا تقل خطورة واستفحالاً في الأبعاد عما حل من تناقضات .

ومن أهم هذه التناقضات التي استحدثتها ثورة ١٩٥٢ اختفاء الحوار داخل المجتمع المصري . واختفاء الحوار بالقطع ظاهرة تتميز بها كل الثورات لا الثورة المصرية وحدها . فالثورات في العادة جامحة ومتعصبة وتتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، والحوار ، شأنه شأن الديالكتية ،

منهج في الحياة ، وبوصفه منهجاً في الحياة فهو لا بد أن يتبع نظاماً وأن يقوم له وجود مؤسس يضمن التأمل والتخاطب والتسامح . والثورات الكبرى في تاريخ البشرية ، كالمسيحية والإسلام والثورة الفرنسية والثورة الروسية ، كانت كذلك جامحة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، ولكنها قامت لتغير أفكار الناس ومعتقداتهم وقيمهم الأساسية ، ولتغير أسلوبهم في الحياة . ولهذا فإن تطرفها مغتفر بسبب عظمة رؤيتها . أما الثورة المصرية فهي برغم إقفالها باب الحوار المشر قد اختارت لأسباب عملية أن تترك بدون إجابة كافة المسائل التي كانت تمزق المجتمع المصري . فهي قد تركت معلقاً بدون إجابة ، ذلك الموضوع التقليدي ، موضوع « صراع القدماء والمحدثين » بأن تركت القديم والحديد يعيشان ويتعايشان ، ولم تكن إلا بإقامة توازن حرج كثيراً ما قام على الاعتماد على القديم لاستحداث الحديد ، خشية أن يكون الحديد أكثر جدة مما يسوغ لها . كذلك تركت الثورة المصرية معلقاً بدون إجابة موضوع الشيوعية والعلمانية كأساس للدولة في مصر . وبينما نجد أن ثورة ١٩٥٢ ، قد قبلت من جميع الوجوه وبجميع المعاني ، بلا تحفظ وفي غير إبهام ، الفكرة التقليدية والتطبيق التقليدي لنظرية الدولة في مصر مند محمد علي بوصفها قائمة على دعائم مدنية وعلمانية ، فإنها بالرغم من ذلك سمحت للفكر الشيوعي أن يتغلغل في عقول الملايين من المواطنين بإتاحة المنابر الحرة لذلك النمط من واعظ القرية المتخلف من العصور الوسطى ، وبنشر التعاليم البيوريتانية من خلال برامج التعليم ومن خلال أجهزة

الإعلام الجماهيري . فعندما نسمع نداء « الله أكبر » يتجاوب في مدينة الألف مئذنة نحسب أن القاهرة غارقة في حلم من التقوى الشاملة لا يزال يخلق فوق رؤوس الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين ، في حين أن مشهد الميني جيب والشورت الساخن في شوارع القاهرة يردنا إلى حقائق الحياة المألوفة في أية عاصمة عصرية من عواصم البحر المتوسط . وبالمثل فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معلقاً بدون إجابة موضوع تعريف القومية العربية برغم أن طوفان العروبة كان في بعض لحظات شديد التلاطم إلى حد كان ينبغي معه التوصل إلى تعريف ما للقومية العربية يعطى هذه الحركة منطقاً متماسكاً ومقبولاً . وهكذا تركت القومية العربية والوحدة العربية للتأرجح بشدة من شخص لآخر ومن حزب لحزب ، ومن أمة لأمة ، بحيث اشتمل مدلولها على أى شئ من العنصرية السافرة إلى الجامعة الإسلامية ، إلى التأليه الرومانتيكى للثقافة المشتركة ، إلى مجرد التضامن الخالى من الرومانتيكية في سبيل المصلحة المشتركة . حتى الموقف الرسمى من هذا الموضوع قد تأرجح بشدة بين ثلاثة اتجاهات كانت تسمى يوماً ما بوحدة الهدف ووحدة العمل ووحدة الصف . هذا نفسه ينطبق على الفكرة الاشتراكية نظرياً وفي التطبيق . فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معاقماً بغير إجابة موضوع شكل الاشتراكية المصرية ومحتواها ، أو على الأصح مبدأ تأميم وسائل الإنتاج ، الذى فهمه البعض على أنه رأسمالية الدولة ، فى حين تمنى له غيرهم أن يتطور إلى ملكية الشعب لفوائض القيمة ملكية حقيقية ، وعلى حين أراد له فريق ثالث أن يطابق للفكرة الدينية عن

ملكوت المؤمنين على الأرض ۞

كل هذه الأفكار المتناقضة سمحت لها الثورة أن تتعايش تعايشاً سلمياً في السنوات العشرين الماضية ، ومضت الثورة تشق طريقها بمنهج التجربة والخطأ ، رافضة أن تلتزم بنظرية محددة . فبدت وكأنها تطبق نوعاً من الحياض الإيجابي على كل هذه النظريات . وبالمثل سمحت الثورة لكل هذه النظريات المتضاربة أن تعيش بشرط ألا تحاول أن تجسد نفسها في سياسيات وبرامج تطبيقية ، أو حتى أن تكتسب من القوة الذاتية ما يجعلها تشكل ضغطاً على الدولة . بعبارة أخرى احتملت هذه النظريات في سماحة ما بقيت نظريات . فلم يكن يسمح بالاستقطاب ولم يكن « التجمع » الايديولوجي موضع رضاً ، وقد حلت صيغة الاتحاد القومي أولاً ثم الاتحاد الاشتراكي ثانياً ، بوصفه « تحالفاً » بين الطبقات . مشكلة الصراع الطبقي والتناحر الحزبي . غير أن الإصرار على رفض مبدأ قيام الاتحاد القومي، أو الاتحاد الاشتراكي بوظيفة الحزب في دولة تقوم على مبدأ الحزب الواحد قد جعل التنظيم السياسي أيضاً عاجزاً أمام الدولة .

كل ذلك قلل من إمكانيات الحوار في المجتمع المصري . وقد استندت نظرية الدولة على أن الحوار هو بداية التشاتم ، وأن التشاتم هو بداية الحرب الداخلية والفرقة اللتين ما جاءت ثورة ١٩٥٢ إلا لتجنبهما . وقد بنت قيادة الثورة شرعيتها على مبدأ واحد ، وهو أنها لا تمثل طبقة واحدة ، ولا تمثل مجموعة واحدة من المصالح ، ولا تمثل مجموعة واحدة من الأفراد ، وإنما تمثل الأمة كلها . ومن أجل ذلك كان لزاماً عليها أن تكون

فوق الطبقات وفروق مجتمعات المصالح . إلخ .. ولهذا كان لكل مواطن الحق في أن يعبر عن نفسه بالمولودولوج للصغير المتصل بشخصه ، وأن يعرب عن معتقداته ، وعن شكواه ، وعن احتياجاته داخل الإطار العام للأشياء ، وكانت القيادة الملهمة تصغى باهتمام إلى صوت « الشعب » . وفي هذه النظرة التوحيدية للدولة تصبح إرادة « الشعب » هي مجموع إرادات الأفراد . فكل فرد يقف وحده مع الدولة أو عليها .

وقد مكن هذا النقص في النظرية ثورة ١٩٥٢ إلى حد كبير من أن تتجنب الوقوع في صدامات دموية مع أعدائها ، وهو ما تميزت به الثورات الأخرى إلى حد كبير . فكثيراً ما يكون طغيان الإيمان بعقيدة أو بأسطورة إنسانية أو اجتماعية هو المحرك إلى العنف وسفك الدماء . غير أن هذا النقص نفسه في النظرية ، وهذه الرغبة في التوفيق بين النقائص وتركيبها بقصد تجنب الصدامات ، هما اللذان أفضيا إلى عجز الثورة المصرية عن أن تهى للشعب المصري فلسفة ثورية متجانسة وأسلوباً ثورياً متجانساً في الحياة . فهي قد تركت المصريين يؤمنون بما يريدون الإيمان به بشرط ألا يعتقدوا على الخطوط العريضة التي أرسها الثورة . وعلى الأقل حتى دستور ١٩٧١ كان يمكن للمواطن المصري أن يكون ماركسياً أو أياً مسلماً بشرط ألا ينتمى إلى جماعة منظمة ، وبشرط أن يتعاون مع النظام . وقد تركت ثورة ١٩٥٢ أكثر الأشياء للطبيعة ، واعتمدت فقط على قوانين التحول الاقتصادي الصارمة . صحيح أن الناس فقدوا عقلياً العمل بمبدأ «دعه يفكر» حين فقدوا اقتصادياً العمل بمبدأ «دعه يعمل»

لكن صحيح أيضاً أن الفلاح المصرى الذى مسه الإصلاح الزراعى والعامل المصرى الذى مسه التصنيع لا يملكان أية عقيدة ثورية متميزة ، أو أى أسلوب ثورى متميز فى الحياة . وصحيح أيضاً أن مئات الآلاف من النساء المصريات قد تحررن فى عهد الثورة « بقوة الواقع » بسبب تعليم المرأة وتشغيل المرأة ، ولكنهن لم يتحررن بعد « بقوة القانون » ، بل لم ينان أدنى اعتراف بالمساواة فى مجتمع قائم على سيادة الذكور ، برغم أن الميثاق والدستور معاً قد حرصا على إعطاء المرأة المصرية وضع المواطنة الكاملة .

وقد قامت نظرية الوحدة الوطنية على أساس من نظرية الوحدة الاجتماعية ، وهى ما يسمى أحياناً « بتدوين التناقض بين الطبقات » . وقد قلت هذه من إمكانية الحوار الصادق فى المجتمع المصرى ، ثقافياً كان أو غير ذلك . وكان شعار المرحلة هو الاكتفاء الذاتى ، والاكتفاء الذاتى بنص تعريفه هو نبي لفلسفة الحياة القائمة على « الأخذ والعطاء » فهو على أحسن الاحتمالات يفترض القدرة على أن نعطى من دون أن نأخذ ، على أن نؤثر من دون أن نتأثر ، على أن نصدر من دون أن نستورد . كما أنه كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى المادى أننا كنا نعتقد أن مصر ، التى ظلت آلاف السنين بلداً زراعياً تضرب به الأمثال فى اعتمادها على الزراعة ، قد أصبحت منذ ١٩٥٢ بلداً كامل التصنيع « ينتج كل شىء من الإبرة إلى الصاروخ » كذلك كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى الثقافى أن نعتقد أن الثقافة العربية كانت مكتفية

بذاتها ، على الأقل منذ ظهور الإسلام وسيادة العرب في العصر الذهبي . ولم يكن مجرد افتراض ضمنى وإنما كان موضع تأكيد صريح أن الثقافة العربية كانت تجسد كل ما يستحق الاهتمام من القيم الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية ومن التقاليد ومن المؤسسات المدنية بوصف أن هذه جميعاً نابعة من مبادئ الدين . وقد كانت هناك حقاً مظاهر فساد وانحراف عن الطريق القويم بعد أن استسلم العرب للغزاة الأجانب وتعرض الدين للزندقات اللعينة الوافدة من مصادر أجنبية . وقد كان الحل هو أن نطهر قيمنا الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية وأن نطهر تقاليدنا ومؤسساتنا الاجتماعية بالرفض الأعظم لكل ثقافة «مستوردة» وأن نبعث الثقافة الدينية الأصيلة الموروثة عن العصر الذهبي في التاريخ العربي . ولما كان الناطقون بالعربية يختلفون في تحديد أى عصر من العصور كان العصر الذهبي في التاريخ العربي ، أهو عصر الرسول والخلفاء الراشدين أم عصر بنى أمية أم عصر العباسيين ، فقد اختلفوا أيضاً حول تحديد شكل هذا البعث العظيم وماهيته .

أما البيوريتان فقد آمنوا بحكومة شيوقراطية تقوم على البيعة وتؤسس على تفويض السلطة لا على التمثيل النيابى ، كما آمنوا بمجتمع طبقى وبنظام يقوم على تقديس الملكية الخاصة « وبالإحسان » كأداة للعدل الاجتماعى ، وبكافة الفضائل الاقتصادية التقليدية التى تشجب فلسفة اللذة بكل درجاتها ، من عبادة الجمال السافرة إلى تذوق الفنون الجميلة ، بوصفها من عمل الشيطان ، وهؤلاء آمنوا « بالأطفال والمطبخ والمعبد » - كما كان الألمان

يقولون - كوظيفة للمرأة ، وبفصل الجنسين ، وبوضع حدود لتعليم المرأة . وعندما واجهوا الاشتراكية المخنفة التي نص عليها ميثاق عبد الناصر في ١٩٦٢ هاجموها بوصفها زندقة . (وقد كان مما يثير الرثاء أن نرى بعض الماركسيين المصريين ودعاة الاشتراكية العربية ، رغبة منهم في تسكين غضب البيوريتان يحتجون بأن الدين هو ينبوع الذي نبعت منه الاشتراكية ، ولكي يثبتوا حججهم ، كانوا يقتطعون بعض الآيات المقدسة من القرآن مما يندد بخطرسة الأغنياء ويحض على الرحمة بالفقراء ، أو يستشهدون بأبي ذر الغفاري ، وهو فارس من دعاة المساواة عاش في عصر الرسول وكان يطالب بالعدل الاقتصادي في صدر الإسلام) .

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتطرفون ، برغم نشاطهم الجهم ونبرتهم العالية ، يمثلون القسم الأكبر من الرأي العام حول الاشتراكية العربية والثمافة العربية . فهم لم ينجحوا إلا في خلق جو جعل القيادة السياسية نفسها والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام تقف موقف المعتذر عن تحديد الملكية الزراعية وعن تأمين وسائل الإنتاج الضخم . وكان الدفاع دائماً ما يقوم على أن هذه الإصلاحات لها سوابق في تاريخنا المجيد وليست مجرد مستوردات من الفلسفات الأجنبية والتطبيقات الأجنبية ، بل على العكس من ذلك ، كان يقال في تأكيد إن الاشتراكية العربية إضافة إيجابية للنظرية الاقتصادية والسياسية المستوحاة مائة في المائة من الظروف والأحوال العربية . وكانت هناك درجة من الصدق في هذا الاعتراف ! وقد قاتل الماركسيون المصريون وخسروا معركة بأسلة حين حاولوا أن

يشتبوا أن الاشتراكية هي الاشتراكية في كل مكان ، وأنه ليس ثمة شيء اسمه الاشتراكية العربية أو الاشتراكية اليوجوسلافية أو الاشتراكية الروسية ، وإنما هناك فقط « طريق » عربي أو يوجوسلافي أو روسي إلى الاشتراكية . والأرجح أن هذه المعركة الأيديولوجية التي دارت خلال سنتين أو ثلاث بعد إعلان الميثاق ، أي بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ ، كانت أكثر تفلسفاً مما يسوغ فهمه للرجل العادي الذي لم يحتجز في عقله من كل هذه الضوضاء إلا فكرة واحدة أساسية تتسق مع مبدأ الاكتفاء الذاتي الذي جاءت به الثورة في مجموعته . هي أن العربي الصالح والمسلم الصالح لا يجوز له أن « يستورد » بضائعه أو ثقافته أو مبادئه الاقتصادية والسياسية . وإنما عليه أن يصنعها بنفسه وفقاً لظروفه واحتياجاته وغاياته . حتى ولو كانت النتيجة شيئاً يختلف تماماً عن التعريفات والمفاهيم المتعارف عليها . هذا المبدأ نفسه ينطبق على الديمقراطية في النظرية وفي التطبيق وعلى النظريات الثقافية والسوسيولوجية كافة .

وهذا الاتجاه في حد ذاته كان يمكن أن يكون أساساً براجماتياً صحياً للفكر النظري وللتطبيق العملي لولا أن تأليه الذات القومية وتقديس الثقافة القومية والتجربة القومية والأسلوب القومي في الحياة قد أفضيا إلى أننا فرضنا العزلة على أنفسنا بأنفسنا وإلى أننا عجزنا عن التفاهم مع بقية بلاد العالم . وقد كانت هذه هي محنة مصر الحقيقية قبل ١٩٦٧ : إنها كانت تحيا في حالة مونولوج متصل ، عاجزة عن الإرسال عاجزة

عن الاستقبال . وقد تغير هذا الاتجاه تغيراً مأموساً منذ كارثة حرب
يونيو .

وقد أدى الاعتقاد في أن الثقافة العربية مكثفية بذاتها إلى توقف
التواصل مع الثقافات الأخرى ، ولا سيما الثقافة الغربية التي كانت تقايدياً
خلال القرنين الماضيين مفاعلاً جوهرياً في نهضة البلاد الناطقة بالعربية ،
ففي مصر خلال عشر سنوات كانت دراسة اللغات الأجنبية ينظر إليها
رسمياً وشعبياً على أنها من البقايا الكريمة المتخلفة من العهد البائد الذي
اشتهر باعتماده المشين على الدول الإمبريالية والاستعمارية ، ولا سيما
بريطانيا وفرنسا . وفي برامج التعليم اختصر تعليم الإنجليزية اختصاراً
مخلاً ، وغدت اللغة الإنجليزية مادة اختيارية يجوز للطالب أن ينجح
فيها أو يرسب . بعد أن كانت اللغة الأجنبية الأولى الإلزامية طوال
السنوات الخمس في التعليم الثانوي . أما اللغة الفرنسية فقد ألغيت تماماً
أو أوشكت . وكانت نتيجة ذلك أن أجيالاً وأجيالاً من الشباب كانت
تلتحق بالجامعات المصرية بدون أن تعرف من الإنجليزية أو الفرنسية
شيئاً ذا بال . وفي الوقت نفسه ، لأسباب مختلفة اضطرب وپرود الكتب
والدوريات والجرائد الإنجليزية والفرنسية اضطراباً عظيماً بعد أن
كان سيده متصللاً . ومنعت الدولة الدراسة في الخارج إلا لأبحاث الدكتوراه
في عدد محدود جداً من المجالات العلمية . وقصر السفر إلى الخارج
على العلاج الطبي والمهمات الرسمية ، وأخضع لإشراف الدولة . كذلك
كان الاتصال بالأساتذة والخبراء والصحفيين بل والسياح الأجانب لا يقابل

بالرضا . وبعد أن غادر مصر ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين في هجرة جماعية في بداية عهد ثورة ١٩٥٢ طراً تغيير مفاجئ وتام على المناخ الثقافي والاقتصادي والاجتماعي . قلم تعد القاهرة والإسكندرية مدينتين « كوزموبوليت » حتى قبل حرب السويس في ١٩٥٦ بفترة طويلة . ولاشك أن الثورة كان لديها من الأسباب القوية ما يجعلها تبالغ في تأكيد اكتفاء مصر الذاتى في الثقافة القومية ، ولكن النتيجة كانت عزلة مصر الثقافية دون أن يتولد لديها الإحساس بالعزلة . ونحن لم نبدأ نحس بالحاجة إلى مزيد من الحوار الثقافى الصادق مع بقية بلاد العالم إلا منذ عام ١٩٦٧ .

والآن ما هو الموقف منذ ١٩٦٧ ؟ لقد دار بيننا التفتيش في أعماق النفس على أوسع نطاق منذ هزيمتنا في حرب الأيام الستة . وقد أدرك الكثيرون منا أن مواجهتنا مع إسرائيل ليست مجرد مواجهة عسكرية ولكنها مواجهة بين شكلين من أشكال الحضارة . ومن هنا كان اعترافنا على كل مستوى بأن علينا أن ندعم أسس الدولة العصرية في مصر ، وأن نقيم الحوار المستمر بيننا وبين بقية بلاد العالم ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، ولكن من الناحية الثقافية كذلك . والظروف الآن تبدو ، على الأقل ظاهرياً ، مناسبة لإجراء هذا الحوار الثقافى الصادق مع الغير وداخل المجتمع المصرى نفسه . فإحساس المغرورين باكتفائنا الذاتى يتلاشى الآن بسرعة عظيمة ، ويبدو أننا مقبلون على فترة من مراجعة معتقداتنا الأساسية ونمطنا التقليدى في الحياة واسعة المدى . وليس أدل

على هذا من القلق العام الذى يعيش فيه المثقفون المصريون اليوم . ومع ذلك فالمستقبل وحده هو الذى سيكشف إن كان القلق الحالى سيفضى إلى منهج جدلى إيجابى فى الفكر والسلوك أم إنه سيكتشف فىنا شعور المارد الهائج المحاصر . فى اعتقادى أن الكثير يتوقف على باوغ حل عادل لمحتتنا الراهنة ، فالناس فى قمة الغضب عاجزون عن الحوار المنطقى .



الفصل الثامن

مصر

ما وراء البحار

كان أهم ما عنيت به في أثناء رحلتي الأمريكية أمران : دراسة أحوال المصريين المقيمين في الخارج ، وأكثرهم من الأمريكان المهاجرين ، ثم جمع الانطباعات عن رأى الأمريكان في حل الصراع العربى الإسرائيلي القائم . وقد أتاحت لى تنقلاتى الواسعة عبر عشرة آلاف ميل داخل أمريكا وبين اثنتى عشرة جامعة فى اثنتى عشرة مدينة أن ألتقى بالئات والئات من الناس على كل مستوى وأن أناقشهم أو أن أسألهم فى هذا الموضوع وذلك . وكان أكثر من قابلت طبعاً من الأساتذة والطلاب ، ولكنى التقيت كذلك بعدد من الفنيين والمهنيين كالمهندسين والأطباء وبعدد من رجال الإعلام من صحفيين وإذاعيين إلخ . . كما التقيت بعدد من العاملين فى الأمم المتحدة . ومن هؤلاء جميعاً جمعت انطباعاتى عن هذين الموضوعين .

وفى كل بلد نزلت به كان هناك مصريون مهاجرون فى انتظارى أو فى انتظار أن ألتقى بهم على موعد ، فقد كنت حريصاً ، وكانوا حريصين على ترتيب هذه اللقاءات . وكانت اللقاءات تجرى عادة فى

صورة حفلات استقبال ، ومن هؤلاء المهاجرين من كانوا أصدقاء أعزاء لى رعى بهم الزمان إلى تلك الشيطان البعيدة . وفى كل مرة كنت ألتقى بجماعة من المصريين المهاجرين كنت أحس بالحزن الشديد ، فقد وجدت أكثرهم مصابا بعاهات نفسية كلها من حب مصر . وون هؤلاء من كان شغله الشاغل ، برغم حصوله على الجنسية الأمريكية ، أن يثبت لى أنه مصرى أكثر منى وأنه يعرف مصر أكثر مما أعرفها . ومنهم من حصل على الجنسية الأمريكية وهو يستحى أو يخاف أمامى أن يقرر ذلك فتراه ينكرها بشدة . ومنهم من يشكو لك القنصلية المصرية لأنها ترفض منذ عشر سنوات تجديد جواز سفره المصرى . ومنهم من يشكو لك وزارة الداخلية المصرية لأنها لا تعنى منذ عشر سنوات بأن ترد على طلبه بالإذن له بالعمل فى الخارج ومنهم ومنهم . لكل منهم قصة ولكل منهم قضية ولكل منهم مشكلة مع مصر . كلهم يتحرق لزيارة مصر حيث أهله وصحبه وعظام أجداده . وربما بعض المصالح المتعلقة . وأكثرهم يخشى أن يزور مصر فلا يؤذن له بتأشيرة خروج . هذا بسبب الضرائب وذلك بسبب الخدمة العسكرية والثالث بسبب إذن العمل والرابع بسبب نفقات الدراسة التى تطالب بها إدارة البعثات ، إلخ .

وكنت دائماً أسأل كل من أصادفه ، هل أنت سعيد فى أمريكا ؟
 فيكون الجواب دائماً : نعم ، ولكن فيما يشبه التأوه على شىء ضائع هو نفسه الضائعة . ووجدت أكثرهم لا ينقصه شىء من ماديات الحياة : الفيلا والسيارة والأثاث المريح والدخل الكافى والعمل الناجح ، ومع ذلك فهو فى

قرارته يخفى قلقاً مكبوتاً يطفح من حين لحين . هذا بسبب بناته اللاتي بلغن سن الزواج و لا يريد لهن أن يتزوجن من شبان أمريكيين ، وذلك لأن صديقاً له قتل في حادث سيارة فدفن في أرض غريبة بغير شعائر دينه ، وهكذا . ويبدو أن الدفعات الأخيرة من المهاجرين المصريين الذين نزحوا إلى أمريكا بعد حرب يونيو كانوا أقل توثيقاً في الحصول على أعمال تتناسب مع مؤهلاتهم . فكانوا يقبأون أية وظائف تعرض عليهم مهما كانت تافهة من أجل لقمة العيش ، وقد عمل منهم عدد غفير في وظائف الحراس في المخازن والجراجات وما إليها ، ومع ذلك فالمصريون المهاجرون برغم مايلم بهم من هموم العيش في وطنهم الجديد لم يفقدوا روح الفكاهة المصرية .

وقد بدأ المهاجرون القدماء يحسون بأن عليهم واجباً نحو المهاجرين الجدد ، كما بدءوا يحسون بضرورة التجمع والترابط ، وهم الآن يحاولون إنشاء جمعية من الأمريكيين المصريين تكون لها فروع في كافة بلاد أمريكا حيث يتجمع المصريون .

أ سأل صديقاً يعمل في الأمم المتحدة : هل هناك إحصاء بعدد المهاجرين المصريين ؟ أجابني : يرجح العارفون أنهم نحو ربع مليون في العالم كله ، توزيعهم كالاتي : ٨٠ ألفاً في كندا ، و ٨٠ ألفاً في الولايات المتحدة ، و ٨٠ ألفاً في أستراليا وبقية بلاد العالم . قال يحيى أبو بكر عندما قابلته في نيويورك : هذا تقدير مبالغ فيه . إنهم لا يتجاوزون ١٠٠ ألف في العالم كله . وعندما عدت إلى مصر اطالعت على بعض

التقارير المتصلة بموضوع المهاجرين المصريين ، ومنها مطبوعات الجهاز المركزي للإحصاء وتقرير مدير إدارة المهاجرين بوزارة الخارجية المصرية فانهيت إلى أن مصر ليست لديها أية معاومات يقينية عن عدد أبناءها العاملين في الخارج . فلو أننا اعتمدنا على حصر من حصلوا على ترخيص من وزارة الداخلية بالعمل في الخارج لوجب أن نضيف إليهم عشرات الآلاف ممن تقدموا بطلب التصريح ولم يجابوا إلى طلبهم سواء بالصمت أو بالرفض الواضح أو بالرفض المؤجل لوجود عيب شكلي في علاقتهم بالحكومة المصرية ، ووجب أيضاً أن نضيف إلى هؤلاء عشرات الآلاف من المصريين الذين تسلاوا إلى الخارج في سياحة أو في مهمة وهمية مؤقتة أو تحت ستار العلاج أو أى ستار آخر ، أيام أن كان السفر إلى الخارج شيئاً قريباً من المحظورات ، ثم رتب أمر هجرته وهو خارج مصر خشية أن يحال بينه وبين مغادرة البلاد . وإذا نحن اعتمدنا على عدد تأشيرات الإقامة والهجرة التي منحتها كل قنصلية أجنبية في مصر للدواطين المصريين كأساس للإحصاء ووجب أن ندخل في الاعتبار حالات عشرات الآلاف من المهاجرين الذين لا تعرف القنصليات الأجنبية في القاهرة عنهم شيئاً إلا أنهم كانوا يوماً ما سياحاً أو طلاب علم أو زائرين مؤقتين ، فهؤلاء رتبوا أمور هجرتهم أو إقامتهم الدائمة خارج الأراضي المصرية ، كذلك لا يمكن أن يعتمد بعدد المصريين المقيمين في الخارج الذين يتقدمون موسميًا إلى القنصليات المصرية في مختلف بلاد العالم لتجديد جوازات سفرهم - لأن هناك عشرات الآلاف من المصريين الذين

اكتسبوا الجنسيات الأجنبية وأهملوا تجديد جوازاتهم المصرية ، لا زهداً في جنسيتهم المصرية ولكن كرها في التعامل مع البيروقراطية المصرية في مصر والخارج بعد أن يشسوا من التفاهم معها بسبب جمود القوانين واللوائح المصرية المطبقة عليهم .

بعبارة أخرى ليست هناك وسيلة واحدة بعينها نستطيع أن نحصر بها عدد المصريين المهاجرين والمصريين المقيمين في الخارج إقامة متصلة وإنما لا بد من اللجوء إلى خمس أو ست وسائل ربما كان في مقدمتها البحث الميداني . أو البحث على الطبيعة ، في مختلف بلاد العالم . وسواء أكان عدد المصريين المهاجرين أو المقيمين في الخارج ربع مليون أو مائة ألف . فهذا العدد في الحالين عدد رهيب ، وهو يجعل من اغتراب المصريين مشكاة قومية يجب أن تدرس على مستوى المسؤولية سياسياً واقتصادياً وثقافياً ولا يترك أمرها لمجرد موظفين بير وقراطيين يطبقون قوانين واوائح أكثرها وضع في ظروف غير طبيعية أو كان برغم سلامته ينفذ في جو غير طبيعي . فإذا عرفنا أن عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين والمغتربين ينتمون إلى طبقة المهنيين والفنيين كالأطباء والأساتذة والمهندسين أدركنا أن النزيف الذي نزفته مصر سنوياً عبر عشرين عاماً من خبرتها المهنية والفنية بل والمالية كان غزيراً حقاً . ولا أظن أن السبيل الحقيقي إلى وقف هذا النزيف هو المنع والحظر والنهي والحد من حرية التجول ، لأن هذه الإجراءات قد أثبتت تجربة الأعوام والأعوام أنها هي التي أفضت إلى هرب الآلاف المؤلفة من الخبرات المصرية إلى الخارج . وأنا

شخصيًا أعرف نحو مائة حالة معرفة شخصية قرر أصحابها الإقامة المتصلة في الخارج ، بل اكتساب الجنسيات الأجنبية أحياناً ، خشية أن يعودوا إلى مصر فتمنع عنهم تأشيرة الخروج ، فيحال بينهم وبين دراساتهم العليا أو بين أعمالهم التي يزاولونها في الخارج . وإنما يكون وقف هذا النزيف بدراسة الأسباب التي أفضت إليه وتفضي إليه ومحاولة إيجاد علاج له .

وقد كنت أدأب على طماننة كل من أعرف ومن لا أعرف من المصريين في الخارج إلى أن المناخ العام قد تغير من هذه الناحية في مصر تغيراً محسوساً ، وأحسهم على زيارة مصر التي يتحرقون إلى زيارتها . ومع ذلك كنت أحس بأن إحساس المطاردين لم يفارقهم منذ تلك الأيام التي كانوا فيها بالفعل مطاردين من مكاتب البعثات ، وكانت تهددهم باويل والثبور لأنهم تجاوزوا فترة البعثة المقررة ، ومن القنصليات المصرية التي كانت ترفض تجديد جوازات سفرهم . وكنا بعد كل مناقشة حزينة ننتهي إلى هذا السؤال : كيف تضمن لنا العودة إلى أعمالنا ؟ لا يضمن هذا إلا قرار من رئيس الجمهورية أو من مجلس الوزراء ينظم من جديد علاقة المصريين المغتربين بما يسمونه هناك وأسفاه ، « الوطن الأم » ، يقصدون « مصر » . لقد كنت أؤثر أن نسمى نحن أبناءنا المغتربين في أرجاء العالم الأربع « مصر ما وراء البحار » . وأنا شخصيًا لا أحب كلمة « المهاجرين » وأفضل أن ننظر إلى جميع أبنائنا النازحين عنا على أنهم مصريون مقيمون في الخارج ، إلى أن يتنازلوا باختيارهم التام عن

جنسيّتهم المصرية :

أعتقد أننا يجب أن ننظر إلى موضوع أبنائنا المقيمين في الخارج بعقلية جديدة ونفسية جديدة ، فثلاثهم عندي مثل الابن أو البنت في الأسرة إذا تزوج من أجنبية أو من غير دينه أو تزوج على هواه : هل تبتره الأسرة بترّاً وتبترأ منه أو تحاول أن تقبل منطقته وتحترم إرادته وتقيم الود معه موصولاً ؟ في المنطق التقليدي المحافظ طبعاً تنبذه الأسرة وتلعنه وتطرده طرد الكلاب . أما في المنطق المتمدن فهى تحاول أن تقيم معه علاقات متضجرة مهما كان أسفها لقراره وأيا كانت بواعث هذا الأسف . فما بالنّا إذا كانت الأسرة نفسها في كثير من الأحيان هى المسئولة عن هذا الخطأ - إن كان هذا خطأ - بتزمتها أو رجوعيتها أو تقديرها على أبناء من دون أبناء أو عدم تقديرها لمشكلات المراهقة أو . . . إلخ . . . وقد ارتكب بعض المسئولين في حق بعض المصريين المقيمين في الخارج أخطاء أدت إلى هذا الانسلاخ الفظيع الذى غير مجرى حياة عشرات الآلاف من أبناء مصر وجعلهم يقررون الإقامة في الخارج بل فرض عليهم فرضاً الإقامة في الخارج .

خذ مثلاً حالة طالب البعثة أو الإجازة الدراسية يفصل من بعثته ومن عمله في مصر بسبب تجاوزه المدة المقررة لبعثته أو إجازته الدراسية لتلكته في العودة إلى مصر بعد انتهاء دراسته ، أيا كانت أسباب هذا التجاوز أو التلكؤ ، مشروعة كانت أو غير مشروعة . بالطبع هذا يرتب مسؤولية مدنية على طالب البعثة أو الإجازة الدراسية أن يرد للحكومة



المصرية الأموال التي أنفقتها على تعليمه في الخارج ، هذا حق مدني واضح وصريح ولا يجادل فيه اثنان ، ويمكن للدولة أن تحصل عليه بحكم قضائي بسيط قابل للتنفيذ في مصر على أموال المبعوث الآبق إن كانت له أموال . ولكن ما علاقة هذا الحق المدني بسحب صفة المواطنة سحباً عرفياً وفعالياً عن المواطن المدين للدولة سواء أقام داخل البلاد أو خارجها؟ لقد كانت قنصلياتنا في زمن ما ترفض تجديد جواز سفر أى مصرى يفصل من دراسته أو من عمله أو لا يعود إلى مصر فور إخطاره بالعودة ، وهو إجراء غير دستوري قائم على بعض القرارات الإدارية الحمقاء التي اتخذها مستواون غير مؤهلين لتحمل مسؤوليات مناصبهم ، لأن إلغاء جواز سفر أو سحبه أو تعطيل فاعليته ينطوى على درجة من درجات إسقاط الجنسية عن المواطن ، واسقاط الجنسية بنص الدستور لا يكون إلا وفقاً لأحكام القانون . ولا أعتقد أن هناك قانوناً من قوانين مصر يجيز إسقاط الجنسية المصرية عن المصريين المدينين للحكومة أيا كانت طبيعة هذ الدين . وفي اعتقادي أن أى مواطن في الخارج رفضت القنصلية المصرية - التابع لها - تجديد جواز سفره لأى سبب من الأسباب إلا صدور قرار رسمى من الجهة المختصة بإسقاط الجنسية المصرية عنه يستطيع أن يحتكم إلى القضاء ويطالب الحكومة بالتعويض الكافى عن الأضرار المادية والأدبية التي وقعت عليه بسبب تشييته في بلاد الأرض بلا هوية أو مواطنة وحرمانه من رؤية آله وعباله ورعاية مصالحه في مصر إن كانت له مصالح . وفي رأى أن الحالة الوحيدة التي يجوز للسلطات

فيها أن تسقط الجنسية المصرية عن المواطن المصري غير الإذانة بالحياة العظمى بحكم القضاة الطبيعيين هي الفرار من الخدمة العسكرية أو رفض القيام بها عن إصرار وتبويت يتأكدان أمام القضاء الطبيعي . أما مادون ذلك فحقوق والتزامات مدنية أو جنائية لا علاقة لها بصفة المواطنة أو بالجنسية التي يولد بها كل مصري كما يولد بلون جلده وبشكل عينيه وبطول قامته ولم يمنحها أحد لأحد . وما منحه الله لا يأخذه الإنسان .

وفي اعتقادي أنه ينبغي النظر إلى أبنائنا المقيمين في الخارج . عاملين كانوا أو غير عاملين ، لا على أنهم مهاجرون وإنما على أنهم « مصريون مقيمون في الخارج » حتى ولو اكتسبوا جنسيات بلاد أخرى لتصرف معاشهم إلا من طلب باختياره التنازل عن جنسيته المصرية . وبهذا المنطق ينبغي أن نسوى بين المصري المقيم في أوروبا أو أمريكا أو استراليا إلخ . . وبين المصري المقيم في أية دولة من الدول العربية . فما دامت الحدود السياسية قائمة بين الدول العربية فاعتقادي أنه خدش للدستور البلاد الذي نص على أن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات ، التمييز في المعاملة بين مواطن مصري مغترب يعمل في أوروبا أو أمريكا ومواطن مصري مغترب يعمل في السعودية أو الكويت أو الجزائر ، فنعامل الأول معاملة المهاجر في حين نعامل الآخر معاملة المصري المقيم في الخارج ، ونسقط الجنسية عن الأول أو نكرهه على التنازل عنها بحيث لا يعود إلى مصر إلا عودة الأجنبي ، على حين نحفظ للآخر كافة حقوق المواطنة ، بل إننا بذلك نعاقب أبناءنا الشجعان الذين لم يتهيبوا

من التحدى الأكبر ، وهو أن يبحثوا عن الرزق والمستقبل بين أقوام أعلى منا حضارة ولا مكان بينهم لأجنى إلا إذا كان ذا قدرات خاصة تحتاج إليها مجتمعاتهم ، ونسوخو مع أبنائنا الذين يمشون في دروب ممهدة وبين أقوام تكنى فيها الخبرة المأوفة لأنها ناقصة في أكثر الخبرات . وقد التقيت بتلامذة لى يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها في مدارس إنجلترا وأمريكا للطلبة الإنجليز والأمريكان ، وعندى أن مهمة هؤلاء أشق عشر مرات من مهمة أولئك الذين يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها في مدارس العراق أو الكويت أو الجزائر . ومع ذلك تركت الأولين يشكون مشكلاتهم المصرية في حين يعمل الآخرون تحت جناح مصر ورعايتها .

والمهم في كل هذا أن نتوصل إلى الحلول الحاسمة التي تريح كل أبنائنا المبعثرين هنا وهناك وفي كل مكان . وأقترح في سبيل ذلك العمل بالمبادئ التالية :

١ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم في الخارج لأى سبب من الأسباب للعمل أو لغير العمل ، للعمل بتصريح أو بغير تصريح ، من تجديد جواز سفره ، إلا في الحالات التي تتوفر فيها أركان إسقاط الجنسية ، وأن يكون القرار المذكور بأثر رجعى .

٢ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم في الخارج من العودة إلى محل إقامته بعد زيارته لمصر لأى سبب من الأسباب وبأية حجة من الحجج .

٣ - أن يصدر قانون بأثر رجعي يبيح لأبنائنا المقيمين في الخارج الجمع بين جنسيتهم والجنسية التي يكتسبونها لكسب عيشهم بحيث لا يفقد « المصري المقيم في الخارج » جنسيته المصرية إلا إذا تخلى عنها بمحض إرادته أو أدين قضائياً بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية .

٤ - أن تنشأ بكل سفارة مصرية في الدول التي يتجمع فيها المصريون المقيمون في الخارج إدارة للمغترب بين تتولى حصر أسماء المقيمين في الخارج وأعمالهم ووسائل الاتصال بهم وتنظيم علاقاتهم بمصر ، كما تتولى رعاية الجمعيات والنوادي التي ينشئها المصريون المقيمون في الخارج ، وتتولى تنظيم تعليم أبنائهم اللغة العربية ومبادئ الدين والتاريخ القومي .

٥ - أن تحصن بقوة القانون أموال المصريين المقيمين في الخارج المودعة لدى البنوك المصرية بحيث لا يعزف المصري المغترب عن إيداع أمواله في البنوك المصرية خشية أن تعصف بها تقلبات القوانين .

٦ - أن يصرح للمصريين المقيمين في الخارج بتملك الأقطان الزراعية والعقارات وأن يستثمروا في الاقتصاد المصري داخل مصر وخارجها حتى ولو كانوا قد اكتسبوا جنسية أخرى ، ولا يحظر عليهم إلا التصرف فيها بالبيع أو التنازل لأشخاص أو هيئات لا تحمل الجنسية المصرية .

٧ - أن يصدر قرار ينص على أن كل مصري مقيم في الخارج يتقدم بطلب للإذن له بالعمل في الخارج ولا يصله رد من الجهات المختصة

عن طريق قنصليته خلال شهرين من إيداعه الطلب يعد طلبه مقبولاً بصفة تلقائية ، وإنه في حالة الرفض يجوز له الاحتكام لمجلس الدولة في دائرة للأمور المستعجاة تنشأ خصيصاً للفصل في هذه الأمور وأمثالها . أما المواطنون المقيمون في مصر فتختصر المهلة إلى شهر واحد . مع تمتعهم بحق اللجوء إلى محكمة القضاء الإداري .

هذه بعض التيسيرات التي يمكن أن نقدمها لأبنائنا المقيمين في الخارج ، أن نجعلهم يحسون من أعماق قلوبهم بأن مصر لا تزال وطنهم ، لا مجرد وطنهم الحاني عليهم برخيصة العواطف التي لا تكلف شيئاً . ولكن وطنهم الذي يملكون ترابه كما نملكه نحن المواطنين المقيمين . وأنا لست مع المغالين الذين يقوون « ما يبقى على المداود غير شر البقر » فهؤلاء يذهبون إلى النقيض الآخر في تمجيد الحياة خارج حدودنا ، وإنما أقول إن أبناءنا المقيمين في الخارج لا هم « خونة » ولا هم « خير البقر » . وإنما هم مجرد مصريين طموحين بالفعل أو بالوهم إلى حياة أفضل ، أو مصريين قلقين تولد عندهم شعور بالاضطهاد أو الاحباط بالفعل أو بالوهم . ولو أردت أن « تفرز » فصائل الصادقين لخصت لكل سيرة ملفاً جسيماً تتوه في أوله ومنتهاه . وبين هؤلاء وأولئك اندست النسبة المألوفة من المغامرين ومن الشواذ ممن تجدهم في أي مجتمع من المجتمعات ، فلنقل إنهم أبناءنا يبحثون عن حظهم في الحياة ولنتمن لهم التوفيق أينما يذهبون .

المهم في كل هذا أنه لا ينبغي أن نسمع مصرياً في الخارج يقول لك :

عمرى الآن ٤٤ سنة . تخرجت بتفوق فى كلية الهندسة جامعة القاهرة عام كذا وأردت أن أتم دراسة الدكتوراه فى النمسا فرفض طلبى فى البعثة ورفض طلبى فى أن أتعلم على نفقتى ، فتوسلت إلى السفر المؤقت إلى فيينا وأنا فى الخامسة والعشرين ، وهناك أتممت علمى بامتياز بعد أربع سنوات فصالت فى أثناءها من عملى فى مصر ، فعينتنى جامعة فيينا مدرساً بها سنوات . ثم عينت أستاذاً بجامعة كذا فى الولايات المتحدة سنوات ، ثم عينت مديراً لمصانع كيميائية بمدينة كذا سنوات ، ثم عرض على كرسى الكيمياء فى جامعة كذا بمرتب ٣٠ ألف دولار سنوياً ، وميزانية أبحاث مشابهة ، فقبلت العرض برغم أن دخلى من إدارة المصانع كان يربو على دخلى من الجامعات فأنا أحب التدريس . وفى كل مرة كنت أطلب تصريحاً بالعمل فى الخارج فلا يأتينى رد . وأصحاب العروض طبعاً لا يستطيعون انتظار الحكومة المصرية . . . وكلما أردت تجديد جواز سفرى ، قالوا : لا بد من شهادة المعاملة ، أو قالوا لا بد من إذن عمل . لكم أحب أن أزور مصر وأهلى . وهنا تقول : وماذا يمنعك ؟ فيجيب : وهل تضمن لى تأشيرة الخروج ؟ إن جامعتى لا تستطيع أن تنتظر . وحاولت أن أشرح له أن الأمور قد تحسنت من هذه الناحية . وبدا عليه الاقتناع ، غالباً ليس بسبب كلامى ، ولكن بسبب ما يقرؤه فى الصحف الأمريكية عن تغير المناخ فى مصر .

وتسمع آخر يقول لك : أنت تعرفنى وتعرف زوجتى . نحن الآن

في الخمسين .. كنا من أوائل نخريجي كلية الآداب في أثناء الحرب .
 أكلوا حتى وحقتها في البعثة نحو ١٥ سنة برغم أننا انتهينا إلى التدريس
 في جامعة عين شمس ، وأخيراً حصل كل منا على إجازة دراسية في
 أمريكا وكنا في نفس الجامعة فتزوجنا . وأنت تعرف مرتبات مصر الضئيلة .
 كانت تحول لنا فلا تكفي ، واضطررنا للتدريس في المدارس الثانوية
 الأمريكية لنكمل دخلنا فتعطلنا سنتين ، ثم انتقلنا إلى إنجلترا لأنها أرخص
 وفيها تعطلنا سنة أخرى . وطابت جامعة عين شمس منا العودة فوراً وكل منا
 على بعد ستة أشهر من الدكتوراه ، فلما لم ننفذ الأمر وطلبنا المد فصلنا معاً .
 وقد حصل كل منا على الدكتوراه واشتغلنا في إنجلترا . ومنذ فصلنا وتجديد
 جواز سفرنا أصبح مشكلة . طلبنا إذن عمل فلم يصل إلينا رد . ماذا نفعل ؟
 هل نتصور جوعاً في انتظار رد الحكومة ؟ طبعاً لا . إنهم يطالبوننا برد
 ما أنفق علينا ، ولكنهم نسوا أن لكل منا معاشاً مستحقاً عن خدمة عشرين
 سنة . ونحن على استعداد لإجراء مقاصة وتقسيط ما يتبقى علينا ديناً
 للحكومة . لماذا يرفضون تجديد جواز سفرنا ؟ ماذا جنينا ؟ لقد دفعونا
 دفعاً إلى طلب الجنسية البريطانية . لكم نتمنى أن نزور مصر ، ولكننا
 نحشى أن ندخل فلا نخرج

صورة رهيبة عن مصر عند المصريين المقيمين في الخارج ، ولن
 يفلح في إزالتها إلا صدور قوانين وقرارات رسمية على أعلى مستوى
 لتعيد الطمأنينة إلى النفوس . إن بعضهم - ربما أكثرهم - يعرف فعلاً
 أن هذه التخوفات لم يعاد لها ما يسوغها . فإخوانهم في ظروف مشابهة

يدخاون الآن ويخرجون فلا يتعرض لهم أحد ، ولكنهم يحسون أن كل هذا التغيير فى المناخ مجرد تغيير فى العقلية والاجراءات الإدارية وليس محصناً بالقرارات والقوانين . بعبارة أخرى هى سماحة فردية مقترنة بظروف فترة تاريخية معينة ، وقد تنقلب السماحة إلى جهامة بين يوم وليلة . لأنهم باختصار يأملون فى تنظيم لأحوال المغتربين له قوة الدساتير ، وليس رهينا بالقرارات الإدارية .

وهذا ما ينبغى أن نسعى لتحقيقه . أن نجعل المصريين المقيمين فى الخارج يتجولون فى أرض مصر محررين من الخوف كما يتجولون فى أى أرض غريبة

أعرف أستاذاً مصرياً فى جامعة أمريكية يقضى إجازته السنوية كل عام مع أسرته فى قبرص أو فى لبنان أو فى إيطاليا ، يحوم حول مصر من بعيد دون أن يجرؤ على الدخول اتقاء للمجازفة . وأعرف آخرين قالوا لى فى حزن عميق : لن نموت فى بلاد الغرب . إننا عائدون . وعندما نقرب من سن الشيخوخة سوف نرجع إلى حيث جئنا لنموت على ضفاف النيل العظيم .

ألم يكن هذا ما يفعله الإنجليزى أو الفرنسى حين كان يقضى عامة حياته موظفاً أو تاجراً أو صانعاً فى مصر والسودان أو فى مجاهل إفريقيا ، وبعد أن تنقضى حياته العملية كان يتقاعد فى بلاده حيث تنتظره داره الريفية ورصيده فى البنك وذكريات حياته الحافلة بكل الألوان ؟ ولماذا لا نمهد منذ الآن لعودة المستوطن المصرى فى نأى البلاد بعد أن يستوفى أجل

جهاده من أجل الرزق إلى صدر أمه الحنون التي تحمل همه في حضوره
وفي غربته وتتبعه بعيون ملهوقة في الحل والترحال ؟ فإن شاء بعد كل
هذا أن يتخذ لنفسه داراً غير داره وقوماً غير قومه مآباً ، جاده الغيث
إذا الغيث همى أينما دبت قدماه أو ارتاح رميمه في رحاب الله الواسعة .



المسألة المصرية

عفوياً إذا تكلمت في السياسة ولكنه شيء لا مفر منه بعد رحلتي
الأمريكية .

كان الموضوع الآخر الذي اهتمت به في أثناء زيارتي لأمريكا
بعد دراسة أحوال المهاجرين المصريين ، هو دراسة آراء الأمريكيين
في الصراع المصري الإسرائيلي بصفة خاصة ، وفي الصراع العربي
الإسرائيلي بصفة عامة . والحق أني كنت أينما ذهبت في أوروبا ثم في
أمريكا أجد هذا الموضوع يطرح نفسه من تلقاء نفسه .

ولم يكن في الكلام أية درجة من درجات الغموض هنا أو هناك .
كانوا في فرنسا واضحين ، وكانوا في إنجلترا واضحين . كذلك كانوا
في أمريكا أوضح من الوضوح . وقد سبب لي هذا الوضوح حيرة حقيقية
لأن بعض ماشاع بيننا في مصر من آمال متفائلة حول إمكانيات التوصل
إلى حل سلمى مع العدو الإسرائيلي لا يمكن استخلاصه بتاتا مما سمعت
من آراء في أمريكا وفي غير أمريكا . فمن أين جاء اللبس إذن ؟

هناك تفسيران : إما أن هناك مشكلة لا تفاهم لغوى حقيقي بيننا
وبين الأمريكيين : يقوون شيئاً فنفهم شيئاً آخر لا اختلاف عاداتنا عن

عاداتهم في التعبير ، وإما أن الأمريكيين ، حينما كانوا يخاطبوننا في أمر التسوية السلمية كانوا يستخدمون لغة مبهمة ملفوفة تحتل أكثر من تخريج ، لغرض في نفس يعقوب أو مجرد ترك باب الحوار نصف مفتوح .

وللقوم هناك عادات في التعبير تحتاج إلى معرفة خاصة ، لأنها وليادة تدرس حضارى معقد عبر مئات السنين . فهم إذا أرادوا مثلاً أن يرفضوا لك طلب استخدام بطريقة مهذبة فر بما قالوا : إن مؤهلاتك أعلى من الوظيفة المطاوبة ، والمقصود طبعاً في بطن المتكلم أنك ستكون - لو استخدمناك - موظفاً قلقاً متدمراً ساخطاً مشاغباً لا يشتغل بأداء عمله بقدر ما يشتغل بالمطالبة بتصحيح وضعه و«المريسة» على أقرانه ، فتفهم من الكلام أنهم يعظموذك ، وهم في حقيقة الأمر يغلقون الباب في وجهك وهكذا .. ولكن هناك أيضاً احتمالاً آخر قوياً ، وهو أن أمريكا منذ البداية ضالعة في المخطط الإسرائيلي بحيث أنها سخرت نفوذها الشخصى لوقف إطلاق النار بقصد تدجيج إسرائيل بالسلح استعداداً لجولة قادمة ، أى أنها تكرر نفس لعبة "هدنة ١٩٤٩" .

كذلك هناك احتمال ثالث قوى لا يمكن استبعاده ببساطة وهو أن أمريكا - كما يقال - أمريكتان : أمريكا البنتاجون والسى آى ايه ، وهى التى تملك القوة الحقيقية فى توجيه السياسة الأمريكية والعمل الأمريكى ، وأمريكا وزارة الخارجية ، وهى الطرف الأضعف الذى لا يملك إلا حسن النية . وهذا هو الطرف الذى سمح لنفسه أن يتفاوض معنا ويوهبنا

بأن الحلول السلمية ممكنة وشيكة ، دون أن تكون له الفاعلية الكافية لترجمة وساطته من فكر إلى فعل . فنحن إذن فريسة سياسة وموظفين لا يملكون من أمرهم شيئاً أو يلعبون بقضيتنا في صراعهم مع المؤسسة العسكرية الأمريكية للتأثير على قرارات البيت الأبيض .

وقد قرأت في أثناء وجودي في أمريكا مقالا هاماً للمعلق الصحفي المعروف جوزيف كرافت نشرته مجلة النيويورك تايمز الأسبوعية صور فيه ذلك الصراع بين خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية وبين القوى الحقيقية الموجهة لقرارات البيت الأبيض ، ومنه نستخلص أن هؤلاء الخبراء ، وهم نحو مائتي خبير ، لا حول لهم ولا قوة إزاء القوى الحقيقية التي تؤثر في صياغة قرارات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وفي المقال استهانة شديدة ، ليس فقط بفاعلية هؤلاء الخبراء وإنما أيضاً بقدراتهم وبجديتهم بل بصلاحياتهم لتحمل المسؤوليات التي يتقلدونها . وحين نشر هذا المقال كان له دوى كبير بين كافة المهتمين بشئون الشرق الأوسط في أمريكا ، وقد قوبل بامتعاض شديد من أكثر « أصدقاء العرب الأمريكيين » ولا سيما كبار الخبراء الذين تربطهم بالشرق الأوسط صلات عمل أو مصالح . ولم أجد تفسيراً للغضب العام على هذا المقال إلا أنه « فقع الدمى » الحقيقي في سياسة أمريكا حيال مشكلات الشرق الأوسط . فلنقل إنه مقال كتبه رجل يهودي من شأن أصدقاء العرب في أمريكا ، ولكن ربما كان من النافع أن نستمع حتى إلى كلام الأعداء .

وختلاصة القول أنى وجدت فى فرنسا ، ولا سيما بين المحافظين ،
 ميلا قوياً إلى تفهم وجهة نظر المصريين والعرب بعامة ، وبتبنيها فى
 إطار إمكانيات فرنسا المحدودة ، ميلا نابعا من الديبلوماسية القائمة على
 مبدأ استقلال إرادة فرنسا داخل المعسكر الغربى وعلى استرداد فرنسا
 لهيبتها ومصالحها فى البحر المتوسط بالذات وفى العالم العربى بصفة
 خاصة . أما الاشتراكيون الفرنسيون فهم أقرب إلى تفهم وجهة نظر
 إسرائيل ولكن فى غير نطاعة أو رفض تام للحوار مع العرب . وقد
 نصحنى فرنسى من أهل اليمين أن نحاول الإكثار من الحوار مع
 اليسار الفرنسى المضلل بالشعارات ، مع ميتران وكل ما هو على يسار
 ميتران ، لأن كسب اليسار الفرنسى سيقبل من أشياع إسرائيل فى
 فرنسا . وقد تركت المظاهرة التى قام بها يهود فرنسا احتجاجاً على زيارة
 بريجنيف لباريس فى أكتوبر ١٩٧١ استياء عاماً بين الفرنسيين ، وبدأ
 بعض المثقفين الفرنسيين حتى من أهل اليسار ، يرتابون بالفعل فى
 ولاء يهود فرنسا لفرنسا نفسها وتقديم تشييعهم لإسرائيل على حرصهم
 على مصالح فرنسا التى يخدمها التقارب الفرنسى السوفيتى . وقد ذكر لى
 مسئول فرنسى من كبار خبراء الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الفرنسية
 أن فرنسا قد استنفدت فى المحادثات الرباعية كل الوسائل لإقناع أمريكا
 بالضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ولكن دون جدوى . وقد
 كان الطابع العام للمحادثات الرباعية ووقوف فرنسا وإنجلترا والاتحاد
 السوفيتى فى جانب ووقوف أمريكا بمفردها فى جانب ، ولما كانت

الدول الثلاث لا تملك غير الإقناع سبيلاً ، فقد أحبطت أمريكا بمفردها كل المداولات في المحادثات الرباعية ، ولم تبق إلا وسائل الضغط على أمريكا وهو ما لا تملكه الدول الثلاث .

هذا الموقف نفسه هو موقف إنجلترا مع شيء من التخفيف ، وقد اعترف لي صديق من كبار المسؤولين عن المنطقة العربية في وزارة الخارجية البريطانية بأن البريطانيين قد حاولوا ما استطاعوا إقناع الأمريكان بوجهة نظرنا ولكن دون جدوى ، وبأنهم لا يملكون «الضغط» لأن بريطانيا الآن أضعف من أن تضغط على أمريكا . ربما . ولكن ينحيل إلى أن المصالح الأوربية التي تبلورت في الضمير الأوربي الذي تجلى أولاً في قرار الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٦٧ ، ثم تجلى في تجديد هذا القرار منذ شهرين في ديسمبر ١٩٧١ خليقة أو وجدت من ينميها : أن تشكل ضغطاً حقيقياً على الإرادة الأمريكية . فالدول المتقدمة لا تتكلم بعواطفها ولكن تتكلم بمصالحها . وما يسمونه القدرة أو عدم القدرة على الضغط هو في نهاية الأمر موازنة بين مصالحتين . وينحيل إلى أننا - ربما نستعد للقتال استعدادنا الحاسم - ربما وجدنا خيراً في البحث عن المصالح « المشروعة » المشتركة بيننا وبين أوروبا وغيرها من بلاد العالم ننميها ونعمقها لعلها تؤثر في موازين القوى . بعبارة أخرى : العمل على « عزل » أمريكا بعد أن يئسنا من « تحييد » أمريكا .

أما في أمريكا نفسها فالرأي العام قد سممته أجهزة الإعلام الأمريكية ومواقف السياسة الأمريكية ومراكز القوى الأمريكية ، فالأمر

قد تجاوز أن يكون مجرد سيطرة يهود أمريكا أو الصهيونية العالمية على الصحف والإذاعة والتليفزيون كما يحاول البعض أن يتوهم ويوهم الغير . وأنا لا أحاول بهذا أن أقلل من فاعلية النشاط الصهيوني خاصة واليهودي عامة في أمريكا ، ولكنى أقول إن المبالغة في التحويل من شأنها خرافة سياسية نشرها وينشرها أصدقاء أمريكا في كل مكان ولا سيما بيننا ، ليصوروا للناس أن الأمريكان قوم أطهار أبرار ، وأن كل شططهم ضدنا أو في مصلحة إسرائيل مصدره هذه الحفنة من الملاعين اليهود الذين يلعبون بمقدرات مائتي مليون أمريكي ، وهم لا يتجاوزون خمسة في المائة من مجموع السكان . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال هو أن يهود أمريكا هم أحد « مكونات » هذه الصورة الجسيمة المعقدة لا أكثر ولا أقل . ومن يتأمل الأمر جيداً يجد أن قوتهم ربما كانت نتيجة وليست مجرد سبب لموقف أمريكا من قضايا الشرق الأوسط ومن تكوينه الجيوبوليطي . وفي أمريكا عتاة من أعنى الطبقة الحاكمة المحافظة ومراكز القوى المحافظة من فصائل « الواسب » وهى الحروف الأولى من « البيض ، الأنجوسكسون ، البروتستانت » ممن اشتهروا بعدائهم للسامية ومع ذلك فهم يراهنون بقميصهم على الوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية ، لأنهم يرون في هذا دعماً للوجود الأمريكى وللقيم الأمريكية وللمصالح الأمريكية بطريق مباشر وغير مباشر .

مئات من الأمريكيين التقيت بهم عن معرفة وغير معرفة ، يحدثونك عن الصراع العربى الإسرائيلى ، فتجدهم أحد رجلين : كثرة غالبية

منحازة إلى إسرائيل في غير لبس ، وقلة ضئيلة ترى الأمور من زاويتنا ولكنها تصارحك القول : لا تنتظروا عوناً من الولايات المتحدة الأمريكية لحل مشكلتكم مع إسرائيل .

وقد لا حظت أن أكثر من جادلت من الأمريكيين قد ركز نقده لنا في نقطتين : الأولى هي ما يسمونه الوجود السوفييتي في مصر ، وهذا وحده في نظرهم كاف لأن تنحاز أمريكا لإسرائيل ، والثانية هي فكرتهم الثابتة عن العرب أنهم يتكلمون الآن كالحملان الوديعه لأنهم مهزومون ، ولكن إن وجدوا فرصة عاد كل شيء سيرته الأولى وتجمهروا كالذئاب الكاسرة للوثوب على إسرائيل للقضاء عليها .

وعبثاً تحاول أن تشبه للأمريكي أن الوجود السوفييتي لا يتجاوز إقاهة بعض الخبراء الروس بينما بإرادتنا وأن انسحاب إسرائيل من سيناء سوف ينهي حاجتنا إلى هذه الخبرة الروسية . كذلك عبثاً تحاول أن تقنع الأمريكي أن التجارب المريرة قد غيرت من عقلية العرب ، بل أثبتت أنهم أحوج من إسرائيل إلى ما يضمن لهم حدود بلادهم . فكرة عنا رسخت في أذهان الأمريكيين لا سبيل إلى محوها . وعلى كل فهناك درجة من درجات الشرف في هذه المصارحة الأمريكية ، وهي خير من الختل واللف والدوران .

أما بين المسئولين وأشباه المسئولين ، فهم لا يفتأون يرددون أمامك أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ، وهو كلام مهذب في الرفض مفهومه أن أمريكا لا تريد الضغط على إسرائيل . وهو في نظري أدب

خال من الحياء لأن فيه امتهاناً لعقول الناس . فمن ذا الذى يصدق أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ؟ الكل يعلم أن أمريكا فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ لم تكن تملك الضغط على إسرائيل وحدها وإنما كانت تملك الضغط على بريطانيا وفرنسا كذلك . وهى التى أرغمت الجيوش الثلاثة على الانسحاب من مصر ، عندما تخلت عن أصدقائها الأوربيين قبل الإنذار السوفييتى وبعده . وهى التى تعاونت مع الاتحاد السوفييتى يومئذ فى تعبئة دول العالم فى الأمم المتحدة لتأييد قرار الانسحاب ، ولو أنها شاعت فى حرب ١٩٦٧ أن ترغم إسرائيل على الانسحاب لما كلفها ذلك أكثر من « زغرة » .

ولكنها كانت فى سنة ١٩٥٦ لم ترم بعد طوبة عبد الناصر ، بل كانت تأمل يومئذ تبعاً لخططها العام أن تقتلع الوجود البريطانى من مصر والفرنسى من الجزائر والبريطانى والفرنسى من كل أرجاء العالم العربى^(١٣) لتحل هى محل الاستعمار القديم . فلما تكشف لها أن هؤلاء المصريين لا يمكن الاعتماد عليهم فى شىء ينفع أمريكا ، وأن مصر المشاغبة تفقد المجموعة العربية لتصفية الاستعماريين القديم والجديد على حد سواء ، وبدأت بالفعل تنادى بأن يتروك العرب للعرب ، قررت أمريكا نهائياً اللعب بالورقة الإسرائيلية حتى اقبل أن يكون للسوفييت « وجود » فى مصر كما تزعم الآن . وساعدناها نحن بكثرة الصياح والضجيج والرقص حول النار وإطلاق الأسهم النارية والأعيرة الفشنك فى الهواء .

وعلى مائدة فى واشنطن اجتمعنا ، أحمد بهاء الدين وأنا ، ونفر من

أصدقاء العرب البارزين من كبار الأمريكيين كان بينهم قائم سابق بأعمال أمريكا في مصر ورجلان من كبار رجال الأعمال . قال السياسي الأمريكي : أنا لا أرى حلاً وشيكاً للمسألة المصرية الإسرائيلية ، لم يبق أمام مصر إلا أن تبحث عن القضايا المشتركة المقنعة للرأي العام العالمي فتجمع الناس حولها . وكان كلامه مقلقاً لأنه كان يتجنب باستمرار الكلام في أمر تنفيذ قرار الأمم المتحدة أو انسحاب إسرائيل من سيناء ، وكأنما الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية لم يعد موضوعاً للبحث . فلما واجهته بسؤال : نريد أمثلة على هذه القضايا التي يمكن أن نجتمع حولها للرأي العام العالمي ، أجاب : خذ مثلاً موضوع تدويل القدس ؟ هذه قضية أو ركزت مصر عليها لأمكن أن تجتمع حولها الرأي العام العالمي المسيحي والإسلامي معاً . فاضطرتني اضطراراً إلى أن أقول له : اسمح لي أن أقول لك بوصفي مسيحياً مصرياً أن جبل سيناء يهمني تماماً كما يهمني القبر المقدس .

والمهم في كل هذا هو أنه حتى أصدقاءنا في أمريكا قد غدوا لا يرون حلاً للانسحاب الإسرائيلي من سيناء ، كأنما الأمم المتحدة وقراراتها لا وجود لها ، لأنهم يعلمون أن أمريكا تؤيد بقاء « الوضع الراهن » في مصر والمنطقة العربية كلها . وكل ما ينصحنا به هؤلاء الأصدقاء هو محاولة إجراء مزيد من الحوار بل التعاون مع بريطانيا وفرنسا وبقية دول غرب أوروبا لعل هذا يؤثر في التوازن الدولي لمصالحتنا . . والمفهوم ضمناً ، مادام هذا الكلام صادراً عن أمريكيين ، أن منطوقه يقول : لقد

اعتمدتم على الروس أكثر من اللازم ، وهذا سر. تعتقد أزمتمكم من وجهة نظر أمريكا . حاولوا أن تعتمدوا على الإنجليز والفرنسيين فتستغنوا بذلك عن السوفييت ، فهذا من وجهة نظر أمريكا أخف الضررين ، وربما كان إحراجها مع أصدقائها أدعى إلى اطمئنانها . من إحراجها مع أعدائها .

وأنا أكتب هذا التقرير عن انطباعاتي عن الرأي الأمريكي العام حول الصراع المصري الإسرائيلي ليعلم من لا يعلم - بحسب ما رأيت وسمعت - أن انتظار أي تدخل أمريكي لمصلحتنا مضيعة للوقت وخداع للنفس ، بل لقد سمعت في أمريكا من يقول : وكيف تنتظرون منا أن نساعد على فتح قناة السويس ؟ الكي يتجول الأسطول الروسي في البحر الأحمر كما يشاء وينفذ منه إلى المحيط الهندي ؟ .

وهذا التقرير لا أكتبه للحكومة المصرية ، فليست أشك في أن للحكومة المصرية خبراءها الأكفاء الشرفاء في الخارج ممن يحسنون تقدير الأمور ويصدقون القول لحكومتهم ، ولكني أكتبه للرأي العام المصري ، ولأبناء الطبقات المتوسطة بيننا بصفة خاصة لأنهم من فرط عدائهم للشيوعية بالغوا في التفاؤل بالحل السلمي لمشكلة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية وأسرفوا في الثقة بنوايا أمريكا أو بإمكانياتها . وحتى بعد أن استبان للخاص والعام استحالة الحل السلمي ذهبوا يشككون في السلاح الروسي فيهمولون في قوة الفانوم ويهونون من قوة الميج ، ويشككون في قدرات الشعب المصري على تحرير أرضه بدعوى تخلفه الشديد وحاجته إلى أجيال للأخذ

بأسباب الحياة العصرية ، برغم أن هذا التخلف لم يمنع شعب فيتنام من ضرب أروع الأمثال ، واتخذوا من فلسفة بناء الدولة العصرية السليمة حجة زائفة للتهرب من المواجهة الكبرى والتضحية في سبيل الوطن . فالتصور فيهم أكثر مما هو في الشعب المصري ، لأن في مصر من أبناء هذه الطبقات المتوسطة ما يربو عدداً على سكان إسرائيل كلها ، ومن لا يقل « عصرية » عنهم . ونحن لسنا بحاجة إلى ثلاثة وثلاثين مليون مدافع لند ثلاثة ملايين مغتصب لو أن البورجوازية المصرية كانت حقاً على استعداد لأداء واجبها الوطني . بل هم يشككون في أهلية الفلاحين والعمال لحمل السلاح ولتحمل مسؤولية الدفاع الوطني الشعبي إذا وقعت الواقعة خوفاً من القلاقل الطبقية والفردية . وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد عرفت مصر حقبة أيام الاحتلال البريطاني سقط فيها الوطن بين سادة البلاد الذين جمدوا الكفاح الوطني حتى ترقى الأمة وتتحضر وبين زعماء الرعاع الذين لم يدركوا أنه لا خير في كفاح وطني لا يقود فيه الجماهير عقل الأمة المستنير . ولم ينقذ مصر في ثورة ١٩١٩ إلا وحدة القيادة والقاعدة حيث كان زعماء البلاد ومثقفوها وطبقاتها القادرة تضرب لجموع الشعب المثل الأعلى في الرضا بالنفي والتشريد والاعتقال والتضحية بالنفس والمال في سبيل الوطن . وبهذا كانت الطبقات الممتازة بمثابة طلائع للشعب المصري تتقدمه في أداء واجبه الوطني فاستحقت بذلك مقامها الممتاز . ولست أحسب أن إسرائيل اليوم أشد بأساً أو أكثر رقيماً من الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغرب عن أملاكها ، ولست

أحسب أن الشعب المصرى اليوم أشد تخلفاً مما كان منذ خمسين سنة .
فالأمر إذن رهين فى المقام الأول بإيمان كافة أبناء الأمة بجميع طبقاتها ،
بميسوريتها قبل معلميتها ، بقداسة تراب مصر وبقداسة الفداء لتطهير
هذه الأرض المباركة من كل قدم دخيلة تدنسها . وتكاليف الجهاد الوطنى
أولى بها مترفو هذا الوادى السعيد الشقى من بنيه الذين لم يروا منه إلا ثمار
العرق العجفاء وهى كسرة الخبز وأسمال الفقراء . لن يحرر مصر إلا بنوها ،
وليعط كل بقدر ما قد أخذ : هذه بعض سنن الشرف والحياة .



الباب الثالث

رحلتى الأوربية

مداولات ثقافية

جاءتني دعوة من اليونسكو لحضور حلقة بحث أقامها اليونسكو في باريس يومى ٢٢ و ٢٣ فبراير ١٩٧٢ للنظر في إصدار مجلة ثقافية جديدة ربع سنوية تحمل اسم «الثقافات» ومن الوثائق المرفقة عرفت أن منظمة اليونسكو كانت تصدر لحمس عشرة سنة متصلة مجلة متخصصة في التاريخ باسم «مجلة التاريخ العالمى» ، يكتبها المؤرخون للمؤرخين ، وأن الجمعية العامة لليونسكو قد قررت أن تحتجب هذه المجلة التاريخية وأن تحمل محلها مجلة جديدة يكون اسمها «الثقافات» وتكون «جامعة لكل التخصصات» ، أى يكون فيها للتاريخ نصيب ، ولل فلسفة نصيب ، وللأدب نصيب ، ولل فن نصيب ، ولل اجتماع نصيب ، ولل علوم نصيب ، لا من حيث هى علوم ولكن من حيث أثرها فى الإنسان وفى المجتمع الإنسانى .

وقد جلسنا أربع جلسات لنصل إلى قرارات فى هذا الموضوع المطروح للبحث . ووجدت كل شئ مرتباً على عادة أهل اليونسكو . ووجدتني بين سبعة آخرين من الخبراء المستشارين فى شؤون التحرير ، هم الكاتب الهندى المعروف ملك راج أناند عن الهند ، والأساتذة لورين باريتز بجامعة نيويورك عن أمريكا الشمالية ، ورودير يميز منيغال عن أمريكا

اللاتينية . ومالكوم برادبرى بجامعة إيست أنجليا عن بريطانيا ، وروجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسيز عن فرنسا والشيخ انتاديوب بجامعة داكار عن أفريقيا السوداء ، وجاستريبوفا بأكاديمية موسكو عن الاتحاد السوفيتى . أما سكرتارية اليونسكو فكان يمثلها المديرون هوجارت (الإنجليزى) وبامات (الأفغانى) وميرو (السويسرى) ، وكان هناك مراقبان عن مجالس اليونسكو : فريدمان ودورميسون . سلطة روسية تمثل مختلف الجنسيات والثقافات على عادة أهل اليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية التى يراعى فيها دائماً أن تكون اجتماعاتها ممثلة لكل الشعوب ما أمكن ذلك . وبهذا فهمت أنى مدعو نبشيل خبراء التحرير فى العالم العربى .

وقد كان أول ما استرعى انتباهى هو ما تكبدته منظمة اليونسكو من نفقات باهظة لجمع كل هذا الحشد من الخبراء لمدة يومين فقط . فأكثر الحاضرين جاءوا من أطراف الدنيا لهذا الهدف المحدد بالذات ، ولا أحسب أن اليونسكو أنفقت على سفر كل هؤلاء الضيوف وإقامتهم أقل من ثلاثة آلاف جنيه . وقد كان فى وسع كبار موظفى اليونسكو أن ينفردوا بالرأى ويوفروا كل هذا المال ، ولكن هؤلاء القوم يدركون بما ربوا عليه من منهج علمى أن وضع الأساس هو كل شئ ، وأنه لا خاب من استشار ولا سيما فى الخطوات الأولى التى يتوقف عليها كل شئ ، فالتشاور هو العاصم من الارتجال . كذلك استرعى نظرى أن منظمة اليونسكو قد تعمدت أن تكون هيئة مستشارية كاملة من المفكرين « غير الرسميين » لأنها تعرف أن المثقفين « الرسميين » مقيدون بأفكار حكوماتهم وبنواياها .

ومنظمة اليونسكو التي تريد ان تواجه مثقفى العالم بهذه المجلة الجديدة تعرف أن « الموظفين » مهما علا قدرهم هم آخر من يستفتون في أمر مخاطبة المثقفين .

وقد كانت أهم المشكلات التي واجهتها لجنة المستشارين هذه أربعاً :
 [أولاً : مجال مجلة « الثقافات » . ثانياً : أهدافها ، وثالثاً محتوياتها .
 ورابعاً : سياسة تحريرها .

وبعد مداوات طويلة انتهى الرأى إلى أن يحدد مجال المجلة على الوجه الآتى :
 « الثقافات » مجلة دولية مشتركة بين كل التخصصات ، مخصصة للثقافة المعاصرة بأشمل معنى ، وهى تركز على المدخل المقارن وتنمى منهج الدراسات الثقافية .

أما أهداف المجلة فقد حددت على النحو التالى : « أن تخاطب الجمهور المتخصص وجمهور المثقفين بصفة عامة وأن تكون حلقة ترابط بين الهيئات المعنية والمختصين المعنيين بالدراسات الثقافية وبالسياسة الثقافية وبين غير المختصين المعنيين بمختلف وجوه الثقافة » ، وقد عدّ الإصرار على ذكر « المختصين » كافياً لتحديد المستوى الرفيع المنشود فى نوعية المقالات والدراسات حتى لا يتصور أحد أنها يمكن أن تتسع للخفة الصحفية المأثورة عن كثير من المجالات .

وأما محتويات المجلة الجديدة فقد تحددت بالآتى :

(١) معالجة الحياة الثقافية بكل ظواهرها مع الاهتمام الخاص بتدعيم الدراسات الثقافية المعاصرة والعلاقات الثقافية الدولية وبالتممية الثقافية

وبرسم السياسات الثقافية ، ومع الاهتمام الواجب بالحياة الثقافية على المستويات القومية والإقليمية والدولية .

(٢) نشر التحقيقات والأخبار المتصلة بالأحداث والاتجاهات والتطورات الثقافية الهامة في العالم كله .

(٣) الإكثار من إصدار الأعداد الخاصة التي تتناول الموضوع الواحد ، ويراعى فيها أن تتسع للتخصصات المشتركة وأن تقوم على المدخل المقارن على أوسع مدى ممكن ..

(٤) لا يجوز استخدام المجلة لنشر التقارير الرسمية ..

أما بالنسبة لسياسة التحرير فقد تحددت كمايلي : « أكدت لجنة المستشارين أن استقلال تحرير المجلة أمر جوهري ، وأوصت بأن يرجع رئيس التحرير مباشرة إلى الهيئات وإلى أكفأ المختصين في العالم » .

هذه كانت أهم قرارات لجنة المستشارين أو توصياتها وهي كما ترى مغلفة كالعادة بلغة المنظمات الدولية المألوفة الجافة الباردة المنفرة ، ومع ذلك فهي تجسد مداولات كان بعضها عنيفاً ومتلاطمأ . وكانت القذائف والمتفجرات تتوالى ، ولكن بأسلوب متمدن . نخذ مثلاً هذا الرأي الذي سقته شخصياً في اجتماع لجنة المستشارين :

« أنا أسف لأن الجمعية العامة لليونسكو كانت قد اتخذت قرارها باحتجاب (مجلة التاريخ العالمي) ، فهذه كانت مجلة تاريخية متخصصة يكتبها المختصون في التاريخ للمختصين في التاريخ ، كان لها جمهورها المؤكد برغم أنه جمهور محدود . فهي بذلك

كانت مجلة ناجحة لأنها كانت تؤدي الرسالة التي أنشئت من أجلها . والمسوغ الوحيد في نظري لإصدار مجلة مشتركة بين التخصصات مثل مجلة (الثقافات) هو أن تخاطب جمهور المثقفين أو الاتليجنسيا بصفة عامة لا فئة المتخصصين . وبهذا المعنى العريض للثقافة نفهم الثقافة بأنها ليست المعرفة بل تكامل المعرفة ، أو على الأصح تحول المعرفة إلى قيم ، وحيث تبدأ القيم تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية . وحيث تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية لابد من ضمانات لحرية الكلمة ، وهو ما يتجاوز إمكانيات منظمة . اليونسكو ، بل كل المنظمات الدولية ، بحدودها الحالية . فمعروف أن منظمة اليونسكو تعبر عن الدول الأعضاء فيها وأن سكرتارية اليونسكو خادمة لهذه الدول الأعضاء ، خاضعة لرقابتها وتوجيهها ولا تتمتع بشخصية « فوق دولية » ، وهذا في حد ذاته يعصف بضمانات حرية الكلمة التي لا يمكن لموظفي اليونسكو القائمين بإصدار مجلة (الثقافات) أن يحموها إزاء حساسيات ممثلي الدول الأعضاء . هبوا أن عالماً انثروبولوجياً كتب عن وجود بقايا لأكلة لحوم البشر في إحدى دول إفريقيا السوداء ، أو أن عالماً اقتصادياً خدش الأحوال الاقتصادية في بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، أو أن مفكراً درس مشكلة استعباد المرأة أو مشكلة التعصب الديني أو العنصري في العالم المعاصر دراسة تؤدي إلى استخلاص نتائج معينة . فما الضمان ألا يقف ممثل لدولة من الدول الأعضاء المخدوشة بالفعل أو بالوهم ويحتج على نشر مثل هذا البحث في مجلة

(الثقافات) ؟ إن المجالات العامية المتخصصة هي كل ما تستطيع اليونسكو إصداره من المجالات ، لأن العلماء يستطيعون الوقوف عند الوصف والرصد والإمساك عن إصدار الأحكام ، أما المجالات الثقافية المشتركة بين التخصصات . فلأنها تخاطب المثقفين بصفة عامة فلا مفر فيها من وجهة النظر مهما كان الكاتب متخصصاً وموضوعياً ومنضبطاً في عرض أفكاره .

أنتم تريدون إنشاء مجلة مثل مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » أو مجلة سبندر « أنكاونتر » دون أن تكون لكم حرية سارتر أو سبندر وهذه هي المشكلة .

وأضاف روجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسيز : بل ما الضمان ألا تتخذ الدول الأعضاء بوسائل الضغط المختلفة من هذه المجلة أداة لنشر دعايتها من خلال تقارير رسمية محشوة بالأرقام الزاهية التي تصور أنها اللجنة على الأرض حيث لا فقر ولا جهل ولا مرض ولا تخلف ولا ظلم ولا استبداد ، ولا لا بل كل شيء عال العال .

والحق يقال إن رجال اليونسكو ، ريتشارد هوجارت وبامات وجى مترو كانوا لا يقلون تفهماً لهذا الوجه من المشكلة عن لجنة المستشارين ، أقصد موضوع اختناق مطبوعات اليونسكو وبحوثها وتقاريرها بسبب حساسية الدول الأعضاء من أى نقد يوجه إليها أو إلى أسلوب الحياة والفكر فيها ، وبهذا فقدت منظمة اليونسكو قدرتها على قيادة مثقفي

العالم ، واقتصر دورها على تقديم بعض الخدمات الفنية الجليلية كإنقاذ الآثار أو المشكوك في قيمتها كخدمات التربية والتعليم .

وهذا النقص في الفاعلية بصيب كل المنظمات الدولية ، وفي مقدمتها الأمم المتحدة بدرجات متفاوتة لنفس السبب برغم أن مجالسها ولجانها وأجهزتها الفنية تضم الآلاف من خيرة الخبراء . وقد أتيج لى في مرحلة ما من حياتى أن أعمل في الأمم المتحدة وأمس بنفسى هذا النقص في الفاعلية بسبب عجز لجان الأمم المتحدة عن أداء واجباتها تخرجاً من الدول الأعضاء أو خوفاً من بطشها . ومازلت أذكر كيف كان صديقى الدكتور محمد زكى شافعى وصديقى الدكتور محمود شافعى وهما من كبار رجال الاقتصاد يحملان إلى هومهما الوظيفية . فقد كانا يكلفان بإجراء الأبحاث وكتابة التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية مثلا في إحدى دول أمريكا اللاتينية ، وبعد أن يعرقا ويسهرا الأسابيع في جمع البيانات وتحليلها ويجسدا الحقائق في صورة تقرير أو دراسة ، كان المديرين يعبثون بهذه التقارير والدراسات فيجرون عليها من التعديل في الصياغة ، الذى يباغ أحياناً حد حجب بعض البيانات أو ذكرها بطريقة مبهمه ، ما يجعل قارئ التقرير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية لا يحس بوجود «مشاكل» من أى نوع كان أو يحس بأن الحال معدن في كوستاريكا أو نيكاراغوا أو أورجواى أو باراجواى ، خشية احتجاج مندوب هذه الدولة أو تلك لو ظهر من ميزانها التجارى أنها على شفا الإفلاس أو ظهر أنها تهلك جوعاً لو توقفت الولايات المتحدة عن شراء

إنتاجها من السكر أو اتضحت تبعيتها السياسية بسبب أحوالها الاقتصادية . وكان المنطق السائد أنه ما كل الحقائق يصح ذكرها ، فإن كان لامناص من ذكرها فينبغي أن تغلف بالسيلاوفان أو تحاط بجلدة من السكر كما يفعلون بالبرشام والعقاير حتى يسهل بلعها . وهذه طريقة لا بأس بها ، ولكنها كثيراً ما تطمس ما هو داخل البرشامة فلا تدرى إن كان ما تباع جرعة من البنسلين أم جرعة من الجير أو الدقيق أو المواد التي لا نفع فيها . وإذا كان خبراء الأمم المتحدة يتحرجون كل هذا الحرج من الدول الصغرى فما بالك بخرجهم من الدول الكبرى التي تدفع ميزانية الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة كالايونسكو والفاو وهيئة الصحة العالمية ومنظمة العمل الدولية .

ومن أجل هذا فإن لجنة كلجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة برغم التزام الدول الأعضاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان تكاد أن تكون لجنة كاملة الشامل لا يحس بوجودها أحد ، مع أن حقوق الإنسان تهدر كل يوم في فييتنام وفي أمريكا وفي مصر وفي إنجلترا وفي الاتحاد السوفيتي وفي أمريكا اللاتينية وفي أفريقيا السوداء وفي أفريقيا البيضاء وفي كل بلد من بلاد العالم المتحضر والمتخلف ، سواء من حيث التفرقة العنصرية أو الإخلال بالمساواة بين المرأة الرجل أو الإخلال بحق التعليم أو تشغيل الأحداث أو .. إلخ .. وقد عبر داج همرشلد ذات مرة عن عجز الأمم المتحدة عن أداء واجباتها المنصوص عليها في ميثاقها الجميل بقوله إن الأمم المتحدة ليست إلا مجموع أعضائها .



ومعنى هذا الكلام أن الأمم المتحدة قاصرة لأن الدول الأعضاء فيها غير قادرة على أو غير راغبة في الوفاء بالتزاماتها التي ارتبطت بها حين وقعت ميثاقها ، وأن الأمم المتحدة ليست لها إرادة مستقلة عن إرادة الدول الأعضاء فيها . فالأمم المتحدة ليست هيئة « فوق دولية » . وهى ليست حكومة عالمية بأى معنى من المعانى ، وبالتالي فإن سكرتارياتها العامة لا تتجاوز أن تكون مجرد خادمة للدول الأعضاء التي إن أرادت خيراً نفذت لها الخير وإن أرادت شراً نفذت لها الشر ، وإن تعلقت إرادتها أصيبت هى بالشلل . وعلى أحسن الفروض ليس للأمم المتحدة إلا سلطة أدبية أو معنوية .

وقد عبر لنا أحد مديري اليونسكو عن هذا الوضع بقوله : إن أى ممثل من ممثلى الدول الأعضاء ، يستطيع أن يقول لنا فى أى وقت من الأوقات ، نحن ممثلون لدول أو للأمم ونحن مسئولون أمام الدول أو الأمم التي نمثلها ، أما أنتم الخبراء من موظفى الأمانة العامة فلا مسئولية عليكم أمام أحد إلا الدول الأعضاء التي لم تعطكم توكيلاً شاملاً وإنما عينتكم فى وظائفكم لمجرد تسيير الأمور التي تريد هى تسييرها . فالأمر إذن معلق مرة أخرى بإرادة الدول الأعضاء التي إن أرادت إعلان الحقائق أعلنتها وإن أرادت إخفاء الحقائق أخفتها ، وإن أرادت حرية الفكر كفلتها وإن أرادت تقييد الفكر أو توجيهه قيدهت ووجهته .

وقد قال روجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسييز متهمكماً بهذا الوضع

« من أجل هذا نجد منظمة اليونسكو تناقض نفسها ، فهي من ناحية تتحدث عن واجبها نحو نشر الأبجدية بين الأميين ومن ناحية أخرى تشجع تعليم الأميين بالوسائل السمعية البصرية التي تغني الإنسان عن تعلم الأبجدية ». (والمفهوم ضمناً أن الوسائل السمعية والبصرية ليست من وسائل مكافحة الأمية بل من وسائل مكافحة التعليم ، والمفهوم ضمناً أيضاً أن مكافحة التعليم بين الشعوب النامية يجرى وفق مخطط مرسوم تستخدم فيه منظمة اليونسكو كأداة !)

وبرغم هذا الشعور الواضح لدى موظفي اليونسكو بعدم وجود ضمانات لحرية الفكر أو حرية البحث العلمي اقتنعوا كما اقتنعت لجنة المستشارين بضرورة النص على « استقلال » تحرير مجلة « الثقافات » المزمع إنشاؤها ، وضرورة النص على عدم جواز استخدامها كأداة لنشر التقارير الرسمية التي يتقدم بها ممثلو الدول الأعضاء . وكما يزيد من الضمان لمواجهة أى ضغط على جهاز تحرير المجلة من ممثلي الدول الأعضاء اتفق بصورة مبدئية على إحالة موادها على هيئة من جهابذة العصر في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية لإقرار نشرها . وذلك كوسيلة لتحسينها ضد تدخل الدول الأعضاء بقوة رأى الثقافات الأعلام . وقد كان كل هذا نصراً عظيماً لحرية الفكر والبحث العلمي في مرحلة التخطيط . ففرجو أن تكون الخواتيم كالفواتيم .

وفي مرحلة من مراحل المداولات استدعى أحد خبراء النشر التابعين

لليونسكو ليدلى برأيه فيما ينبغي أن يطبع من نسخ من هذه المجلة الجديدة « الثقافات » . ومنه عرفنا أن « مجلة التاريخ العالمى » . كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة ، وكان يوزع منها فى العالم كله نفس هذا العدد ، يباع للجامعات والهيئات والأشخاص المعنية بدراسة التاريخ . قلنا : ولكن هذا العدد الضئيل ربما يتناسب مع مجلة متخصصة بطبيعتها ، أما مجلة مشتركة بين التخصصات ، أو مجلة ثقافية جامعة كما نقول نحن فى لغتنا ، فربما كان من الأنسب مضاعفة عدد النسخ المطبوعة منها ، وعدنا من جديد إلى الحديث فى توزيع مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » ، فعرفنا من خبير النشر أنه كان فى المد السارترى ١٥,٠٠٠ نسخة أما اليوم فهو ٥٠٠٠ نسخة . وكان تفسير ذلك طبعاً أن السارترية نفسها فى ذبول ، وأن سارتر يتخلى فى السنوات الأخيرة عن العناية بمجلته بشخصه مفوضاً أمرها لبعض مريديه ، مثل كاود لانسمان .. وقد أخذت سكرتارية اليونسكو برأى خبير النشر الذى أشار بعدم زيادة المطبوع عن ٢٠٠٠ نسخة إلا فى حالة الأعداد الخاصة .

وأنا أذكر هذه الأرقام عن توزيع المجلات الثقافية الجادة فى الخارج ليعرف مخطوطو المجلات الثقافية عندنا حقيقة ما يجرى فى العالم المتمدن ، فمجلة مثل « الأزمنة الحديثة » كانت تهز مثقفى العالم من اليابان إلى أمريكا اللاتينية لم يتجاوز توزيعها فى أقصى مداها ١٥,٠٠٠ نسخة ، وهى الآن لا تزال تعد فى طباعة المجلات الثقافية الجادة ، ومع ذلك لا يزيد توزيعها على ٥٠٠٠ نسخة فى العالم كله برغم أن « قراء » الفرنسية

في العالم يعدون عشرة أمثال « قراء » العربية فلا ينبغي أن نياس إذا أصدرنا
مجلة ثقافية عميقة أصيلة ، ولم يتجاوز توزيعها ألف نسخة ، فالثقافة
الجادة في كل بلد تعان .



الفصل الحادى عشر

ما كبت الجديد

بعد أن فرغت من واجباتى نحو منظمة اليونسكو فى باريس ، وقررت علينا قراراتنا بشأن الحملة الثقافية الجديدة المزمع إنشاؤها تحت اسم « الثقافات » للتصديق عليها ، مضيت أستعرض كتالوجات المسارح ، لأعرف ماذا يجرى فى حياة باريس الفنية فوجدت بين مسارح باريس العديدة ٤٨ مسرحاً تقدم عروضاً مسرحية . وكان بين هذه المسارح عدد لا بأس به يقدم العروض الخفيفة أو مسرحيات التسلية ، وعدد لا بأس به يقدم « الإعادات » أو ما يسمونه الريبيرتوار بلغة أهل المسرح ، وهى مسرحيات سبق أن رأيتها فى الأعوام الماضية . مثال ذلك مسرحيتا « الدرس » و « المغنية الصلحاء » للكاتب يونسكو اللتان كانتا تعرضان فى مسرح لاهوشيت بالحي اللاتينى بلا انقطاع خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة . وقد لاحظت بصفة عامة انتشار مسرحيات التسلية الجديدة فى باريس . ومع ذلك كانت هناك أركان فنية تقدم عدداً من المسرحيات الجادة العميقة . كذلك لاحظت العودة إلى مسرحيات جورج فيدو ومسرحيات جان أنوى .

ففى مسرح لا برويير كان هناك عرض لتشيكوف وبيرانديلو،
 وفى مسرح بيجال كان هناك عرض لمسرحية «بازاجيه» لراسين ،
 مع ذلك اخترت أن أرى ثلاثة عروض جديدة كان أحدها «ماكبت»
 ليوجين يونسكو . وهى تنويع على أساة شكسبير الخالدة ، وكانت
 تقدم فى مسرح الضفة اليسرى (الريف جوش) بمونبارناس . ثم
 مسرحية «كل ما فى الخديقة ورود» للكاتب الأمريكى إدوارد ألبي
 وكانت تقدم فى مسرح ماتوران . ثم عرضاً مسرحياً مقتبساً من
 كتاب لوتريامون العظيم «أغانى مالدورور» كان يقدم على مسرح
 تيرتر بمونمارتر . وكانت هناك مسرحية للكاتب الإنجليزى هارولد ينتر
 اسمها «بالأمس فقط» عن الفرنسية (ولأعرف اسمها الأصلى بالإنجليزية)
 لم أجد الوقت لمشاهدتها فاكتفيت بقراءتها . وقد ذكر لى بعض
 أصدقائى الإنجليز المقيمين فى باريس أن عرضها على المسرح الفرنسى
 كان أفضل بكثير من عرضها على المسرح الإنجليزى .

ولنبداً بمسرحية «ماكبت» ليونسكو ، وهى تجربة مثيرة فى إعادة
 تفسير قصة ماكبت أو أسطورته كما ورثناها عن شكسبير . أما حكاية
 ماكبت كما ورثناها عن شكسبير . فهى أن الملك دنكان ، ملك
 إسكتلندا . كان له قائدان كبيران هما ماكبت وبانكو استطاعا أن
 يردا الغزاة وأن يخضعا العصاة ، وكان أعظم القائدين هو ماكبت الذى
 جمع بين الشجاعة والنبيل والولاء الذى لا يحد للمليكه . وفى عودة ماكبت
 وبانكو منصورين من القتال عبر البرارى ، ظهرت للقائدين فى البرية

ثلاث ساحرات تنبأت إحداهن لما كبث بأنه سيصبح الإيرل (الكونت) على مقاطعة كودور ، وتنبأت له الثانية بأنه سيصبح الإيرل على مقاطعة جلاميس ، وتنبأت له الثالثة بأنه سيصبح ملكاً على أسكتلندا. أما القائد بانكو فقد تنبأت له الساحرات بأنه لن يظفر بمغانم في حياته ، ولكنه سيكون أباً وجداً لسلسلة طويلة من ملوك اسكتلندا. ثم اختفت الساحرات وتركن ماكبث وبانكو مشدوهين في البرية ، فهما يعلمان أن إيرل كودور وإيرل جلاميس لا يزالان بين الأحياء وأنه لا سبيل إلى وراثتهما ، كما يعلمان أن عرش اسكتلندا يجلس عليه ملك تقي مهاب هو الملك دنكان ، وأنه لا سبيل لخلافته على العرش لأن له ولدين في الخارج هما مالكولم ودونالدين .

* * *

ولا يلبث ماكبث أن يلتقى بمن يبشره بأن الملك قد أنعم عليه تقديراً لانتصاره على الغزاة بكونتية كودور وبكونتية جلاميس ، لأن إيرل كودور وإيرل جلاميس قد أعدمهما الملك دنكان وصادر أملاكهما جزاء لهما على قيامهما بفتنة أهلية على عرش البلاد . وهكذا تحققت لماكبث نبوءتان ، ولم تبق إلا النبوءة الثالثة ، وهي أن يجلس على عرش اسكتلندا . وهنا نبتت بذور الخيانة في قلب ماكبث الطيب الأمين النبيل بوحي من زوجته الطموحة الضارية الليدى ماكبث ، التي ما إن عرفت بما قد جرى من نبوءة الساحرات وتحقق شطر منها حتى تخيلت نفسها ملكة متوجة على عرش اسكتلندا ، وأقنعت زوجها بأن نبوءة

الساحرات هي مشيئة القدر . بل وأقنعت الليدى ماكبث زوجها أن يستقبل الملك دنكان فى قلعته وأن يغتاله ليحكم مكانه . وقد كان . وهكذا اغتصب ماكبث عرش اسكتلندا وحكم شعبه بالحديد والنار ، لأن قصة خيانتة كانت على ألسنة رعاياه فى السر والجمهور . وكان أول ما فعله ماكبث هو الفتك بزميله بانكو حتى يحبط نبوءة الساحرات ويغير مجرى القدر فلا يتولى عرش اسكتلندا أحد من سلالة بانكو . وتكثر متاعب ماكبث لأن زوجته ليدى ماكبث بعد أن ارتكبت جريمةها وشاركت زوجها فى الفتك بمليكه « معبد الله المقدس » ، يشغل الوزر على فؤادها فتصاب بلوثة وتراءى لها الأشباح فى يقظتها ونومها وينتهى أمرها بأن تشنق نفسها . كذلك يخوض ماكبث النبيل فى بحار من الدماء ليثبت عرشه ، وتكثر من حوله الفتن والقلاقل فيتحجر قلبه ويزداد كل يوم ضراوة حتى يغدو كالوحوش الكاسرة . وأخيراً يسقط صريعاً فى المعركة الأخيرة حين يجهز ولدا الملك دنكان جيشاً بمعونة ملك إنجلترا ويسترد مالكولم عرش أبيه . لقد تنبأت الساحرات لما كبث بأنه لن يهزم فى الحروب إلا على يد رجل لم تلده امرأة وإلا حين تتحرك غابة دنسين عن مكانها ، وقد حسب هذا كله ضرباً من المحال ، ولكن جنود مالكولم يقتلعون أشجار الغابة ويتحركون من ورأها إلى ساحة القتال ويعان مالكولم لما كبث فى النزال الأخير أنه لم يولد ولادة طبيعية وإنما ولد بعملية قيصرية . وهكذا تنهى مأساة هذا القائد المغوار الطيب النبيل الذى لا نعرف إن كان داعيه إلى السقوط صوت القدر على ألسنة

الساحرات أم صوت زوجته الضارية ليدى ما كبت ذات القلب المعتم
والعقل المسموم ، أم جرثومة الفساد اليفينة فى قلب كل حى ولو كان
أشرف الشرفاء .

فماذا فعل يونسكو بهذه القصة وكيف أعاد صياغتها ؟

لقد طمس يونسكو شخصيات هذه القصة ودوافعها دون أن يطمس
معالمها الرئيسية ، وحوّلها من مأساة تصور محنة الإنسان المجيد الذى يتحرك
كالدمية وسط زعازع القدر العاتى إلى مأساة كل أشخاصها من الأوغاد
الذين لا يعرفون من النوازع إلا الساب والنهب وشهوة السلطة والشكوك
المسمومة . فلم يعد الملك دنكان كما صورته شكسبير « معبد الله المقدس »
رمز حق الملك الإلهى ، بل غدا عاهلاً جباناً رعيدياً لا يقوى على مواجهة
أعدائه . مواجهة الفرسان ، بل يستخدم الغير لقتال معاركة . فلا هم
لدنكان إلا نهب أموال نبلائه والتآمر عليهم قبل أن يتآمروا عليه .
فند اللحظة الأولى نعرف من المتمردى كودور وجلاميس أن الملك دنكان
يفرض على كل منهما جباية سنوية قدرها عشرة آلاف جواد وعشرة آلاف
جندى وعشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير
إلخ . ومع كل هذا ألف بنت عذراء لفراشه (تماماً كالملك شهر يار !)
ومن أجل هذا يتفق كودور وجلاميس على الثورة على هذا الملك
الغاشم واقتسام عرشه من بعده لتخليص البلاد من طغيانه ، إنهما رجل واحد
ورأيهما رأى واحد . إنهما يتكلمان كالصوت وصداه . ويقسم كل منهما
على سيفه أن يكون وفيّاً لأخيه .

وهكذا يتحرك جيش كودور وجيش جلاميس عند الفجر للجمع
 دنكان ، فيهب ماكبث وبانكو للدفاع عن الملك وتكون معركة ضارية
 بين المعسكرين يهلك فيها الألوف والألوف . كذلك كان ماكبث
 وبانكو كأنهما رجل واحد لهما رأى واحد يتكلمان كما يتكلم الصوت
 وصداه ، وعندما نرى كلا منهما على انفراد في جانب من ميدان القتال
 نسمعه يردد نفس الكلام : عبارات التفاخر بما كدس من جثث القتلى
 بين صفوف العدو : « إن نصل حسامى خضيبته الدماء ، بيدي هاتين
 قتلت العشرات والعشرات . قتلت المئات والمئات من الضباط والجنود
 الذين لم يؤذوني في شيء . ومثلهم أعدمت المئات والمئات رمياً بالرصاص .
 والألوف والآلاف ماتوا ، حرقوا أحياء في الغابات التي اعتصموا بها ،
 فأضرمت فيها النيران . عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال
 ماتوا محتنقين داخل الكهوف وتحت أنقاض منازلهم التي نسفها .
 مئات الألوف ماتوا غرقى في بحر المانش حين استولى عليهم الدعر
 فأرادوا عبوره . والملايين ماتوا أو انتحروا من الرعب . وعشرات الملايين
 ماتوا من الغضب أو من الفالج أو من الحزن . لم تعد في البسيطة أرض
 تكفى لدفن كل هؤلاء الموقى . وانتفخت جثث الغرقى بكل الماء في
 البحيرات فلم تعد في البحيرات مياه . ولم تعد هناك نسور تكفى
 لتخليصنا من كل هذه الرمم .. إلخ » . وكل هذا فعله ماكبث دفاعاً عن
 مليكته المنهدى ، حفظ الله حياته . وحين يجىء دور بانكو نجده يلقي
 نفس هذا المونواوج المضحك الذى أراد به يونسكو أن يسخر من

« فشر الأبطال الصناديد » ، يلقيه بحذافيره .

* * *

وفي مكان أمين نرى الملك دنكان والملكة زوجته يرقبان المعركة على البعد . ودنكان واجف القلب يسأل كل ضابط أو جندي يمر به : من المنتصر ؟ ترى ماذا يحدث لو انتصر كودور وجلاميس ؟ وتقول الملكة التي يسميها يونسكو الليدي دنكان : « إذن تلبس أنت دروعك وتخف إلى القتال » ، ولكن للملك رأياً آخر . أو أنهم ما كبث وبانكو فيجب أن يختبي . ولكن أين يختبي ؟ إن أعداءه في كل مكان : ملك مالطة ، إمبراطور كوبا ، أمير البليار ، ملوك فرنسا وإيرلندا كلهم أعداؤه . وأعداؤه بلا حصر في بلاط ملك إنجلترا . (هنا يخيل إليك أن يونسكو لا يتحدثنا عن دنكان وما كبث وبانكو أيام الأنجلو سكسون ، وإنما يحدثنا عن شيء شبيه بحكام العالم الحديث) : « الحيلة أم الحكمة » ، هكذا يقول . إنه سيفر غالباً إلى كندا أو الولايات المتحدة حاملاً خزانة مائة بالذهب (هنا نتذكر ما حدث لدالاديه أو لبول رينو الذي فر بعد هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ إلى أمريكا بعد أن شحن ذهب الخزانة الفرنسية . حتى غرق المانش بذكروننا بما كان في دنكيرك) . وبالطبع نضحك لأن أمريكا وكندا لم يكن لهما وجود أيام دنكان وما كبث وبانكو .

* * *

ولا يخرج دنكان من هذا القلق على مصير المعركة إلا بأن يقول

لياوره : « ابق أنت إلى جواري لتدافع عني إذا اقتضى الأمر (مخاطباً ليدى دنكان) أما أنت فهيا بسرعة . خذي جواداً وامضي إلى الجبهة وعودي إلى بالأخبار ، ومع ذلك لا تقتربي أكثر من اللازم . أما أنا فسأحاول أن أرى ما يجري بالمنظار المعظم » . إن هذا الدنكان يختلف كثيراً عن « معبد الله المقدس » الذي حدثنا عنه شكسبير ! ملك جبان لا يستحي أن يعرض زوجته للخطر لينجو من المهالك .

وبعد لحظات تسمع صيحات الانتصار . لقد انتصر ماكبث وبانكو على كودور وجلاميس . لقد وقع كودور في الأسر أما جلاميس فهو محاصر بعد أن تمزق جيشه . ويخطب دنكان خطبة عصماء يشكر فيها قواده وجنوده البواسل الأحياء منهم والأموات الذين أنقذوا العرش والوطن ، ويتحدث عن مقبرتهم ، مقبرة الخلود ، في أبينال (وهنا نحس أن دنكان يتحدث عن مقبرة الجيش الأمريكي الرهيبة في بلدة أبينال بفرنسا التي تضم عشرات الآلاف من قتلى الحرب العالمية الثانية) فكأنما هو يريد أن يقول إن كودور وجلاميس هما هتلر وموسوليني . وإن ماكبث هو أمريكا وبانكو هو روسيا أما الملك دنكان والليدى دنكان فهما بريطانيا وفرنسا .

* * *

وفي حفلة رسمية يتم إعدام كودور وأتباعه في حضور الملك والملكة . .
آلاف مؤلفة يموتون على المتصلة في حين أن الليدى دنكان يأزونها بفوطة
وطست وقطعة صابون وماء الكولونيا وهي جالسة مع وصيفتها إلى جوار

ماكبث القائد المنتصر تعد الرعوس الهاوية بلذة عظيمة ، وتغسل يديها كأنما تريد أن تزيل بقعة الدماء التي لحقت بيدها كما كانت تفعل الليلى ماكبث فى شكسبير . أما كودور فقبل أن يفصم رأسه نسمعه يقول : « على الأقل فليكن مصيرى عبرة للجميع والأجيال القادمة . لا تتبعوا إلا الأقوى . ولكن المشكلة هى : كيف نعرف من الأقوى قبل المعركة ؟ فليقف أكثركم موقف المتفرج من المعارك ، أما الباقون فليتبعوا الأقوياء ، فمنطق الأحداث هو المنطق الوحيد الصحيح » .. ويشغل بانكو بهمة بفصم الرعوس عن الأجساد . كل هذا والليلى دنكان الجلوسة بجوار ماكبث تلتصق به فى نشوة حسية وتعاكسه بقدمها وتغمز له بعينها فتلهب فيه غلومة الاشتها . ويعلم الملك دنكان أنه بعد موت كودور يمنح لقبه ونصف أملاكه المصادرة لماكبث ، وحين يموت جلاميس سوف يكون لقبه ونصف أملاكه المصادرة من نصيب بانكو ويؤول النصف الباقى من الأملاك إلى العرش . غير أن رسولا يأتى بنياً فرار جلاميس المحاصر ويصاب بانكو بخيبة أمل شديدة . إن المعركة لم تنته ، ويجب أن يبدأ كل شىء من جديد .

* * *

غير أن ماكبث على الأقل خرج بشىء من كل هذا ، وهو اقترابه من الليلى دنكان الفاتنة اقتراباً شديداً ، وعلى البطاح نرى ماكبث يستعد من جديد لمطاردة جلاميس ، ومن بعده نرى بانكو . وهب عاصفة هوجاء تظهر فيها الساحرات كما فى شكسبير ، ولكنهن ساحرتان .

لا ثلاث ، كما في شكسبير ، وتعلم الساحرتان لماكبث أن الملك دنكان قد أنعم عليه بلقب جلاميس بعد لقب كودور لأنه غاضب على بانكو الذى يعده الملك مسئولا عن قرار جلاميس . ثم تفضيان لماكبث المشدوه بأن القدر قد كتب له أن يجلس على عرش دنكان ويتوج ملكاً على أسكتلندا . ويحاول ماكبث أن يطرد الساحرتين اللعيتين لأنهما توحيان إليه بخيانة ملكه ، ولأن لدنكان ورثين هما مالكولم ولى العهد الذى يتم علومه فى قرطاجة وأخوه دونالين الذى يدرس فى راجوز (وهى الاسكندرية قبل الاسكندر) للحصول على دبلوم فى الاقتصاد والعلوم البحرية ! غير أن الساحرتين الشمطاوين لا تلبثان أن تتحدثا إلى ماكبث بصوت رخيم يذكره بصوت الملكة . ليدى دنكان ، ووصيفتها . فتشتد حيرته . وبرغم مقاومته هذا السحر الرجيم نحس بأن لونا من السم اللذيذ ، سم الغواية ، قد بدأ يسرى فى أوصاله .

نفس المشهد يتجلى أمام بانكو . تتجلى له الساحرتان تالقنانه بأن منافسه الخطر هو ماكبث الذى أختصه الملك بلقب جلاميس بعد أن أنعم عليه بلقب كودور ، ولكن الملك الجشع قد قرر أن ينعم بالألقاب من دون الأملاك . الأملاك له والألقاب لماكبث . ومع ذلك فالقدر قد كتب لبانكو أن يكون أباً لسلسلة طويلة من الملوك يجلسون ألف عام على عرش البلاد .

* * *

وهكذا تبذر الساحرتان بذور الفتنة فى قلب ماكبث وقلب بانكو

فتؤلبان كلا منهما على الآخر ، وتؤلبان كلا منهما على ملكه . أما منطقيهما فبسيط ، لأنه مستمد من الواقع . إن الملك دنكان لا يستحق كل هذا الوفاء ، لأنه ملك جبان وجشع وغدار . هو لا يقاتل أبداً وإنما يجعل الغير يقاتل له معاركه . هو لا يخدم أحداً ولكنه يجعل الكل يخدمونه . كل الناس أدوات في يديه ، وهو يكره الأقوياء ويغار منهم . إنه سخر ماكبث وبانكو للفتك بكودور وجلاميس لأنهما كانا من الشجعان . وهو يضمم لقائديه المنتصرين الموت لأنه يخشى ارتفاع نجمهما . إن دورهما آت لا محالة . إن كل ما يفكر فيه دنكان هو المحافظة على عرشه وامتلاء خزائنه . إنه ملك ظالم . والقدر قد كتب لماكبث أن يجلس على عرش دنكان لأن ماكبث رجل عادل ، لأن ماكبث سوف ينشر السلام وينصف الفقراء في هذا البلد الشقي الممزق الذي لم يعرف السكينة ولا العدل قط . كذلك كتب القدر لبانكو أن يكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك .

وماكبث لا يصدق أذنيه . لقد كان في الماضي يخشى أن تظهر له الساحرتان ، أما الآن فهو يدعوهما للظهور ، ويستمع إلى حديثهما العجيب في مزيج من الوجع والارتياح ، ويناجيهما . وحين سأل ماكبث الساحرتين عن سر حرصهما على سعادته يأتيه الجواب بصوت رخيم متمم : « لأننا نحبيك يا ماكبث ، « لأننا نحبيك يا ماكبث » ، هكذا تقول الساحرة الثانية عن الساحرة الأولى . ويخيل لماكبث أنه يعرف هذه الأصوات الرخيمة ، فهي ليست غريبة عنه ويناشد ماكبث الساحرتين

أن تكشفنا له حقيقتهم، بل يسلم سيفه مهدداً أن يمزقهما إذا لم تعلمنا له ماذا تكونان .

وهنا تبدو الساحرتان الشمطاوان في مشهد من السحر الأسود ترددان فيه عبارات باللاتينية من سجع الكهان ، عبارات مؤداها « اظهر و بان عليك الأمان » ، ثم تستويان وتتحركان في خفة ورشاقة . ثم تنزع كل منهما قناعها فإذا بهما الملكة الفاتنة الليدى دنكان ووصيفتها الجميلة . ثم تجذب الوصيصة رداء الملكة الفاتنة فإذا به يسقط تماماً عن جسدها الفاتن ، وتقف الليدى دنكان عارية لا يسترها على المسرح إلا بيكيني . ويسقط ماكبث على ركبتيه صائحاً . « يا صاحبة الجلالة !! » ثم يضيف : « إني أرى معجزة ! » فتجيبه الوصيصة : « بل أنت ترى على الطبيعة » . وعلى كنفى الملكة العارية رداء الملك الأرجواني وفي يمينها خنجر تقدمه لماكبث قائلة : « هيا اقتله . اقتل الملك واجلس على عرشه أكن لك وتكن لى ! هيا بنا نبني معاً مجتمعاً أفضل ، عالماً سعيداً جديداً » وبعد تردد حائر يتقدم ماكبث ويتناول من يدها الخنجر ، والوصيصة تصيح « الحب قهار ! الحب قهار ! » ، ثم يلف الظلام كل شيء .

* * *

وهكذا جعل يونسكو من الساحرة الملكة ، ليدي دنكان ، ومن الملكة ليدي ماكبث ، وجعل من الثلاث شخصية واحدة هي شخصية « المرأة » أو « حواء » رسول الشيطان ، بالسحر والفتنة تستدرج أنبل الرجال إلى الخيانة والجريمة والمنية . وهذا هو الحديد في يونسكو ،

أو ما أضافه إلى شكسبير : إن ليدى ماكبث الشهيرة التي دفعت زوجها العظيم إلى اغتيال مليكه واغتصاب عرشه والحوض في بحار من الدماء هي نفس الساحرة التي تجلت له في البرارى لتقنعه بأن القدر هو الذى رسم طريقه إلى الخيانة والجريمة ، وهى نفس الملكة التي استدرجت هذا القائد المغوار لتتخلص من زوجها الملك . ومع ذلك فنحن مع يونسكو لا ندين المرأة وحدها ، لأننا نتحرك معه بين رجال أوغاد مهما بدت عليهم سمات الشجاعة والرجولة . ملك فاسق وقواد جشعون وكل امرئ يكيد لأخيه ، والمرضى فى قلب « الإنسان » لا فرق فى ذلك بين النساء والرجال .

* * *

وينطلق بانكو إلى الملك دنكان ليجادله فى وعوده التي حثت بها . إنه وعده بلقب جلاميس يوم يؤتى به حياً أو ميتاً ، والآن وقد مات جلاميس غرقاً ها هو ذا يمنح لقبه لماكبث . ويجيب دنكان بأنه لا يملك دليل وفاة جلاميس . « جئنى بالحيثة » . ولكن الحيثة طفت على البحر . « خذ زورقاً وابحث عنها » . ولكن سملك القرش أكلها . « خذ سكيناً وابقر به بطن القرش » . إن الملك يسخر منه . وهو الذى فتك بأعداء الملك . ويجيب دنكان : « لقد وجدت متعة فى الفتك بهم » لقد كدت أفقد حياتى من أجلك . « ولكنك لم تفقدها » . باختصار أن الملك لا يقدم حساباً لرعاياه عن تصرفاته . وعند خروج بانكو يهيمهم دنكان فى أذن ياوره : « كان ينبغى أن أعطيه اللقب ، ولكنه يريد الأملاك أيضاً ،

وهي حق يتول للتاج . ومع ذلك قال غدا بانكو خطراً يجب الحذر منه .
 منتهى الحذر» . ثم يضيف في إيجاء . « ألا ترغب في لقبه ونصف أملاكه ؟
 أقصد لو غدا خطراً ؟ » إن الياور يفهم الإيجاء وتلمع عيناه فرحاً ،
 وهنا يضيف الملك : « ما كبت أيضاً قد غدا خطراً . ربما كان يطمع
 في الجلوس على عرشي . يجب الحذر من كل هؤلاء الناس . إنهم
 من رجال العصابات . كلهم . كلهم . إنهم لا يفكرون إلا في المال ،
 في السلطة ، في الترف . وما كبت بالذات ، لا يدهشني أنه يطمع
 في زوجتي أيضاً وفي محظياتي بطبيعة الحال » .

* * *

هذه إذن كانت أسس الملك في بلاط الملك دنكان . حتى زوجته
 الملكة قد تألبت عليه . وهكذا تفرخ المؤامرة الثانية على عرش اسكتلندا .
 بتمتهى الحذر يتكاشف ما كبت ودنكان . ويبدأ بينهما حوار يذكرنا
 بحوار كودور وجمالهيس . إن الملك طاغية . إنه يجبي من كل نبيل
 في بلاطه كل سنة عشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف جواد وعشرة
 آلاف مقاتل وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير ، وألف بنت عذراء
 لفراشه . إنه طاغية وينبغي سحقه . وتكون المفاجأة عندما يعلن ما كبت
 لبانكو أن الملكة ، الليدي دنكان ، طرف ثالث في المؤامرة . ويتعاهد
 الثلاثة على الفتك بالملك ، وتقدم الملكة هذا الشعار : « نعيش معاً أو
 نموت معاً » .

ويحل يوم التنفيذ ، وهو يوم شفاء المرضى ، فالملك بقوته الإلهية أو بحق

الملاوك الإلهى ، يحجج إليه كل عام موكب المصايين بالكساح وبالخدام وبالصرع وبكل وبيل من الأمراض عجز الطب عن شفائه ، وهو يشفيهم بلمسة من يده . وتم المراسم كالعادة فى حضور الكاهن ، وما إن ينصرف المرضى إلا اثنين ، حتى ينزع الكاهن غطاء رأسه فإذا هو بانكو مستخفياً فى زى راهب . كذلك ينزع آخر مريضين أسماهما فإذا بهما ماكبث والملكة ، ويتجمهر القتلة الثلاثة على الملك ويصرعونه بخناجرهم . وتلقى الملكة نظرة التأمل على جثة الملك المسجاة عند قدميها وتقول : « برغم هذا فقد كان زوجى . والآن أراه ميتاً فأحسبه يشبه والدى ، لقد كنت أكره والدى » .

* * *

وفى الخارج تهتف الجماهير : « عاش ماكبث ! عاشت الليدى ماكبث ! » إن كل شىء قد أعد لتتويج ماكبث وزفافه إلى الملكة . نعم . اليوم تصبح الليدى دنكان الليدى ماكبث . وتأكل الغيرة قلب بانكو . فهكذا آل كل شىء إلى ماكبث : التاج وألقاب النبلاء وأملاكهم ، وأخيراً يد الملكة الفاتنة . أما هو فقد خرج من هذه الصفقة بخفى حنين . إنه حزين ينهشه تأنيب الضمير . ومع ذلك فعزأؤه الباقى هو نبوء الساحرات بأنه سيكون أباً لأسرة عظيمة من الملاوك يحكمون البلاد ألف عام . فليكن . ولكن لكى يكون بانكو أباً لا بدله أولاً أن يتزوج . وهل هناك أنسب له فى الجمال والمقام من وصيفة الملكة ؟

ويسمع ماكبث بانكو التعس وهو يناجى نفسه على هذا النحو

ففيحتاج امتياجاً عظيماً . أمن أجل اخلاف بانكو قتل ماكبث مولاه ،
ونخان عهد الولاء للعرش ؟ إن بانكو سادر في أحلام لن تتحقق ولو
أرادت ذلك الساحرات . لسوف يموت ، فتموت معه ذريته إلى أبد الآبدين .
ويطعن ماكبث بانكو طعنة ترديه قتيلا .

* * *

لم يبق إلا أن تزف الملكة إلى ماكبث ملكاً لتصبح الليدى ماكبث
وهنا نرى مشهداً عجيباً . نرى الليدى ماكبث ووصيفتها وقد عادتا إلى
القصر الملكي بعد مراسم الزفاف تعدان في عجلة حقائب السفر . إن
ماكبث قد شرب في حفل الزواج حتى ثمل ، وهو الآن يغط في
نومه . وتقذف الليدى ماكبث بالتاج على الأرض وهي تصرخ :
فليذهب هذا التاج المقدس إلى الجحيم ، ثم تقذف بعقدها المتدلى حول
عنقها وبه صليب يحرق صدرها . ثم تخلع ثوب الزفاف الأبيض وتقذف
به لأنه يذكرها بالطهارة والنقاء . وتلبس ليدي ماكبث جلباب الساحرة
القدر البغيض المنظر . ثم تنزع عنها شعرها الفاتن وتلبس مكانه شعر
الساحرة الأشيب المنفوش ، ثم يتغير وجهها وينحني ظهرها فإذا الملكة
الليدى ماكبث تتخذ من جديد صورة الساحرة الشمطاء . وهذا بالضبط
ما يحدث لوصيفتها ، إنهما لم يعد لهما عمل في هذا المكان . لقد رتبنا
كل شيء وأفسدنا كل شيء . ويجب أن ترحلا على وجه السرعة . إن
سيدهما (الشيطان) لا شك سعيد بما جلبتا من دمار ودماء في القصر
الملكي ، وهو بحاجة إليهما ليوفدهما في مهمة جديدة . وهكذا تحمل

كل عكازها وتمتطي حقيبتها وتطير في الهواء وكأنها تمتطي موتوسيكلًا تكون له قعقعة مزعجة ، أو تبسط ذراعها في الهواء وتطير وكأنها النسر الطائر .

* * *

وفي قاعة العرش ينتظر الملك ماكبث الملكة ليدى ماكبث وحوله ضيوفه الذين أقبلوا لمأدبة الزفاف في قاعة العرش . ويكون انتظاره طويلاً ، ويبدو ماكبث في حالة اضطراب عظيم ، فيخيل إليه أن الصورة الملكية المعلقة في القاعة ليست صورته ولكن صورة الملك القتيل دنكان ، ويتجلى له شبح بانكو فيشتد هياج ماكبث . وأخيراً يتجلى شبح الملك القتيل دنكان ويسير في تودة إلى عرشه ويجلس عليه . فيفزع الحاضرون ويحثون أمامه . ويقول شبح دنكان لماكبث : نعم ، أنت قتلتني لأنني كنت طاغية أقتل الآلاف وأبهد القرى وأظالم الرعية . كل هذا صحيح وأعترف به ولكن هناك شيئاً واحداً كاذباً في كل ما تقواه عني . لقد أخذت تاجي ومملكتي ومالي بسلطاني ، ولكنك لم تأخذ زوجتي كما تظن ويبدو هذا مثل كلام المجانين . ولكن سرعان ما يتبين أنه الحقيقة نفسها . لأن شبح دنكان يختفي وتدخل من بعده الملكة . تدخل بلا تاج ولا جواهر ولا ثياب من ثياب الملك ، بل تبدو في ثوب بسيط تتبعها وصيفتها . وينهض الحاضرون لاستقبالها ويهتفون بحياتها . بحياة ملكتهم المحبوبة اللیدی ماكبث . فتقول الملكة في تودة : صمتاً . . محبوبة أو غير محبوبة ، أنا لا أزال ملكتكم . ولكني لست اللیدی ماكبث كما تتوهمون

بل أنا الليدى دنكان أرملة . ملككم الشرعى القتيل .

* * *

ويظن ماكبث والحضور أن المرأة مسناً من الجنون ، لأنهم حضروا حفل زفافها إلى ماكبث ، ولكنها تفسر لحم كل شىء ، لقد جاءتها الساحرتان وسجنتاهما فى قبو القصر الملكى مع وصيفتها ورماتها فى الأغلال ، وأخذتا من كل هيئتها وصوتها ، وإن من رآه الناس فى الكنيسة يزف إلى ماكبث لم يكن الملكة بل كان الساحرة تتبعها صاحبها الشمطاء ، إنها تعلم كل شىء عن مقتل زوجها ومقتل بانكو وكل ما كان من اغتصاب عرش البلاد .

ويضطرب الحاضرون فيمتفون أنا بحياة ماكبث ويمتفون أنا بحياة ملكهم الحزينة ، ويشتد هياج ماكبث فيطردهم من قصره ليبقى وحده فى مواجهة الليدى دنكان التى تقول له هازئة : « لن تخرج من هنا . لن تحكم البلاد . لأن الفتى مالكولم ولى العهد الشرعى قد جاء من قرطاجة على رأس جيش عظيم ليسترد عرش أبيه . إن البلاد كلها قد تألبت عليك وتخلي عنك أصدقاؤك » .

ويدخل الفتى مالكولم شاهراً حسامه ، ويكون نزال بينه وبين ماكبث يسفر عن مصرع ماكبث وانطواء صفحته ، هذا الذى تنبأت له الأقدار بأنه لن يهزمه رجل ولدته امرأة . وقد كان الفتى مالكولم حقاً هذا الرجل الذى لم تلده امرأة ، فحين يروى علينا قصته نعلم أنه ليس ولد دنكان من صلبه بل ولده بالتبني ، لأن الليدى دنكان كانت

عقيماً لا تنجب . إنه ولد بانكو من غزالة مسحورة في صورة امرأة ،
وقد ارتدت أمه غزالة قبل ولادته . وحملته الليدى دنكان إلى القصر
الملكى وزعمت أنه وليدها ليرث العرش . إنه قد جاء ليثأر لأبيه الحقيقي
(بانكو) ولأبيه بالتبني (دنكان) وليجلس على عرش البلاد . إنه بانكو
الثاني ، وسوف يكون هناك بانكو الثالث وبانكو الرابع وبانكو الخامس
وبانكو السادس وعشرات غيرهم . وهكذا تحققت النبوءة .

وعندما يجلس بانكو الثاني على العرش تحسب الرعية أن عهد الطغاة قد
انتهى ، ولكن الملك الجديد يبدد أحلامهم . إنه لم يأت ليحقق أوهمهم في
العدالة والرخاء ، في الفضيلة والسلام . إنه جاء ليحكم رعاياه الحمقى
الأوغاد الجبناء بالنار والحديد . لسوف يصادر كل أملاكهم . لسوف
يضاجع كل نساءهم . لسوف يسترق كل رقابهم . لسوف يبدو ماكبث
الأسود اللعين ملاكاً نوارنياً بالقياس إليه . لسوف يجعلهم يترحمون على
أيام ماكبث !



في النساء والرجال

بعد أن شاهدت في باريس تجربة يونسكو الجديدة ، حول موضوع « ماكبث » ، شاهدت مسرحية جديدة للكاتب الأمريكي إدوارد ألي أسمها : « كل ما في الحديقة » ، وهي مقتبسة عن مسرحية لكاتب مسرحي توفي حديثاً ، اسمه جايلز كوبر ، وقد أعاد ألي صياغتها . والعنوان نفسه مقتبس من عبارة معروفة هي : « كل ما في الحديقة ورود » . والذي شاهدته طبعاً في مسرح ماتوران هو الترجمة الفرنسية لمسرحية ألي الجديدة ، وليس نصها الإنجليزي .

وقد وصلت إلى مسرح ماتوران ، وهو مسرح تديره أرملة هاري بور الممثل العظيم ، قبل ارتفاع الستار بنصف ساعة ، فذهبت أتسكع أمام واجهته ، وفي بهو مدخله أقرأ الإعلانات الجسيمة المعلقة على جدرانه ، وهي تعلن عما سبق لهذا المسرح أن قدمه من مسرحيات وما سوف يقدمه في المستقبل القريب ، فوجدتها قوائم ممتازة من مسرحيات الطليعة كأعمال أداموف وأرابال ومرجريت دورا إلى الكلاسيكيات اليونانية مثل « أليكترا » سوفوكليس إلى الروائع التقليدية مثل بعض أعمال شكسبير وجوجول وتشيكوف وبيرانديلو وكونجرريف إلخ .. ولكنني وجدت بينها مسرحية أسمها « الرجل الذي فقد ظله » : « مسرحية من ثلاثة فصول تأليف

بول جياسون ، مستوحاة من قصة شاميسو ، فضحككت لأني تذكرت الصديق فتحى غانم وروايته . المعروفة . ولما كنت لا أعرف من شاميسو هذا ، رأيت أن أذكر هذه الواقعة لأنها قد تمهم الصديق فتحى غانم أو تسرى عنه .

وقد وجدت مسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » وردة سوداء من ورود الشر ، برغم أنها نموذج ممتاز من المسرح الواقعى الحديث ، بلا شعر ولا رمز ولا أسطورة ولا خيال . أو فلنقل على الأصح إنها نبات جميل مسموم من تلك النباتات الحميلة المسمومة الكثيرة التى أينعت فى الوجدان المعاصر لأنها تصور كل النساء وكأهن بغايا وكل الرجال وكأنهم قوادون . والذى يخنف قليلا من ظلامها أنها لا تدعى أنها تتحدث عن الطبيعة البشرية وتنسب إليها هذه الخصائص ، وإنما تتحدث عن الناس فى المجتمع المدنى المعقد فى القرن العشرين ، أو بتحديد أدق فى الحضارة البورجوازية المعاصرة . متمثلة فى الحضارة الأمريكية . فالمسرحية إذن فى حقيقتها هجاء فظيع للحضارة الرأسمالية الغربية التى تنتج مثل هذه النباتات السامة المسمومة .

ومسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » تدور حول موضوع مألوف ، وهو تصوير حياة أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة الصغيرة فى بلدة أمريكية صغيرة . وأعضاء هذه الأسرة ثلاثة هم الأب (ريتشارد) ، وهو موظف دؤوب مستقيم تجاوز الأربعين مؤمن بكل الفضائل التقاليدية ، وزوجته الحميلة الفاضلة المحبة له المتفانية فى الإخلاص له (جينى) ، وهى فى نحو الخامسة

والثلاثين ، ثم ابنيهما الغلام الذي يدرس في المدرسة الثانوية وقد اقترب في دراسته من إتمام شهادة البكالوريا .

غير أن هذه الأسرة الصغيرة النموذجية ، لأنها نموذجية ، وقعت في حائل النظام الاقتصادي الاجتماعي الأمريكي كغيرها من ملايين الأسر ؛ فهي قد أقامت عمادها على أساس الاقتناء بالتقسيم المريح الذي بغيره ينهار الاقتصاد الأمريكي والصناعة الأمريكية . فالزوج قد اشترى فيلا جميلة مريحة لها حديقة جميلة مريحة ، واشترى أثاثاً جميلاً مريحاً وسيارتين جميلتين مريحتين : إحداهما لشخصه ، والأخرى لزوجته ، كما اشترى كل الأدوات الكهربائية اللازمة من ثلاجة ، وغسالة ، وتكييف .. إلخ ، مما تقدمه الصناعة الحديثة . كل ذلك اشتراه الزوج بالاتفاق مع زوجته على أساس التقسيم المريح . وبالتالي فأكثر دخله ، وهو دخل متوسط ، ينفق شهرياً في سداد أقساط البيت والسيارة والثلاجة والغسالة .. إلخ ، في اليوم الأول من كل شهر ، ثم يعيش الزوجان في ضنك شديد بقية الشهر . وقد دامت هذه الحالة سنوات وسنوات لأن كل ما يسدد ثمنه يبلى ولا بد من تجديده ، والفلسفة التي تقود هذه الأسرة الأمريكية المتوسطة ، كما تقود ملايين الأسر الأمريكية المتوسطة ، هي المحافظة على ما يسمونه « المركز الاجتماعي » ، وعلى « المظهر المحترم » بين الأقران والجيران والمعارف ، ولذا فهي تحتل هذا الضنك في صمت نبيل سنوات طويلاً يبدو أنها بلا نهاية في سبيل المظهر والمركز . ولكن الغلام الوحيد يكبر ويصبح فتى ويقرب من دخول الجامعة

وتكثر نفقات تعليمه ونفقاته الشخصية ، والأسرة حائرة في الأمر ، لأنها مهددة بسبب حياة الشظف التي تعيشها أن تقطع تعليمه وتدفع به إلى العمل في سن باكر ، وهو مصدر شقاء عظيم للأب والأم . ثم إن حشائش الحديقة الماثثة ، كان الأب يشذبها ويسويها بالمقص سنوات وسنوات وهو الآن يتقدم في العمر ويحلم بما كينة كهربائية تسوى له حشائش حديقته الجميلة وتموفر له عناء العمل اليدوى ، وهو لا يجد ثمن هذه الماكينة .

وفي لحظة من لحظات التشاكي المنزلى بين الزوج والزوجة من ضيق الحال والخزع على مستقبل ابنهما يتفقان على أنه لا حل لكل هذه المشاكل إلا أن تخرج الزوجة للعمل لتكسب بعض المال الذى يمكن الابن من الاستمرار فى كليته ويأتيهما بقصافة الحشيش الكهربائية ويدخل بعض الراحة على حياتهما اليومية . غير أن هذا يثير مشكلة من نوع جديد ، فالزوجة الجميلة الفاضلة الأنيقة ، كأتى بنت من بنات الطبقة المتوسطة لاتتقن أى عمل من الأعمال لأن أسرتها نشأتها على أن تكون « ست بيت » وأما للأطفال وكفى . وأخيراً يستقر رأيهما على أن العمل الوحيد الذى تستطيع الزوجة القيام به هو أن تعمل كمضيفة حيث لاتطلب من المرأة أية خبرات خاصة إلاحسن المظهر وحسن الاستقبال وآداب الساوك ، وهذه كلها متوافرة فى هذه الزوجة . ولا يحس بمتعاب هذه الأسرة الداخلية إلاشباب صديق للأسرة اسمه جاك ، وهو مليونير بالوراثة ، ولكنه سكير متلاف لا يفيق من

الشراب ، ويقضى حياته بين النوادي والنوادي الليلية ، وهو لكثرة ماله لا يعرف للحياة طعماً ولا معنى ، فحياته كلها يوم بلا غد ، يغلفها يأس يائس ، وهو يحاول أن يبدد هذا الصراع الكامل بالانغماس في الملذات وكثرة الترحال والسير سيرة العاطلين بالوراثة ، وهو أعزب بلا عمل ولا أمل . وربما كانت فيه بعض ملامح من الشذوذ الجنسي . وهو يقتنى العشيقات ويهملهن كما يقتنى الكرافات ويهملها . ومع ذلك لم يحاول أبداً أن يغوى الزوجة جيني لأنه كان يحترمها ويحبها حباً بريئاً لا يريد أن يفسده ، فهي عنده كل ما بقي في مجتمعه الصاحب من ملامح الفضيلة الفطرية والبساطة الطبيعية . وكان لا يخفى عنها عواطفه الحقيقية بدون مبالغة ، ويقول لها دائماً إنه عندما يموت سوف يترك لها في وصيته ثلاثة ملايين دولار ، فتكون دعابة لطيفة تسر بها جيني ويسر بها الزوج ريتشارد لأنهما يصرفانها على أنها من مزاح الكلام . وما إن ينصرف حتى يعود ريتشارد وجيني إلى التشاكي حول ضنك الحياة وضرورة خروجها للعمل حتى تستقيم الأمور .

وفيما هما في هذه الورطة تأتي زائرة غريبة في نحو الخمسين لتزور جيني في أثناء غياب زوجها في عمله ، وتقدم نفسها لها على أنها مسز كريكييت . وتبدأ مسز كريكييت كلامها بقولها إنها عرفت أن جيني تبحث عن عمل ، وإنها قد جاءت لتساعدها في ذلك . وتذهل جيني لأنها لم تفض لأحد بمتاعها أو نواياها . فتطمئنها مسز كريكييت بقولها إنها تعرف كل شيء عن كل الناس فهذه مهنتها . إنها تعرف أن جيني

لا تتقن عملاً بالذات ، ولذا فهي تستطيع أن ترتب لها أن تعمل كمضيفة وسوف تجد أنه عمل مجز . ومسز كريكييت امرأة عمالية باردة الصوت حاسمة العبارات والنبرات ، ودائماً تدخل مباشرة في الموضوع . وتخرج من حقيبة يدها رزمة من البنكوت ، ألف دولار ، قائلة : خذى هذه دفعة أولى تحت الحساب . وتجار جيني فيما تسمع وما ترى ، وتحملان في رزمة الدولارات . ما هذا ؟ ما كل هذا ؟ أى عمل هذا الذى يدر كل هذا المال ؟ إنها تشبهه في مقاصد هذه المرأة الغربية الصارمة الملامح والعبارات . وترفض طبعاً أن تأخذ الدولارات . لا بد أن هذه المرأة تنصب لها فخاً . ولكن المرأة تلح وتضع الدولارات في يد جيني المدهولة قائلة :

خذى هذا . سوف تحل كل مشاكلك . العمل بسيط . سوف تعملين كمضيفة عندي . أربع مرات في الأسبوع . كل مرة سيكون أجرك مائتى دولار . يعنى ثمانمائة دولار في الأسبوع ، يعنى أكثر من ثلاثة آلاف دولار في الشهر . وقد تصل بالبقيشيش إلى خمسة آلاف دولار إذا سر الزبائن من خدمتك . ما هى مواعيد عمل زوجك ؟ وتجب جيني ذاهلة : كل يوم ويخرج في الثامنة صباحاً ويعود في السابعة مساء . فتقول مسز كريكييت : عظيم . عظيم . عمك من الثالثة للسادسة أربعة أيام في الأسبوع . وتسال جيني في حدة : برغم ذهولها أى عمل هذا ؟ فتجيبها مسز كريكييت : أنت لست وحدك . عندي مضيفات كثيرات . تأتين إلى بيتى في المواعيد المحددة . أنت جميلة

وشابة ومظهرك ممتاز . تستقبلين زبائن من الرجال . أنت تفهمين . رجال
سثموا زوجاتهم . رجال أعمال على سفر . رجال يشكون من الوحدة .
ولكنهم جميعاً ظرفاء .. مهذبون . أنا لا يدخل بيتي إلا صفوة الرجال ،
وبعضهم كرماء للغاية . إذا ارتاحوا إليك غمروك بالهدايا . يمكنك
أن تبدئي العمل فوراً .

وتفهم جيني المطلوب منها : أن تعمل في بيت دعارة . وتثور
ثورة عارئة وتقذف بالدولارات في وجه مسز كريكييت فتتبعثر على
الأرض . وتطردها شر طردة : خذى دولاراتك القذرة واخرجى فوراً
فوراً . وإلا استدعيت البوليس ولكن المرأة تنهض في هدوء وتقول في
صوت بارد : سأضى . على كل حال فكرى في الأمر . هذه بطاقتى
تحمل عنوانى . إذا قررت .. وتقذف جيني بالبطاقة في سلة المهملات
وتصرخ في هيستيريا : اخرجى فوراً أيتها القذرة . اخرجى . وتنصرف
مسز كريكييت . وترنح جيني حول ما سمعت . ثم تسترد هدوءها
درجة درجة . ثم تنحنى على الأرض وتجمع الدولارات المبعثرة في كل مكان
وترتبها ثم تضعها في درج كوهودينو مجاور . وهنا يدخل ابنها لحظة ثم
ينصرف وهي تتأمله ساهمة ينتهبها الحب والجزع . ثم يرق جرس الباب
فإذا به ساع يقدم كميالة من الكمبيالات التقليدية التي تأكل دخل
الأسرة في كل شهر . وبعد أن ينصرف نرى جيني تمشى جيئة وذهاباً
وهي في حالة من الاضطراب الشديد . ثم تميل على سلة المهملات
وتلتقط منها بطاقة مسز كريكييت وتخفيها في حقيبة يدها .

وتمر شهور ، وتبدو الأسرة أكثر رخاء وأقل توتراً ، بل تبدو أعظم
سعادة : الزوج مقبل على زوجته يغمرها بالحب والحنان والزوجة مقبلة
على زوجها تغمره بالحب والحنان . لقد اختلفت متاعب الأسرة منذ أن
بدأت جيني تعمل « كضيفة » والابن (روجر) دخل الكلية في القسم
الداخلي وهو الآن يقضى العطلة مع والديه . ويأتي ساعي البريد ليسلم
للزوج ريتشارد ظرفاً مسجلاً ما إن يفتحه حتى يجد بداخله رزمة بخمسة
آلاف دولار . ويدهش ريتشارد ، فليس هناك خطاب وليس هناك
تفسير لهذه الرسالة ، بل ليس هناك عنوان من مرسل . وتقول جيني
لا شك أنها هدية من صديق . إن ريتشارد لا يعرف صديقاً يمكن أن يهديه
مثل هذا المبلغ الطائل . إذن لا شك أنها مكافأة من رجل أسدى إليه
ريتشارد صنيعاً كبيراً ولكن ريتشارد لا يذكر أنه سدى لأحد صنيعاً
كبيراً . لا شك أن هناك خطأ ما . لا ليس هناك خطأ ما فالظرف يحمل
اسمه ومع اسمه عنوانه ، وهو ليس عنوان شخص آخر يحمل الاسم
نفسه . إنه حائر ، إنه يكاد يجن من الحيرة ، لسوف يعيد المبلغ إلى
مصلحة البريد أو يسلمه إلى البوليس ، وتقول جيني : هذه تكون
حماقة . فالمال في يده ، وكل شيء يدل على أنه موجه له . أياً كان
التفسير فالمال ملك له . لكم كانا يثنيان أن يقيما حفلة كوكتيل يدعوان
إليها جيرانهما الوجهاء مستر فلان وزوجته ، ومستر فلان وزوجته
ومستر فلان وزوجته . ألم يكن يتمنى أن يرى أقرانه حديثته الجميلة
والخازون الجميل الذي يتعب في تصفيفه كل يوم أحد بعد أن اشترى

قصافته الكهربائية؟ ما هي ذى الفرصة قد سنحت وهو يريد إضاعتها .
 ودرجة درجة يقتنع ريتشارد وتغمره الفرحة . إن زوجته على حق .
 ماذا يهم من أين جاءت النقود أو لماذا؟ إنها الآن في يده وهي ملك له .
 لسوف يقيم حفلة الكوكتيل التي طالما تمنى أن يقيمها ويدعو لها الجيران
 والأصدقاء . وهو اليوم يدعوهم بالفعل . فيلبون دعوته ، ويأمر
 بالويسكى والجن والفرموت وكل أنواع الشراب ، فتجيئه ، استعداداً
 لحفله المساء . ومع ذلك تعود إليه الحيرة القاتلة ، فيذهب يرهق زوجته
 بالأسئلة الحائرة ، وهي لا تعرف بماذا تجيب إلا أن تحاول صرف
 تفكيره عن الموضوع ، ويفتح ريتشارد درج الكوودينو مصادفة بحثاً
 عن شيء فيقع بصره على أكداس من آلاف الدولارات مرتبة ومخبأة فيه ؛
 ويخرج من الحيرة إلى الاضطراب . ما هذا؟ من أين جاءت كل هذه
 الدولارات؟ لاشك أن في الأمر سرّاً خطيراً تعرفه جيني وتخفيه عنه .
 وتقول جيني إنها مكاسبها من عملها . غير معقول . أي عمل يمكن أن
 يعود عليها بكل هذه الآلاف . وتقول جيني في احتجاج وبراءة : ولكني
 اشتغلت ستة أشهر ! ستة أشهر أو سنة أو ثلاثة . محال أن تكسب
 مضيئة كل هذا المال؟ لا بد أن تكشف جيني له عن سر كل هذه
 الأموال . وأخيراً تعترف له جيني بالحقيقة . إن مسز كريكيت هي
 السبب . ولكنها تحبه . تعبده . لقد فعلت كل ذلك من أجله . ومن أجل
 ولد هما روجر ليتم تعليمه الجامعي .

ويصاب ريتشارد بهياج كهياج المجانين . ويصنع جيني ثم يصفعها

ثم يركلها ، ويسبها بأفحش السباب : مومس . قدرة . يا للعار ! وهى تتقبل كل ما ينزل بها صاغرة ، ولا تجد ما تقوله إلا أنها تحبه ، وأنها ظنت أنها بذلك تحل مشاكل الأسرة . وبعد أن يفرغ ريتشارد شحنة الغضب العارم ينهار على مقعد وينتحب كالأطفال . ووسط نشيجه يتحدث عن الطلاق . نعم . لابد من الطلاق . وفيما هما كذلك يدخل ابنيهما روجر لحظة ويشهد هذه العاصفة التي لا يفهم سببها . فينسحب . أو تأمره أمه بالانسحاب . ثم تستجمع جيني قواها وتقول : فليكن . ولكن ليتم كل شىء فى هدوء . غداً صباحاً نبدأ إجراءات الطلاق . أما هذا المساء فمالك نفسك . إن الضيوف قد أوشكوا أن يصلوا . تمالك نفسك أمام روجر وإلا حطمته نهائياً .

ويهب ريتشارد من جديد عند ذكر الضيوف ويعود إليه هياجه ، ولكنه لا يلبث أن يقتنع برأيها . سوف يمالك نفسه جملة ساعات حتى يتصرف الضيوف . يا للعار ! بأى وجه يقابل الناس بعد ذلك . ولكن غداً صباحاً سوف ينتهى كل شىء .

وسرعان ما يقبل الضيوف : ثلاثة رجال من وجهاء البحيرة ومعهم زوجاتهم الثلاث كلهن جميلات ورشقات وأنيقات فى أغلى ثياب . ويكون استقبال غريب اختلط فيه المرح المصطنع والعصبية الواضحة ويخرج بهم ريتشارد ليريهم حديقتة الجميلة .

وفى أثناء غيابهم يدق جرس الباب ، وتكون مفاجأة ، إنها مسز كريكييت . وتضطرب جيني وتضرع إليها أن تنصرف لأن بالبيت

زواراً ، ثم إن زوجها موجود . ولكن مسز كريكييت لا تحفل بتوسلاتها بل تأخذ طريقها إلى مقعد وتجلس في استقرار . إنها جاءت في أمر هام : لقد اكتشف البوليس أنها تدير منزلها للدعارة ، وقد يكبسونه بين يوم وآخر ، ولا بد لها من أن تغير مقر عملياتها . وأنسب بيت وجدته لذلك بيت مجاور لمحطة السكة الحديد ، وزوجها بحكم عمله هو الذى يملك أن يؤجره لها . فيجب إقناعه بذلك .

ويدخل ريتشارد وضيوفه بعد أن تفقدوا الحديدية ليجدوا مسز كريكييت . وتحاول جيني أن تسيطر على اضطرابها فتبدأ في تعريف الضيوف بمسز كريكييت ، ثم تكون المفاجأة الجديدة . إذا بمسز كريكييت تقول في لهجة متهمكة : « كيف حالك يا بريل ؟ وأنت يا لوريز ، أرجو أن يكون الصفاء فد عاد بينك وبين زوجك ؟ أما أنت يا سنثيا ، فسأخصم منك مائتى دولار لأنك تغيبت عن عمالك يوم الأربعاء . وهكذا ندرك أن العقيلات الثلاث يعلمان مثل جيني في مشغل مسز كريكييت . ويحملك ريتشارد ذاهلا ، فقد كان يتوقع أن تثور في بيته العواصف الزوجية حين يكتشف الأزواج المخدوعون حقيقة زوجاتهم ، ولكنه يدرك أن الأزواج الثلاثة على علم بكل ما يدري . وتعود إليه نحوه الرجال ويعود إلى هياجه فيسب كل النساء العاهرات والأزواج القوادين ، ويتهم على مسز كريكييت ، ولكن رفاقه يهدئون من روعه ، وأخيراً يقول له أحدهم : اهدأ يا ريتشارد . لا تحسب أننا نختلف عنك في شيء . لقد ثرنا مثلك حين اكتشفنا الحقيقة ، وكدنا

أن نقتل زوجاتنا ، ولكننا هداً بعد وقت ، وقبلنا الأمر الواقع ، ثم ألفناه . إن الحياة صعبة كما تعلم ، والغلاء يشتد . كان علينا أن نختار بين السعادة والشرف فاخترنا السعادة . غداً تألف هذا الموضوع وتعايش معه كما ألفناه وتعايشنا . أما الآن فلنفكر في حل مشكلة مسز كريكييت لا بد أن نساعدنا على تأجير المنزل الجديد ، وإلا تعرضنا جميعاً للفضيحة .

ويسمع ريتشارد هذا الكلام في ذهول ، ولكنه يجد نفسه درجة درجة ينساق مع ضيوفه الثلاثة والنسوة الخمس إلى بحث هذا الموقف الجديد في هدوء وإلى تدبير الحاول لمواجهته !

وفيما هم كذلك يدخل عليهم صديقهم الشاب المليونير السكير جاك ، وهو في حالة سكر بين لا يكاد يحفظ توازنه . وما إن يقع بصره على مسز كريكييت ، حتى يوسعهما تهكماً وهو ينظر نظرات العتاب إلى جيني . إنه لم يكن يتصور أن مسز كريكييت يمكن أن تمتد تخوم إمبراطوريتها بحيث تجعل امرأة فاضلة مثل جيني بين رعاياها . أما الأخباريات فقد عرفهن في الفراش وهن يثرن تقززهن . لقد كانت صدمة لجاك أن يرى مسز كريكييت ملكة الماخير في لندن سابقاً ثم في عديد من مدن أمريكا ، في دار جيني . وينهض جاك . إنه عائد إلى ناديه حيث العاطلون بالوراثة سيئون للغاية ولكنهم أقل سوءاً من هذ العفن البورجوازي ، حيث المتطلعات والمتطلعون يضحون بأبسط معاني الشرف من أجل « المركز الاجتماعي » .

ويصاب الجميع بدعر عظيم ، إن الشاب السكير جاك شاب طيب ،
ولكنه مخمور ، ولا يؤمن إن هو عاد إلى النادي أن يترثر عما رآه :
حفلة عائلية تجتمع فيها ملكة القوادة بالزوجات والأزواج

وتقول النسوة : امزحوه . ويتألب الرجال الأربعة على جاك المترنح
ويمددونه على الكنبه ويجلسون عليه ليمنعوه من الحركة دقيقتين أو ثلاثا ،
ثم يتركونه ، فإذا ذراعه تسقط في استرخاء م. ب. . متقدم مس. كريكيت
وتجس نبضه برهة ثم تعلن : لقد مات ،

وفي خليط من التمزح والوجوم والحزن العميق من سوب جاك يهف
الجميع كالبله لا يعرفون ماذا يفعلون . في البيت جثة رجل ميت ،
ولا شك أن البوليس سيطرق الباب إذا لم يجدوا حلا لهذا الإشكال .
ويقول ريتشارد رب البيت : إذا نحن ألقينا جثة جاك في الشارع
فسينظنون أنه مخمور مات من فرط السكر ويتكفون به . لقد كانت
حاته تادل على ذلك . ولاشك أن عشرات من الناس رأوه في النادي
يترنح قبل محيئه . وتقول مسز كريكييت : هذه فكرة نيرة ستدفع بنا
جميعاً إلى السجن . ألا تعلم أنهم سيشرحون الجثة لتحديد سبب الوفاة
ويكشفون انفجاراً في أوعية الرئة نتيجة الاسفيكسيا ، فيعرفون أنه مات
مخنوقاً ، ولم يميت من التسمم الكحولى ؟ وتعود الحيرة والتمزح وتتردد عبارة
واحدة : ما العمل ؟ ما العمل ؟ وهنا تقول مسز كريكييت بلهجة الأمر :
ناك حفرة عميقة في الحديقة : احماوه إليها في الغلام وأدفنوه فيها ،
ثم انسوا الموضوع وتعالوا نتدبر مسألة تأجير البيت الجديد . ويحمل

الأربعة جثة جاك المسكين ويخرجون إليها إلى الحديقة، ثم يرجعون بعد دقائق
ويأخذ كل مكانه على المقعد . وبعد نصمت وجيز يقول ريتشارد :
أليس هناك بيت آخر . غير البيت المجاور للمحطة ؟ هناك صعوبات .
في تأجيرها وهي كذا وكذا وكذا ، وينغمس الجميع في مناقشة حول البيوت
المناسبة والبيوت غير المناسبة

ويظهر بينهم شبح جاك وقد عاد من العالم الآخر، ويقول مخاطباً
الجمهور : مسكينة جيني . لقد كنت شديد الإعجاب بها .
وقد تركت لها في وصيتي ثلاثة ملايين دولار ، ولكنها للأسف لن
تستطيع أن تحصل عليها قبل سبع سنوات . فالقانون ينص على أنه لا بد
من انقضاء سبع سنوات على اختفاء الجثة قبل أن يدرج صاحبها رسمياً
في عداد الأموات ، أما ريتشارد المسكين فقد كنت دائماً أعطف عليه
لطيبته الشديدة وسط هذا العالم القاسي ، أما الآن فأنا لم أعد أخاف
عليه من شيء . لقد تعلم كيف يعتنى بنفسه .

وهكذا يعود كل شيء إلى مجراه في هذا البيت النموذجي في هذه البلدة
النموذجية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تؤدي مسز كريكيث
وظيفة الاجتماعية الخطيرة ، وهي حل مشاكل التطوع الطبق في مجتمع
البورجوازية الصغيرة . وقد أثبتت مسز كريكيث حقاً أنها جديدة باسمها
المضحك لأن لعبتها في الحياة هي أن تدفع بكل الكرات لتستقر
في كل الحفر !

الزهرة السوداء

قرأت وأنا في باريس . أن مسرح دي تيرتر . في أعلى مونمارتر . يقدم عرضاً من « أغاني المالدورور » .. للشاعر الفرنسي الرحيم لوتريامون ، ودفعتني الفضول أن أرى كيف يقدم لوتريامون على المسرح . وهو شاعر غير مسرحي ولم يكتب قط للمسرح . وعادت بي ذاكرتي إلى سنة ١٩٤١ . حين كنت أجلس مع المرحومين : ريسيس يونان ، وكامل التلمساني . في أحد استديوهات الفنانين في درب اللبانة بالقاعة ونقرأ « أغاني المالدورور » لوتريامون ، ونتمحدث عنها وعنه .. وكان لوتريامون قبلها ويومها وإلى يومنا هذا ، من شعراء الخاصة ، لا يقرؤ إلا المثقفون . ليس فقط في مصر وحدها ، ولكن في فرنسا نفسها . وكان أكبر ازدهار لشهرته بين حلقات الشعراء الرمزيين ، مثل ألفريد جاري ، وليون بول فارغ . وفاليري لاريو ، ثم بين حلقات السيرياليين . وكنا يومئذ نقرأ لوتريامون في الطبعة المشهورة التي صدرت عام ١٩٣٨ ، وقدم لها رسول السيريالية أندريه بريتون ، والمثال العظيم ماكس إرنست وغيرهما من قادة المثقفين في العالم .

وكان اليوم عصر يوم أحد ، وذهبت إلى مسرح تيرتر ، فوجدته

مسرحاً صغيراً ، كمسرح الجيب ، بجوار كاتدرائية الساكركير ولم يكن في القاعة إلا ثلاثة غيرى .. وكان العرض « سواو » . أى عرضاً منفرداً ، قدمه ممثل شاب في نحو الثلاثين ، اسمه كازالاس ، ذو موهبة فريدة في الإلقاء شغل خشبة المسرح بمفرده ساعة ونصف ساعة متصلة يؤدي أداءً درامياً ترتيبه الخاص واختياراته الخاصة من أغاني مالدورور ، لا يساعده في ذلك إلا فقرات مسجلة من موسيقى غريبة وبعض الفقرات المسجلة بصوت آخر يرتفع كالهمس أو كالوحي أو كالفحيح في الخلفية ، ولا يساعده في ذلك إلا ما كياج لقناع الموت على وجهه شاحب البياض شاحب الخضرة تحت ضوء البروجكتور وسط ظلام المسرح . ساعة ونصف من الشعر المنثور تعلقت فيها أنفاسنا لهذا الفيض من عذاب الشعراء الذين رأوا الشيطان رؤية العين فانسجوا من همسه بردة سدااء كفنوا بها آلاء الرحمن .

وقد كان بودلير ، صاحب « أزهار الشر » ، احدهم . كذلك كان ايزيدور دو كاس ، ذلك الفنى الغامض الغريب الأطوار الذى اختار أن يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو الكونت لوتريامون ، استعاره من اسم شخصية فى إحدى روايات أوجين سو (الكونت لاتيريرمون) . وفى حياته القصيرة التى لم تتجاوز ٢٤ عاماً ، (فقد ولد ايزيدور دو كاس بمونيتفيديو عاصمة أورجواى فى ٤ أبريل ١٨٤٦ وتوفى فى باريس فى ٢٤ نوفمبر ١٨٧٠) لحق بركب الخالدين . وقد كتب لوتريامون عن نفسه فى النشيد الأول من « أغاني مالدورور » : « سوف تشهد نهاية القرن التاسع عشر ظهور شاعرها »

(ومع ذلك فهذا الشاعر لن يبدأ بنظم رائعة ولكنه سيتبع قانون الطبيعة) .
 وقد ولد هذا الشاعر على شاطئان أميركا في مصب نهر لابلاتا ، هناك
 حيث يقيم شعبان ، كانا فيما مضى متنافسين ، وهما يجاهدان الآن ليز
 كل منهما الآخر في التقدم المادى والمعنوى . فيونس أيريس ، ملكة
 الجنوب ، وونتفيديو اللعوب تتصافحان عبر المياه الأرجنتينية على
 مصب نهر لابلاتا » .

* * *

وواضح من هذا الكلام أن لوتريامون حين تنبأ لنفسه أنه سيصبح
 شاعر « نهاية القرن » إنما كان يتصور أن الأجل سيمتد به على الأقل
 إلى منتصف العمر ، ولكن المنية عاجلته في شرح الشباب في ظروف
 غامضة . فكل شيء كان غامضاً في حياة هذا الفتى الذى أتعبت سيرته
 مؤرخى الأدب نخلوها من المعالم الواضحة ومن الدروب الواضحة
 ومن الصداقات أو الزمالات الواضحة التى تعين عادة على تتبع سير
 الشعراء . فكل ما نعرفه عن سيرة لوتريامون أنه كان ابن فرانسوا دو كاس
 قنصل فرنسا بالنيابة فى مونتفيديو من زوجته الفرنسية جاكيت دافزك ،
 وكلاهما من بلدة تارب جنوب مدينة بوردو بالقرب من البرانس
 الفرنسية . وقد كان الأب من قبل يعمل مدرساً فى فرنسا ثم انتقل إلى
 لسلك السياسى فى ظروف غير واضحة ، ولكن عقد الزواج يدل على
 أن الزواج تم قبل ولادة الطفل إيزيدور (لوتريامون) بشهرين ، مما يشير
 إلى خطأ تورط فيه الأب فرانسوا دو كاس مع الأنسة جاكيت وهما

بعد في تارب ، خطأ جعل الزواج قهرياً . وربما كان هذا هو سبب لجوء الأب إلى تغيير مجرى حياته جملة والتحاقه بالسلك السياسى ورحيله عن فرنسا إلى أمريكا اللاتينية عسى أن يتعد من مكان الفضيحة . وقد كان الأب يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره ، أما الأم فكانت في الخامسة والعشرين .

أما سجل الأب في مونتيديو فليس فيه كثير معروف إلا أن رؤساءه شهدوا له بالكفاية وحسن معاشرته الناس ، وقيل عنه إنه كان يتتقى خليلاته من بين الممثلات ، وإنه كان ذواقة للنساء وللأدب ، فقد كانت له مكتبة عامرة . وقد ماتت أم إيزيدور قبل أن يتم سنتين من عمره ، وهكذا نشأ شبه يتيم في كفالة بعض قريباته ، وشب في مونتيديو حتى سن الثالثة عشرة . ويبدو أن أسرة لوتريامون كانت أسرة من الشواذ لأن أحد الأطباء النفسيين كتب بحثاً في « مجلة التحليل النفسى » التى تصدر في بيونس أيريس عاصمة الأرجنتين يقول فيه إنه استطاع أن يستقصى فى أسرة لوتريامون (دو كاس) أربع حالات من الاحتجاز فى مستشفى المجانين وحالتين من الانتحار وحالة واحدة من القتل .

وأول ما نسمع عنه بعد ذلك هو عودة الغلام إيزيدور إلى فرنسا ليتم تعليمه والتحاقه بمدرسة تيوفيل جوتيه فى تارب وهو فى سن الثالثة عشرة ، ثم بمدرسة بو بالقرب من بوردو وبياريتز . وليس هناك ما يدل على أنه حصل منها على البكالوريا فى ١٨٦٤ أو ١٨٦٥ شأن أقرانه (وقد كان منهم الماريشال فوش) . كذلك تعب الباحثون دون جدوى

في أن يجدوا لاسمه أثراً في جامعة باريس مما يوحي بأنه لم يبدأ تعليمه الجامعي . وكل ما عرف عنه في أثناء دراسته الثانوية أنه كان معتزلاً أخذانم منظوياً على نفسه غريب الأطوار شديد التعالي كثير الكتابة مستسلماً لأحلام اليقظة دائم الشكوى من الصداق الفظيع ، وكان يتحدث عن نفسه أحياناً على أنه « مريض بعقله » . ولم تبد عليه أية مواهب خاصة في الدراسة ، بل على العكس من ذلك كان من أوساط التلاميذ ، وإن بدا عليه اهتمام خاص بأدب سوفوكليس وراسين وكورناي وإدجار بووتيوفيل جوتييه . وآخر ما نسمع به عن إقامته في مدرسة بوكان عام ١٨٦٥ تم تنقطع أخباره ثلاث سنوات حتى ١٨٦٨ حين نراه يظهر في باريس . ويبدو أنه قضى هذه السنوات الثلاث في ونفديو .

* * *

ظهر اوتر ياهون (إيزيدور دو كاس) عام ١٨٦٧ أو ١٨٦٨ في باريس أديباً ولم يظهر طالباً ، وكان عمره وقتئذ اثنتين وعشرين سنة . وفي هذا العام نشر النشيد الأول من « أغاني مالديورور » . ويبدو أن اوتر ياهون حين هبط باريس كان قد اتفق مع والده على أن يخترف الشاعر الأدب ، ربما وهو يتم دراسته في باريس . فمعروف أن أباه كان يجري عليه معاشاً شهرياً عن طريق رجل يدعى داراس كان مديراً لأحد البنوك ، ومعروف أن اوتر ياهون كان يطلب من داراس هذا أموالاً علاوة على معاشه لكي ينفقها على طبع النشيد الأول من « أغاني مالديورور » . وفي أواخر عام ١٨٦٨ اتفق لوتر ياهون مع ناشر مشهور اسمه لاكروا مدير

« المكتبة الدولية » على نشر النشيد الثاني من « الأغاني » وهي دار نشر ذات فروع في باريس وبروكسل ولايبزيج وليفورنو ، عرفت بنشر الكتب الثورية والمنبوذة والمصادرة ومن بينها بعض أعمال فكتور هيجو وأوجين سووبرودون وزولا. ثم أمد لوتريامون الناشر لأكروا في أوائل ١٨٦٩ بمخطوط الأناشيد الستة مجمعة ، وهي كل « أغاني مالديورور » ، على أن تطبع في أثناء الصيف في بروكسل على نفقة المؤلف الذي قدم ٤٠٠ فرنك بصفة عربون. ونعرف من أوصاف الناشر لأكروا صورة لوتريامون عنده ، فهو قد « كان شاباً طويلاً فاحم الشعر أجرد الذقن شديد العصبية دؤوبا على العمل » ، لا يكتب إلا في أثناء الليل جالساً إلى البانو بلقي عباراته بصوت عال ، ويصوغ جملة صياغة الصائغ ، ويزن إيقاعها على إيقاع التواليف الموسيقية . وهكذا طبعت الطبعة الأولى من « أغاني مالديورور » في بروكسل ، ولكن الناشر حججها بعد طبعها فلم يوزعها على المكاتب لتعرض على الجمهور « لأن الحياة بصورة فيها بأاوان مريرة ولأنه كان يخشى النائب العام » . وقد كان لهذه الصلابة أثر عميق في نفس لوتريامون حتى إنه بدأ يعد بالألغى في أشعاره القادمة إلا عن « الأمل » و « الصفاء » و « السعادة » و « الواجب » . ولكنه لم يعش ليحقق شيئاً مما وعد به .

« أيها القارئ ! لعلك تريد مني أن أبدأ فواتيح هذا الكتاب بالكلام عن الحقد وليس سواه ؛ ومن أدراك أنك لا تشمشم أثر الكراهية ، وأنت سابح في شهوات بلا عدد وبغير حدود إلا ما يقر به فؤادك ،

تشمشم بخياشيمك المتغطسة . وهى واسعة ورقيقة ، وأنت تتقلب على بطنك فى الهواء الأسود الجميل شأن سمكة القرش ، كأنما أنت تدرك أهمية هذا الفعل ، بل أهمية شهوتك المشروعة ، تشمشم بعظمة وهدوء روائح الشر الحمراء ! أيها الوحش ! إن هذه الروائح لتطرب لاشك خياشيمك الممسوخة فى خشمك البشع أو أنك بادرت قبل ذلك وتنسنت ثلاثة آلاف مرة متعاقبة ضمير الكون الأزلى الرجيم

وهكذا منذ البداية تعرف رأى لوتريامون فى الكون والإنسان . فضمير الكون ملعون رجيم . الحية فى قلب الشيطان والشيطان فى قلب الكون ، والبغض يحكم الوجود . أهو نوع من تنازع البقاء وبقاء الأفسد؟ إنه أكثر من ذلك . إنه شهوة للشر وتلذذ من القسوة يذكرنا بفلسفة المركيز دى ساد .

من أجل هذا يتحدث لوتريامون عن صفحات كتابه قائلا :
« هذه الصفحات المظلمة التى تقطر سمًا » . قال بانجاوس : « لم يعد للديانة المانوية أتباع » ، فأجاب مارتان : « أنا موجود » ! « إن لوتريامون مثل بودلير وفاويز ، يعتقد أن التعبير الفنى عن الشر يتضمن أرقى درجة من درجات الإحساس الأخلاقى » . هذا رأى ، ولعله رأى صائب ، لأن اكتشاف قوانين الكراهية التى تحكم الكون وعالم الأحياء ، وحياة الإنسان بدلا من أن تحكمها قوانين الحب ، هو مصدر عذاب للشاعر . وهو يجد لذة فى هذا العذاب كما يجد العاشق لذة فى سعي الحب .

وبهذا نقرب من بعض ألوان الصوفية التي تجد أن الطريق إلى الفضيلة هو التطهر بالزديلة ، وتجد أن الشك طريق الإيمان والتجديف طريق العشق الإلهي . وفي الديانة المانوية الله لا يحكم الكون وحده وإنما يحكمه معه الشيطان ، والظلمة تلازم النور والليل النهار طالما الكون كائن في صورته المادية . ولن يكون الكون نوراً على نور إلا في نهاية الزمن أو في الآخرة كما نقول نحن المؤمنين .

« سوف أبين في سطور كيف كان مالدورور خيراً في طفولته حين كان يحيا سعيداً ، وقد بينت . ومن بعد ذلك أدرك أنه ولد شريراً وياله من قدر عجيب ! فأخفى طبعه ما استطاع إلى ذلك سبيلا لسنوات وسنوات ، ولكنه في النهاية بسبب هذا الجهد المضني المضاد لطبيعته الذي بذله لإخفاء حقيقته ، وجد أن الدم يصعد إلى رأسه ، حتى تجاوز ذلك قدرته على الاحتمال . فانغمس في إصرار في حياة الشر .. فوجد الراحة في جوه الناعم اللذيذ ! ومن ذا الذي يعقل هذا ! حين قبل مالدورور طفلاً صغيراً وردى الوجه . أحب أو أنه سلب منه خديه بحد موسى ، ولقد كان خليقاً بأن يفعل ذلك مراراً وتكراراً ، لولا أن العدالة وما في ركابها العظيم من رسل القصاص ، أوقفته في كل مرة . ولم يكن مالدورور بالكذاب ، لذا كان يعترف بالحقيقة ويعان أنه قاسى الفؤاد . أيها البشر ! هل سمعتم ؟ إنه يجسر على قولها المرة بعد المرة ، أن يسطرها بريشته الراحشة هذه ! فهي إذن قوة أقوى من الإرادة .. إنها لعنة ! وهل يستطيع الحجر أن يتحرر من قانون الجاذبية ! محال . محال أن

يحاول الشر الزواج من الخير . وهذا ما قلته لكم آنفاً .

* * *

« الإنسان خير بالطبع » . هذه هي القضية التي يناقشها الناس والأنبياء والفلاسفة منذ الأزل . ومع ذلك فالرأيان فيها متعارضان حتى اليوم وفيما بينهما ظلال ، ولوتر يامون يقول إن براءة الأطفال الملائكية تخفى تحتهما جوهر الشر الملازم للوجود الإنساني . إن سقوط الإنسان قانون طبيعي كقانون سقوط الأجسام بفعل الجاذبية . ومقاومة السقوط هي مصدر شقاء الإنسان وجنونه . بل إن مجرد إخفاء السقوط هو مصدر شقاء الإنسان وجنونه . أليس هذا هو الكبت وآثاره التي نقرأ عنها كثيراً في علم النفس ؟ والحل إذن ؟ أن يطلق الإنسان العنان لغرائزه الشريرة ؟ هذا جهيم ، لأن رسل القصاص تقف دائماً بالمرصاد . أن يكبت الإنسان غرائزه الشريرة ، هذا جهيم ، لأنه بمثابة تحد لقانون الأجسام الساقطة . أن يسقط في الرذيلة وأن يلبس قناع الفضيلة ! هذا ما يفعله الناس . وزواج الشر من الخير رياء . ظاهره الطهارة وباطنه خداع الزناة .

« عقدت مع الدعارة حلفاً بقصد نشر الفوضى داخل الأسر .
وإني لأذكر الليلة السالفة على ليلة هذا الحلف الخطر . رأيت أمامي قبراً
وسمعت فراشة النور ، طائر النار ، جسيمة كما الدار ، تقول لي :
(سوف أضيء لك الطريق' . اقرأ النقش . هذا الأمر السامى لم يصدر عني)
وانتشر في الهواء إلى مدار الأفق ضوء عظيم باون الدم ، ما إن رأيته

حتى اصطكت أسناني وسقطت ذراعاى هامدتين . فاعتمدت على سور
متهدم حتى لا أتهافت وقرأت : (هنا يرقد فى مراهق مات بذات الرثة
أنتم تعرفون لماذا . لا تصاوا من أجله) . ربما غيرى كثيرون ما كانوا
ليجدوا شجاعة مثل شجاعتي . فى هذه الأثناء جاءت امرأة جميلة عارية
ونامت عند قدمي . قلت لها بوجه حزين : (يمكنك أن تنهضى) .
ومددت لها يدي ، يد الأخ ذابح أخته . وقالت لى فراشة النور :
« خذ حجراً واقتلها » . قلت لها ، (ولم أقتلها ؟) قالت ، خذ حذرك
أنت الأضعف لأنى أنا الأقوى . هذه المرأة العارية يسمونها الدعارة .
واغرورقت عيناى بالدموع واتقد فى قلبي الغضب ، وأحسست بقوة
مجهولة تولد فى نفسى . وتناولت حجراً كبيراً ، وبعد جهد جهيد رفعته
إلى مستوى صدرى ثم وضعته بساعدى على كتفى وصعدت جبلاً حتى
قمته ، ومن هناك سحقت فراشة النور ، فغاص فى الأرض رأسها
جسيماً بحجم رجل ، وارتد إلى الحجر على ارتفاع ست كنائس ، ثم هوى
من جديد فى بحيرة غارت مياهها لحظة ودارت فى دوامة حفرت مخروطاً
عظيماً مقاوياً . ثم عاد الهدوء إلى سطح المياه . ولم يعد الضوء الدامى
يلمع بعد ذلك . وصاحت المرأة الجميلة العارية : (ويحك ! ماذا فعلت ؟)
قلت لها : (أنت خير عندى من فراشة النور ، لأن بي رحمة بالتعساء .
الذنب ليس ذنبك إذا كانت العدالة الأزلية قد خلقتك) . قالت لى :
(فى يوم من الأيام سوف ينصفنى الناس . لن أبوح لك بالمزيد ، والآر
دعنى أمضى ، لأنخى فى قاع البحر أحزاني السرمدية . ليس فى العالم

سواك والوحوش الشائبة التي تن في قاع هذه الهاوية الظالماء ، ليس سواكم من لا يحتقرفني ، أنت طيب القلب . وداعاً يا من أحببتني) . قلت لها : (الوداع ثم الوداع ! الوداع ! لسوف أحبك ما حييت ! منذ اليوم سوف أهجر الفضيلة) . من أجل هذا أيتها الأمم ، حين تسمعين ريح الشتاء تن على سطح البحر أو قرب شطآنه ، أو فوق المدن الآهلة التي لبست منذ زمان على الحداد ، أو عبر فلوات القطب ذات الزمهرير ، قولي أيتها الأمم : هذا الذي يمشى ليس روح الله . إنه ليس إلا زفرات الفضيلة الذبيحة اختلطت بزفرات هذا القادم من مونتيفيديو ، (وهي عميقة) . فيا أطفالى : أنا القائل لكم . هيا إذن ، اركعوا والرحمة تملأ قلوبكم ، وليبتهل الناس وهم أكثر من القمل إحصاء ، بمديد الصلوات » . نحن هنا وفي كل مكان في عالم الشاعر بليك ، في عالم الفيلسوف نيتشه ، في عالم النبي زارادشت ، فلنقل إن فراشة النور طائر النار ، هي الروح .. أو الروح القدس ، والشاعر حائر بين فراشة النور والجسد العارى ، الذى يسمونه فى بعض الآداب الدينية بالمرأة القرمزية ، تجسيد الخطيئة . هو حائر بينهما لا يعرف أيهما يقتل . وأخيراً يتناول حجراً ويحاول أن يقتل فراشة النور . ولماذا هذا الاختيار ؟ لأن البغى الأبدية تعترف بذلتها فهي ترقد عند قدميه وتخفى وجهها من العار ، أما الروح ، فراشة النور ، فتجبره تريد أن تسحق . وطوبى للضعفاء كما قيل فى القديم ، فلنقل إنها المجدلية ، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . ولكن حين أراد الشاعر أن يقتل الروح ، الفراشة

المنيرة ، غاصت في الأرض كالأساس المتين وشمخنت وتعاليت حتى بلغت مقام الكاتدرائيات الباذخة ، أما الحجر فقد سقط في المياه التي ابتلعت دوامتها المرأة القرمزية ، وهكذا قتلت الروح الجسد . فوداعاً أيها الجسد الذبيح . صاوا عليه واستمطروا الرحمات .. ولكن السؤال الذى يطرحه اوتريامون في هذه المقطوعة : هل الله حقاً هو الذى أمر بذبح الجسد ؟

« أى أوقيانوس القديم ! أيها الأعزب العظيم ! عندما تجتاز وحدتك الجلييلة ، وحدة مملكتك المترفعة ، تزدهى بالحق كبرياء لروعتك الأصيلية ، ولمدائحى التي أنظمتها في بهائك .. ليت أن جلال البشر لم يكن إلا تجسيداً لظل جلالك .. إني لا أطلب شيئاً عزيزاً ، وهذه الأمنية الصادقة تمجيد لك . فجلالك المعنوى ، وهو صورة الأبدية ، عظيم كتأمل الفيلسوف ، عظيم كغرام المرأة ، عظيم كالبهاء الإلهى في صورة الطير ، عظيم كخواطر الشعراء ، أنت أجمل من الليل ! أيها المحيط ، أجبني ، أتريد أن تكون شقيتي ؟ إذن فتحرك في جموح .. في جموح أعظم وأعظم أو أردت أن أقارنك بالانتقام الإلهى ، امدد مخالبك الزرقاء واحفر بها على صدرك طريقاً . هذا جميل ابسط أمواجك الفظيعة أيها المحيط الفظيع الذى لا يفهمه أحد سوى . هأنذا أتهافت أمامك بأر كع على ركبتي .. « أى أوقيانوس القديم ذا الأمواج الباورية .. عيناى ابتلتنا بالدمع المدرار ، منهنك أنا - ولم أعد أحتمل أن أتعقب خطاك ، فأنا أحس بأن أوان عودتى إلى البشر الأفظاظ قد جاء . ولكن

فلنتجمل بالشجاعة . فلنتحامل على أنفسنا ولنحقق قدرنا على الأرض يلهمنا الإحساس بالواجب ، وسلاماً أيها المحيط القديم » .

كانوا في قمة الحركة الرومانسية يسمون هذا مذهب الحلول ، ورثه الشعراء الأوربيون عن الفيلسوف سبينوزا الهولندي وعن سنانكور في فرنسا ، أو ما يسمى بوحدة الوجود . الله حال في الكون ، وما في الجبة غير الله كما كان الحلاج يقول : اقرأ مقطوعة : « سألت العباب » في صوفيات النفرى ، ونظائرها في السهروردي المقتول ، وفي ابن عربي . تجد بذور الفكر الرومانسي قد أينعت من قبل في تراثنا العظيم ، وكان لها شهادتها . إنه ليس زواج الجنة والجحيم ، كما كان بليك يقول ، لأن الزواج يتضمن ازدواج السابق أو الانشطار السابق ، أما هذا الذى نواجهه فهو معادلة جديدة قديمة فيها الله مساو للكون وروح الله مساوية لروح الكون ، حيث لا جوامد ولا أشياء صماء ، حيث روح الجبل وروح المحيط وروح الغابة وكل هذه الأشياء أجزاء من الروح الأعظم . وفي مثل هذا الوجدان (أو لعلم الوجدان) يناجى الإنسان الجبل والمحيط بقوله : يا أشقائى ويناجى الإنسان الغابة بقوله : يا أختاه ! هنا الروحانية والجسدانية بشىء واحد . أو كما كان سبينوزا يقول في كتابه : « الأخلاق » « الله هو مجموع الذكاء الموزع في أرجاء الكون » أو كما كان يقول : الله بالنسبة للكون هو مجموع زوايا المثلث بالنسبة للمثلث : لا مثلث موجود إلا ولازمه قانون ٢ ق . ولكن سبينوزا كان فيلسوفاً وليس شاعراً فهو يتكلم عن العقل الإلهي المبتوث في أرجاء الكون ،

أما لوتريامون فهو شاعر ولذا يتحدثنا عن الروح الإلهية المبتوثة في أركان الكون . ترى أى الماردين أعظم ؟ الإنسان أم المحيط ؟

وعلى كل فما هذه إلا شذرات من إيمان لوتريامون ومن تجديفه كلها جاءت من النشيد الأول من « أغاني مالدورور » ، وبقيت خمسة أناشيد .

جلست ساعة ونصف ساعة أستمع لمختارات الممثل أندريه كازالاس معلق الأنفاس وكأنه ينشد لى وحلى . وبعد العرض زرته فى الكواليس لأهنته . وبعد أن أزال أصباغه ومساحيقه خرجنا معاً وعدنا إلى الحى اللاتينى . قلت : « ينجيل إلى أنى سبق أن رأيتك على المسرح » فأجاب : « ربما . أنا مثلت من قبل فى (تيمون الأثينى) لشكسبير ، وفى (ميديا) لسنيكا على مسرح الأوديون ، وفى (انتصار العاطفة) لجوته فى أفينيون وفى الأوديون ، وفى (مجمع الحب) لأوسكو بانيتزا فى مسرح باريس ، وفى (لعبة المذبة) ليونسكو وفى (إسكوريال) لجيلدرود ، وفى (مالك الحزين) لسترنديبرج وغيرها وغيرها . وعرفت أين رأيت من قبل . قالها فى تواضع شديد ، بل فى نخجل شديد ، فبدأ كذلك الشاعر الجزويتى جيرارد مانلى هو بكنز الذى كان وجهه يحمر نجلا كلما رأى فى الحديقة الخوخة تحمر فى الربيع ، وكأنه يرى رمز الخطيئة . فلنقل إن الفن - كالحب - خطيئة ، وكلما عظم الفن عظمت الخطيئة . وأهدانى نسخته من « أغاني مالدورور » . قلت : « وداعا ! ليتنا نلتقى فى القاهرة ، فنحن أيضاً مثلكم ، بيننا نفر يرتكبون معصية الفن العظيم » .

• أيام في روما

في عودتي من باريس إلى القاهرة نزلت بروما حيث قضيت خمسة أيام ، قضيتها بين الآثار وفي المسارح وفي الأكاديمية المصرية مع صلاح كامل مدير الأكاديمية ومستشارنا الثقافي بروما ومع أسرة أمريكية تحمل لي ودًا كبيراً .

وكانت هذه زيارتي الثانية لروما . وفي الأولى زرت الفاتيكان وفي الثانية كانت لي جولة كل صباح بين الحرائب المرمرية المبنوثة في كل مكان حيث يعيش الأحياء . باحثاً عن الموقع الذي قتل فيه يوليوس قيصر—أشهر اغتيال في التاريخ — يشيرون إلى الفورم — سوق روما القديمة — حيث تجاوزت آثار الإدارات الحكومية والمجالس النيابية والمحاكم ومعابد الآلهة والدكاكين وساحات الاجتماعات الشعبية الشهيرة وأقواس النصر ، هناك تحت الكابيتول حيث السناتو مجلس الشيوخ أو (البرلمان الروماني) وحيث جرت أفلام المؤرخين وكتاب المسرح أن مارك أنطونيوس هيج رعاك روما وهو يخطب على جثة قيصر ويشعل شرارة الحرب الأهلية . فأذهب إلى الفورم فيقال لي : لا ، ليس هنا . اذهب إلى كامبو دوليو . فأذهب إلى كامبو دوليو فلا أجد لوحة أو أثراً أو شاهداً أو أى شىء يدل على مقتل قيصر . ويؤكد لك الناس أن المكان القديم مطمور تحت البيوت والكنائس القائمة . ثم تفاجأ بمرشد ثالث يقول : بل اذهب إلى

الحفائر في لارجو أرجنتينا ، فهناك كان موقع السناتو القديم الذى قتل على درجه يوليوس قيصر . أما السناتو الذى رأيته فى الهرم فقد بناه يوليوس قيصر ولم يعمر حتى يتم بناؤه وتأممت الأطلال المرمرية طويلا ، ثم انصرفت أسفا لنقص اليقين . قلت : ربما فى زيارة قادمة أكون أكثر توفيقا فى مناجاة أحجار روما القديمة .

وفى الأكاديمية المصرية شاهدت عرضاً للفيلم التسجيلى « ينابيع الشمس »، الذى أخرجه المخرج فىنى (تصوير حسن التلمسانى) لحساب وزارة الثقافة المصرية ، وعرضاً آخر للفيلم التسجيلى « العجبية الثامنة » الذى أخرجه حسين بيكار أيضاً لحساب وزارة الثقافة المصرية عن موضوع معبد « أبوسمبل » ، باعتبار أن « أبوسمبل » أضاف إلى عجائب الدنيا السبع عجبية ثامنة ، ومع العرضين فاصل تمثيلى قصير كان عبارة عن مجموعة مونولوجات ألقاها الفنان الإيطالى إيفانو ستاتشيولى إلقاء منفرداً ، مونولوج أن نكون أو لا نكون ، من « هاملت شكسبير » ومونولوج آخر من بيراندياوا . ولو أننى انتظرت يومين آخرين لشاهدت عرضاً لفيلم « المومياء » الذى أخرجه شادى عبد السلام لحساب وزارة الثقافة المصرية . كذلك كان هناك معرض لاثنين من الفنانين المصريين . وقد كان كل ما رأيته شرفاً لمصر فى بلاد الفرنجة . الأكاديمية ومن فيها وما فيها .

وتصورت كيف أن هذه الأكاديمية يمكن أن تتحول إلى واجهة مشرفة ومركز ثقافى لفنون مصر وآدابها فى العاصمة الإيطالية ، لو أن

صلاح كامل قدم كل مساء نشاطاً ثقافياً مصرياً من نفس المستوى في باب المسرح أو السينما أو الموسيقى والغناء أو المحاضرات العامة أو فيما يدخل في باب التبادل الثقافي . أما في النهار فقاعات العرض تتسع للوحات أربع فنانيين تشكيلييين في وقت واحد يمكن تغييرهم على مدار السنة مرة كل شهر . ولكنى وجدته حزيناً يفيض بالإحساس بالإحباط لأن يده مغالوة عن كل شيء . وبدت لي الأكاديمية كدكان مجوهرات عظيم من أرقى طراز وقد صفت في واجهته العلب الأنيقة على خلفيات من أثواب القטיפفة الفاخرة ، ولكن العلب للأسف خالية من المجوهرات . وجدت مدير الأكاديمية حزيناً لأن همومه كانت من نوع آخر غير ثقافي . فقد عرفت منه أنه اضطر لعقد السلف شهرياً ولمدة أربعة أشهر من بنك إيطالي لدفع مرتبات الموظفين المحليين الذين لم ترد اعتماداتهم في « الباب الأول » من الميزانية باعثة المستخدمين والحسابات في الحكومة المصرية السعيدة . فخذ انتقلت الولاية على الأكاديمية من وزارة التعليم العالى إلى وزارة الثقافة خفضت ميزانية الأكاديمية السنوية خارج الباب الأول دون سبب معروف من نحو عشرة آلاف جنيه إلى نحو خمسة آلاف جنيه ، وهي ميزانية المشروعات والمطبوعات وأجور الخدم ومصاريف الإنارة والمياه والتليفون إلخ . ولولا ما يتمتع به صلاح كامل في روما من هيئة شخصية ومن صلات ممتازة لقطعت الكهرباء والمياه والتليفون عن الأكاديمية ولا تصرف البواب وخدم النظافة والطبخ والغسيل الذين يخدمون أبناءنا الفنانين العشرة المقيمين في الأكاديمية لعدم صرف أجورهم ولأغلقت

الأكاديمية أبوابها وجلس موظفوها المعينون على الباب الأول في القهوة انتظاراً لأول السنة المالية القادمة . وقد استصرخ صلاح كامل واستنفر المسؤولين بالرسائل وبالبرقيات وبالمكالمات التليفونية ، ولكن دون جدوى وكان آخر استصراخ أعرفه رسالة حملني إياها إلى الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإعلام ، وقد حملت إليه الرسالة عند عودتي إلى مصر فأمر بحل جميع مشاكل الأكاديمية . فأرجو أن يكون الناس اللى فوق والناس اللى تحت ممن يمسون كيس الدولة قد صدعوا بأوامره أو وجدوا طريقاً لحل مشاكل الأكاديمية .

ووجدت مدير الأكاديمية قد حدد لمهرجان افتتاحها شهر أبريل أو مايو ١٩٧٢ ، فنصحته بأن يؤجل الافتتاح إلى أكتوبر أو نوفمبر حتى يرتب أموره ، .. واقترحت عليه وعلى وزارة الثقافة أن يستغرق مهرجان الافتتاح أسبوعاً كاملاً بحيث تعرض في النهار صفوة لوحات فنائنا التشكيايين وتمثيلهم ، ويخصص المساء الأول لتقديم مسرحية لسنيكا أو لولدوني أو لبيرانديلاو على مسرح الأكاديمية تحية من مصر للفن الإيطالي ، والمساء الثانى لتقديم عمل من أعمال توفيق الحكيم بالإيطالية ، تحية من إيطاليا للفن المصرى ، والمساء الثالث لتقديم نماذج مصرية من أوبرا « عابدة » لفيردى وغيرها وريستال على البيانو لرورى يسى وعلى الفيولونسيل لناجى الحبشى وغيرهما . والمساء الرابع لتقديم الفيلم المصرى . والمساء الخامس لندوة ثقافية عن العلاقات الحضارية بين مصر وإيطاليا . والمساء السادس لندوة عن العلاقات

السياسية والاقتصادية بين مصر وإيطاليا . ولما عرفت من مدير الأكاديمية أن من الممكن دعوة رئيس الجمهورية الإيطالية في حفل الافتتاح اقترحت أن يرأس وفد مصر الرسمي الدكتور محمود فوزى الذى يعرف الإيطالية فيما سمعت ، وأن يرأس وفدنا الثقافى توفيق الحكيم . وحين عرضت مقترحاتى على الدكتور حاتم أبدي اهتماماً شديداً بها ، ولم يبق إلا أن نأمل أن تترجم هذه الأفكار إلى واقع . أليست هذه طريقة لتغيير صورة مصر فى الخارج ؟

وبرغم الآثار وبرغم الأكاديمية وجدت الوقت لمشاهدة مسرحيتين بالإيطالية ، وأجريت لقاءين مع المخرجين دى سيكا ومونتالدو . وسعيت للقاء أنطونيونى وفللىنى وفيسكونتى وباسولينى وروسالينى لأنقل لقراء « الأهرام » صورة عن مدارس الفن السينمائى ، ولكنى وجدتهم إما خارج إيطاليا وإما خارج روما . وكانت تجربتى مع دى سيكا غريبة فقد التقيت به فى الاستوديو فى أثناء التصوير بين لقطتين ، وعبرت معه البلاتو تحت الكاميرات والبروجيكتورات التى تعشى البصر وهرج الاستوديو إلى غرفته المأدبة ، فوجدته يسير فى اختيال كأحد القياصرة وقد تجمهرت من حوله نسوة جميلات فى حالة من الهستيريا ، هذه تقبله على خده وهذه تتعاقى برقبته والثالثة تقول « مبروك » والرابعة تقول « رائع » .. ثم رأيت سيدة بارعة الجمال ملامحها أنجاء سكسونية تجر طفلة فى نحو الخامسة تقطع الطريق على دى سيكا وتقول إنها من أستراليا وإن ابنتها موهوبة وإنها مستعدة للامتحان فى التمثيل . وقد حدد لها دى سيكا

صباح اليوم التالي للنظر في هذه الموهبة الجديدة .
 وكان دى سيكا مرهقاً في أثناء لقائى معه فلم أجالسه إلا نصف ساعة
 وعرفت منه أنه عديم الخبرة الشخصية بالفيلم المصرى ، ولكنه سمع
 ببعض ما يجرى عندنا من زميله روسيلىنى . وحين ناقشته في تجارب
 زملائه الجدد أنطونيونى وفلىنى والباقيين من أتباع ما يسمى بالموجة الجديدة
 كان شديد الأدب شديد الإطراء على الطريقة الإيطالية ففهمت أنه
 لا يقر منهمجهم في الإخراج . فهذا ممتاز في كذا وذلك ممتاز في
 كذا .. أما الجوهر فقد كان يتجنب الإشارة إليه في حرص شديد . قلت :
 باختصار أنت لاتزال مطمئناً إلى مدرستك الواقعية ؟ فضحك لأنه أدرك أنى
 أدركت ، وأخذ يدافع عن المدرسة الواقعية دفاعاً حاراً . وكنت دائماً أشكو
 من البطء وتفطيت الزمن في أفلام الموجة الجديدة دون تعويض تشكيلي
 فشكا دى سيكا مما يسميه « الغموض » في عمل زملائه ، وهو ما يسميه
 زملاؤه المبرر النفسى .

أما مونتالدو صاحب الفيلم العظيم « ساكو وفنزيلى » ، فقد بهرنى
 ببساطته وثقافته وبإيمانه بأن في الحياة قضايا تستحق أن يدافع عنها
 الفنان من خلال الفن . وقد عرفت منه أنه يعد فيلماً عن حياة « جيوردانو
 برونو » ، الفيلسوف والعالم الإيطالى (١٥٤٨ - ١٦٠٠) الذى أحرقته
 محاكم التفتيش لقوله بأن الأرض ليست في مركز الكون ولكنها في ركن
 مهمل من الفضاء. تأسيساً على نظرية كوبرنيك في الفلك ، ولأنه قال
 بضرورة الانسجام بين الروح والجسد وهاجم نظرية سحق الروح للجسد

التي تنادى بها بعض التفسيرات الدينية المحافظة ، كما قال بلا نهائية الكون وهو ما يشكك في أنه مخاوق ، وقد عاش حياته مطارداً بين جامعات إيطاليا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى استدرج أخيراً إلى روما ، وهناك حوكم بتهمة الزندقة وأحرق على الخازوق في كامبودى فيورى (ميدان الأزهار) بعد سبع سنوات من السجن .

أما فيلم « ساكو وفنزيتي » فموضوعه القضية الفظيعة التي هزت ضمير العالم في العشرينات من هذا القرن كما هزت قضية دريفوس ضمير العالم في القرن التاسع عشر . ففي ١٩٢٠ ارتكبت في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة بوسطون في أمريكا جريمة سرقة بالإكراه قتل فيها رجلان . وبعدها بأسابيع قبض البوليس على رجلين أحدهما اسمه ساكو وهو صانع أحذية والآخر اسمه فنزيتي وهو بائع سمك ، وكلاهما من المهاجرين الإيطاليين ، وكان الاشتباه مؤسساً على أن سيارتهما تطابق أوصاف السيارة التي ارتكبت بها الجريمة وقد وجدوا معهما مسدساً من نفس العيار . وبرغم اضطراب شهادة شهود الإثبات وعدم كفاية أدلة الطب الشرعي تمت المحاكمة في جو من التوتر والإرهاب زادهما أن محامى المتهمين كان معروفاً بميوله الاشتراكية ، وربما كانت على ساكو وفنزيتي أيضاً شبهة يسار ، وأن سكان ولاية ماساشوستس بصفة خاصة عرفوا بعد أهم المتعصب ضد «الأجانب» ، وكان القاضي ، واسمه تاير ، من غلاة المحافظين . ولهذا كانت محاكمة ساكو وفنزيتي محاكمة سياسية قبل أن تكون أى شيء آخر . وانتهت بإدانتهم والحكم عليهما بالإعدام . وقد جرت محاولة

لإعادة النظر في القضية استغرقت سنوات ، وثار الرأي العام في كل مكان في أمريكا وخارج أمريكا ضد هذا الحكم بإعدام الأبرياء وعمت المظاهرات في كل عواصم العالم تندد بالعدالة الأمريكية العرجاء وبالتعصب العنصرى والعقائدى ولكن بدون جدوى . بل إن أحد الشركاء في الجريمة عذبه وخز الضمير فسلم نفسه للبوليس معلناً أنه كان أحد من شاركوا في عملية السطو ، ومع ذلك لم يعتد باعترافه لأنه رفض أن يبوح باسم شركائه الحقيقيين . وقد قدم ساكو وفنزيتى التماساً إلى محافظ ولاية ماساشوستس واسمه فولر بتخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد . وزارهما المحافظ في السجن وخرج من لقائه بهما في اضطراب شديد لأنه أحس باحتمال براءتهما ، ولكنه برغم ذلك لم يخفف الحكم خوفاً على مستقبله السياسى . وفى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ عند منتصف الليل تم إعدام ساكو وفنزيتى ، على الكرسي الكهربائى . ويروى أنهما قابلا المنية إلى آخر لحظة بكرامة الرجال . قال فرانكاين روزفلت معقباً : « إن هذه أكبر جريمة وحشية ارتكبتها العدالة الإنسانية في القرن الذى نعيش فيه » وكتب الروائى الكبير جون دوس باسوس « نعم ، لقد انتصرتتم ، ولكنكم شطرتتم أمريكا إلى معسكرين » .

وكانت حكاية ساكو وفنزيتى مضمورة في ذاكرتى منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري . ومازلت أذكر والدى جالساً ونحن بعد في مدينة المنيا يقرأ في الجرائد المصرية وصف تنفيذ حكم الإعدام في ساكو وفنزيتى الذى طيرته وكالات الأنباء ودموعه تنهمر على خديه . ولم نكن

نفهم سر انفعاله الشديد ونحن صبية ، فكان يشرح لنا كل ما قد جرى .
ولعل هذه كانت أول صورة رسخت في ذهني عن « أمريكا » .
وفي لقائي مع مونتالدو لم يكن لنا حديث إلا عن الالتزام في الفن
وكيف يمكن للفن أن يلتزم بقضايا الإنسان بدون أن يتنازل عن مقاييس
الفن أو يجعل من فنه دعوة مباشرة صليبا لأية عقيدة من العقائد السياسية
أو الاجتماعية . وكان واضحاً أن مونتالدو اشتراكى النزعة ومشرب بروح
الهومانزم في وقت واحد . وكان يتمنى أن يزور مصر . قلت : ولماذا
لا تجرب الإنتاج المشترك مع وزارة الثقافة المصرية ؟ هناك أرض مشتركة
عريضة بيننا وبينك ، فأنت معاد للاستعمار ونحن معادون للاستعمار .
قال : أى موضوع تقترح ؟ قلت : خذ مثلاً ملحمة قنال السويس منذ
حفرها حتى تأميمها ، فقد كانت نقطة احتكاك مباشر بين مصر
والاستعمار . قال : هذا موضوع ممتاز للسينا ، وذهب يتحدث عما لقيه
المصريون على يد أجنب مصر من الاستغلال الشنيع ، يتحدث وكأنه
مصرى يعرف كل شئ ويحس بكل شئ مما كان . وتحدث عن ثورة
١٩٥٢ حديث المنفهم لأسبابها ونتائجها . قال فى عمق : لقد بالغتم
فى عدايتكم لنا لأننا بالغنا فى إذلالنا إياكم . كل هذا كان منطقياً .
قلت : « فى هذه الحالة تستطيع أن تتناول قصة قناة السويس من خلال
أسرة أجنبية عاشت فى مصر ثلاثة أجيال : جيل عاصر إسماعيل وجيل
عاصر ثورة ١٩١٩ وجيل عاصر عبد الناصر » . قال : « غريب . إن هذا
بالنص ما نصحنى به باباو نيرودا عندما كنا نبحث موضوع فيلم عن

تاريخ شيلي وقناة بنما مع الاستعمار الأجنبي .

وكنت أسمع عن مسرح إدواردو دى فيليبو فقررت أن أشاهد عرضاً من عروضه برغم أن معرفتي بالإيطالية طشاش بعد مضي ثلاثين سنة على تعلمي إياها من دون استخدامها بأى معنى حقيقي . (ونفس الأمر بالنسبة للألمانية) . وكان الغرض الأول من هذه التجربة امتحان ذاكرتي لأعرف إن كان فى استطاعتي متابعة نص مسرحى يلقى أمامى بسرعة الكلام فى الحياة ، وإلى أى مدى تكون المتابعة . أما الغرض الثانى فكان امتحان المسرح نفسه : إلى أى مدى يستطيع الأداء التمثيلى والحركة المسرحية والإخراج .. إلخ أن يحمل معنى النص إلى المشاهد الذى لا يعرف لغته . وقد كانت تجربة فريدة لأن ذاكرتى نجحت بنسبة ٢٥ فى المائة أما المسرح فنجح بنسبة ٥٠ فى المائة ومعنى هذا أنى لو تابعت اللغة بنسبة نصفها لأمكننى متابعة النص كله بنسبة ١٠٠ فى المائة اعتماداً على دلالات التمثيل والحركة والإخراج .

وسمعتهم يقوون فى روما لا تقل إدوارد ودى فيليبو . قل إدواردو فقط فليس فى إيطاليا غير إدواردو واحد . هكذا كان إدواردو عظيماً فى نظر الناس ، عظيماً فى نظر النقاد ، وهو الآن واستنوت مضت سيد المسرح الإيطالى بغير منازع منذ بيرانديلاو . وهو مؤلف وممثل معاً ، وقد أتهم فى مرحلة من مراحل إنتاجه بالنسج على نول بيرانديلاو ولكنه فى الحقيقة مؤلف تقليدى ينتمى إلى مدرسة الكوميديا ديللارتى .

ومن أشهر مسرحياته « السحر الكبير » و« الرعب رقم واحد » و« هذه

الأشباح» و «الأصوات الداخلية» و «نابولي صاحبة الملايين» و «عيد الميلاد مع آل كوبييللو»، و «فيلومينا مارتورانو». (وهي أساس «الزواج على الطريقة الإيطالية»)، و «الكذب ذو الأرجل الطويلة» (وهي المسرحية التي شاهدها).

انظر إلى مسرحيته «السحر الكبير» موضوعها حاجة الإنسان إلى الوهم: كاليجيرو دى سبلتا رجل شديد الغيرة على زوجته مارتا، فهو لا يتركها تغيب عن بصره لحظة واحدة. لهذا فإن ماريانو، عشيق زوجته ياجأ إلى الخيلة لينفرد بمارتا. فهو يتفق مع الساحر أوتو أن يجعل مارتا تختفي من بيت الزوجية بالسحر أو بالخللا جلا، ويقودها إلى ماريانو على أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة ولكنها بدلا من أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة نجدها ترحل مع ماريانو إلى فنيسيا حيث يقيمان معاً أربع سنوات. ويخرج الساحر مع الزوج كاليجيرو لاختفاء الزوجة، ويؤكد له أن في استطاعته أن يستردها أو تحلى عن غيرته العدياء ووثق منها ثقة طامقة. عندئذ سوف يرى زوجته تخرج أمامه من صندوق صغير. وتكون مشكلة الساحر الحقيقية هي إقناع الزوج بأن الوقت ثابت لا يمر، وأن السنوات الأربع لم تنقض على اختفاء زوجته. وينجح الساحر في إقناع كاليجيرو بأن الزمن توقف عن الحركة، ويكاد ينجح أيضاً في إقناعه بأن مارتا لا تخونه. وفي اقتناع كاليجيرو بتوقف الزمن يحاول أن يتوقف أيضاً عن الأكل والشرب فيرثى الساحر أوتو لحاله ويقرر أن يعترف له بالحقيقة، ويأمره أن يفتح الصندوق إذا كان قد تخلص تماماً من شكوكه.

وهنا تحدث المعجزة : تعود مارتا وتظهر أمامه في الوقت الذي يتأهب فيه كاليجيرو لفتح الصندوق ، ولكن كاليجيرو يعدل عن فتح الصندوق لأنه يعلم أنه لم يتخلص من شكوكه تماماً . ولهذا يرفض قبول زوجته مارتا لأنها ظهرت أمامه قبل أن يفتح الصندوق ، بمعنى أنها ظهرت أمامه قبل أن يتخلص من شكوكه نهائياً . إنه يؤثر أن يحتفظ بالصندوق وهو مغلق .

وقد لاحظ الناقد الكبير أريك بنتلي في كتابه عن « المسرح الإيطالي » ، أن ما يقال عن تأثير إدوارد وبييرانديلو في تصوير تداخل الوهم بالحقيقة قول غير صحيح . وعنده أن موضوع « السحر الكبير » ليس طبيعة الحقيقة ، على غرار ما نجد في بييرانديلو ، ولكن مجرد ثقة الأزواج في زوجاتهم .

أما « الرعب رقم واحد » الذي يعيش فيه الناس فهو الحرب العالمية الثالثة . وهذه حالة أسرة من أب هو ماتيو وابنته ، والأب يعيش في رعب من نشوب الحرب العالمية الثالثة إلى حد أنه لا يفتأ يؤجل كل عمل وكل مشروع وكل قرار في حياته ، بما في ذلك زواج ابنته . وحين تيأس البنت وخطيبها من الأب وأحواله يتفقان على افتعال إذاعة كاذبة تعلن في الراديو أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت فعلا . وهنا نجد أم العريس تتدخل لتؤجل الزواج . لقد فقدت في الحرب العالمية الثانية زوجها وابنها الآخر وهي لا تريد أن تفقد ابنها الأخير في الحرب العالمية الثالثة ، ولذا فهي تحبس ابنها في غرفة صغيرة تطعمه فيها ما لذ وطاب

ولكنها طبعاً تحول دون خروجه لإتمام الزواج خشية أن ينتمى خروجه أيضاً بدخوله الجيش . ولكن هذه الكوميديا تنهى نهاية سعيدة بظهور الحقيقة وهي أن الحرب العالمية الثالثة لم تنشب ويتم زفاف الخطيبين بعد ثلاثة فصول من الأوهام التي يعيش فيها الأب والأم . فكل منهما يعاني من عاهة نفسية أو من جرح عميق يجعاه يخبئ في الأوهام ويتمسك بأسخف الآراء . وفي « الأصوات الداخلية » هناك رجل يستمع دائماً إلى إلهامه الباطني فقلبه دليله ، وكل شيء يدرك عنده بالحدس . هذا الرجل يتهم أسرة من الأسر بأنها اشتركت في قتل أحد أصدقائه . ولكنه يكتشف فيما بعد أن هذا كان حليماً أو وهماً ، لأن صديقه مازال على قيد الحياة . أما الأسرة فلا تنفي التهمة لأن كل فرد فيها يعتقد أن أي فرد آخر في الأسرة كان يمكن أن يقتل ذلك الرجل .

وأوسع مسرحيات إدواردو شعبية هي مسرحية « فيلومينا مارتورانو » (١٩٤٦) وهي تدور حول موضوع رجل يهدى بغياً إلى طريق الفضيلة . والبغى فيلومينا جاءت من حثالة نابولي ، وقد أنقذها من الفقر المدقع سرىً من سراة نابولي يدعى دومينيكو سوريانو ، فقد عاشت معه سنوات عديدة . وعندما تجاوز دومينيكو الخمسين رأى أن يؤسس أسرة حقيقية ، وأن يتزوج بنتاً جميلة ، محترمة تصغره سنّاً . وحين عرفت فيلومينا ذلك ادعت المرض وتماوتت وطلبت أن ترف إلى صاحبها دومينيكو وهي على فراش الموت ، فلم ير دومينيكو بأساً من ذلك . ولكن ما إن تمت مراسم الزفاف حتى نهضت فيلومينا من فراشها وهي في سعادة

غامرة ، وهنا أدرك دومينيكو أنه خدع . ولكننا نعلم أن فيلومينا لم ترتكب هذه الخديعة بدافع أناني وإنما لتعطي وضعاً شرعياً لأولادها الثلاثة الشبان . ويبدأ دومينيكو الغاضب باتخاذ الإجراءات القانونية لإبطال هذا الزواج الذي تم بالتحايل ، ولكن فيلومينا تخبره أن أحد هؤلاء الأبناء الثلاثة ابن منه ، دون أن تحدد أيهم ، لأنها ترفض التمييز في المعاملة بين أولادها . وهنا يقتنع دومينيكو بأن زواجه من فيلومينا هو الأمر الطبيعي ، وينبذ فكرة البحث عن زوجة جديدة . ويكون قد نجح في إبطال الزواج بالتدليس ، ولكنه يعقد قرانه على فيلومينا من جديد بإرادته ويتبنى أولادها الثلاثة .

هذه نبذة عن إدواردو دي فيليبو الممثل الكاتب صاحب فرقة إدواردو الشهيرة ، وهو الآن في الثانية والسبعين من عمره ، فقد ولد عام ١٩٠٠ ومع ذلك تراه على المسرح وتلقاه في الحياة فتجده في حيوية ابن الثلاثين . رأيت إدواردو على المسرح ، فرأيت معجزة . وأنا لا أعرف من اللغة الإيطالية ما يمكنني من الحكم على قيمة أعماله من الناحية الأدبية ، ولكن إذا أردت أن تعرف ماذا يفعل إدواردو على المسرح ، فتذكر الريحاني بوجهه الحشن الملامح وجسمه الحشن البنيان ، لا تعرف أتسخر منه أم ترثى له ، لأنه حتى في وسط التهريج يهز وترّاً في قلب الإنسان لأنه يمثل الإنسان الطيب المسحوق . ولكن إدواردو هو الريحاني مضروباً في ثلاثة ، الريحاني بغير جمهور ، الريحاني الغليظ الذي يفرض غلظته على النص والأداء . وأنا شخصياً لا أميل كثيراً لهذا النوع من الفن

المسرحي ، من كوميديا المواقف ، بل لا أميل إلى الكوميديا ديلارتي التي يقال بمبالغة شديدة إنها تؤلف في أثناء التمثيل ، أي أن الممثل فيها مؤلف يكسو هيكلها العظمى بنسيج الحوار تبعاً للموقف ، لأنني أفضل المسرح الأدبي دائم القيمة على المسرح الفني ، حيث المؤلف الممثل بمثابة أسطى أو صنايعي ماهر في فن المسرح ، ولا سيما في الحركة والحوار اللاذع . وحين جلست نحو ساعة مع إدواردو العظيم أناقشه في أصول فنه ، وجدته دائم الرجوع إلى اسم موليير ، كأنما موليير كان قبسه وهداه . وحررت ماذا أقول له : أي موليير يقصد ؟ موليير « سكابان » أم موليير « البخيل » و« النساء العالمات » و« البورجوازي النبيل » ؟



سلسلة (اقرأ)

الكتب التي نشرت فيها منذ
صدورها في يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

- ١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين) ٥٨ خاتمة المطاف (علي الجارم)
٦ شاعر ملك (علي الجارم) ٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد) ٦٢ مرح الوليد (علي الجارم)
١٤ من يوميات فتاة عصرية ٦٣ رقيق الأرض (نظمى أوقا)
(حسين شوقي) ٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحي)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حتى) ٨٧ غادة رشيد (علي الجارم)
١٩ سيادة القصور (علي الجارم) ٩٢ الجامعة (أمينة السعيد)
٢٢ جحا في جانبولاد ١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
(محمد فريد أبو حديد) ١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحاني)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان) ١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
٣٢ الشيخ قرير العين ١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
(كرم ماجم كرم) ١٢١ عذراء الأندلس
٣٤ فارس بنى حمدان: أبو فراس (أحمد الصاوي محمد)
الحمداني (علي الجارم) ١٢٢ أشطر من إبليس (محمد تيمور)
٤٣ عنتر بن شداد ١٢٩ زامر الحى (محمد تيمور)
(محمد فريد أبو حديد) ١٣٠ في بطون الليالي (رشاد دارغوث)
٥١ الشاعر الطموح: المتنبي ١٣٥ ليلي العفيفة (عادل الغضبان)
(علي الجارم) ١٣٦ أبو علي الفنان (محمد تيمور)

- ١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون في الوطن (إبراهيم المصري)
 ١٤٥ عيون معصوبة (محدود كامل) ٢٨٣ دماء في الفجر (فاروق حلمي)
 ١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجي) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفي عبد الله)
 ١٥٣ دماء وطنين (يحيى حقي) ٢٨٧ قصص من جوته
 ١٥٥ بنت يزيد (سامي الكيالي) (عبد الغفار مكاوي)
 ١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
 ١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
 ١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
 (عبد الله القرشي) ٢٩٢ شىء من الخوف (ثروت أباطة)
 ١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوي)
 ١٨٣ الثريا (كمال بسيوني) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحي)
 ١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
 ١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمروسي)
 ١٩٩ عرس وماتم (البدوي الملمم) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
 ٢٠٠ مواطن أمام القضاء ٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً وقصص
 (فاضل السباعي) أخرى (فتحي رضوان)
 ٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إني صاعدة (حلمى سلام)
 ٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادي السعيد (لويس عوض)
 ٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العناني) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
 ٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصري) ٣٥٠ دهوع في عيون ضاحكة
 ٢٤٠ نفوس تتكلم (وداد سكاكيني) (يوسف جوهر)
 ٢٧٣ مذكرات طيبية (نوال السعداوي) ٣٥١ من أخطاء القضاء
 ٢٧٦ صنيعه الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوي)
 ٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبة رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

الأدب

- ٢ شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة ٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
 (عباس محمود العقاد) ١٠٢ من نافذة العقل
- ٤ عود على بدء (د. نقولا فياض)
- (إبراهيم عبد القادر المازني) ١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن
- ٨ مذكرات دجاجة الضحك (عبد الستار أحمد فرج)
- (د. إسحق موسى الحسيني) ١١٨ المعذبون في الأرض
- ١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد) (د. طه حسين)
- ٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس) ١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم
- ٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين) (د. محمد سامي الدهان)
- ٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل ١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء
 وابن الأحنف (د. زكي مبارك) (توفيق الحكيم)
- ٣٣ في بيتي (عباس محمود العقاد) ١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
- ٤٧ أبو زيد اللطالقي أمين الريحاني (فاروق عبود)
- (محمد فهمي عبد اللطيف) ١٤٧ مارس يحرق معداته
- ٤٩ بين البحر والصحراء (عيسى الناعوري)
- (شفيق جبري) ١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد
 وتيهور والزيات وأبو حديد والعريان
 والشناوي (عباس خضر)
- ٥٩ الجواري (د. جور عبد النور)
- ٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجري)
- ٧٦ ثم غربت الشمس ١٨٢ لمحات من الأدب الروسي
 (د. ستهير القماماوي) (ماهر نسيم)
- ٨٣ من نافذة دون جوان (لطفى عبد البديع) ١٩٣
 (إبراهيم عبد القادر المازني)

- ٢٠٣ القومية العربية في الأدب ٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
الحديث (د. محمد زغول سلام) ٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
٢٢٠ الحب المثالي عند العرب (محمد بدر الدين خليل)
(د. يوسف خليف) ٣٣١ البطولة في الشعر العربي
٢٢٦ النفس الإنسانية في أدب (د. شوقي ضيف)
الجاحظ (سامي الكيالي) ٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٢٣٣ المرأة في شعر البحري ٣٣٧ في اللغة والأدب
(د. نعمات أحمد فؤاد) (د. إبراهيم بيومي مدكور)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش) ٣٤٢ صراع الأجيال في أدبنا المعاصر
٢٤٨ من الأدب الإفريقي (غالي شكري)
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقي ضيف) ٣٤٦ ذكريات عارية
٢٦٠ دعاء (علي أمين) (د. السيد أبو النجاء)

السير والتراجم

- ٥ ديستوفسكي (حسن محمود) ٣١ الغزالي (طه عبد الباقي سرور)
٧ الشاعر الرجيم بودلير ٣٥ جوته (صديق شيبوب)
(عبد الرحمن صدقي) ٤٢ قصة عبقرى: الخليل بن أحمد
١٥ بايرون (أمينة السعيد) (يوسف العيش)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد، ٤٦ الشيخ الرئيس ابن سينا
ز. ن. محمود، أ. خاكي) (عباس محمود العقاد)
٢٤ لا فوازيه (عبد الحميد يونس ٥٠ تشيخوف (نجاتي صدقي)
وعبد العزيز أمين) ٥٤ تولستوى (حسن محمود)
٢٨ بوشكين (نجاتي صدقي)

- ٦٥ عمر بن عبد العزيز ١٢٧ شلى (أحمد الصاوى محمد)
- (أحمد زكى صفوت) ١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
- ٦٨ جمال الدين الأفغانى ١٤٠ عائشة بنت طلحة
- (عبد القادر المغربى) (كمال بسيوفى)
- ٧٠ الجبرتى (خايل شيبوب) ١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم
- ٧٢ فولتير (سليم سعده) (محمد عبد الغنى حسن)
- ٧٧ المغنى المجنون : كاروزو ١٤٣ ابن عمار (ثروت أباطة)
- (أحمد الصاوى محمد) ١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة
- ٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى) (وداد السكا كينى)
- ٧٩ بيرانديلر (محمد أمين حسونة) ١٦٢ مكسيم غوركى (نجاتى صدقى)
- ٨٢ فرانزليست (خايل هنداوى) ١٦٤ دانتى (مصطفى آل عيال)
- ٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبو النصر) ١٧٢ المتعرون (أحمد طه السنوسى)
- (وهدى حبيشة) ١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
- ٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد) ١٩٢ أدباء من الجزائر
- ٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (د. إبراهيم الكيلانى)
- (محمد محمد فياض) ١٩٧ جان جاك روسو
- ٩٩ نساء محاربات (صوفى عبد الله) (د. محمد سامى الدهان)
- ١١٢ مع طه حسين (سامى الكيالى) ٢٠٤ فيكتور هوغو (د. جورج زايد)
- ١١٣ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد) ٢٠٧ الناصر صلاح الدين
- (د. محمد سامى الدهان)
- ١١٥ الإمام المراغى (أنور الجندى) ٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
- ١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم) (محمد كامل حته)
- ١٢٥ الصديقة بنت الصديق ٢٣٢ أبو القاسم الشابى
- (عباس محمود العقاد) (رجاء النقاش)

- ٢٥٠ ابن حمد يس الصقلي (علي مصطفى المصراقي) مع طه حسين . الجزء الثاني (سامي الكيالي)
- ٢٥٤ من أعلام الحرية في العالم العربي (د . حسين فوزي) سنڊباد في رحلة الحياة (د . حسين فوزي)
- ٢٥٦ عشرة من الخالدين (إبراهيم المصري) ٣٢٤ هوثي منه (جورج عزب)
- ٢٦٩ قابو الخالدين (إبراهيم المصري) (د . جمال الدين العطيني) ٣٣٦ م . أيام خالدة في حياة عبدالناصر
- ٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول (د . علي حسني الحربوطلي) ٣٤٠ محمد عبدالوهاب (محمود عوض)
- (د . علي حسني الحربوطلي) ٣٤٩ هؤلاء علموني (سلامة موسى)

سياسة وعلاوم سياسية

- ٩ المذاهب السياسية المعاصرة (علي أدهم) ٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
- ٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت) (فتحى فوزى عبد المعطى) ٢٧٤ المزاعم الصهيونية في فلسطين
- ١٠٧ تحرير وادى النيل (محمود كامل الميمى) ٢٧٥ الوحدة الإفريقية
- ١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان) (محمد فيصل عبد المنعم) ٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
- ١٧ هذا الشرق العربى (فتحى رضوان) (محمد فيصل عبد المنعم) ٢٩٦ البترول العربى في المعركة
- ٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د . علي حسني الحربوطلي) (د . محمود أمين) ٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر
- ٢١٦ وحدة العرب (إبراهيم الدسوقي البساطي) (لطفي الخولي)

- ٣١١ حرب الأفيون (د . محمد دظهر سعيد)
 (محمد العزب موسى) ٣١٩ في مواجهة إسرائيل
 ٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩ (إسماعيل صبرى عبد الله)

علم النفس

- ١٠ شفاء النفس (د. يوسف مراد) ٢٠٢ الإرهاق العصبي (نظمى خليل)
 ٨٠ الحب والكراهية ٢١٧ لكى تكون سعيداً
 (د . أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
 ٩٨ الخوف (د. أحمد فؤاد الأهوانى) ٢٢٩ الطريق إلى النجاح
 ١٣٣ النسيان (د. أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
 ١٣٧ سيكولوجية الجنس ٢٣٦ عاليج نفسك (د. كمال دسوقى)
 (د . يوسف مراد) ٢٥٧ أمراض نفسية (د. كمال دسوقى)
 ١٥٦ النوم والأرق ٢٦٦ النقائص والنجاح
 (د . أحمد فؤاد الأهوانى) (ضياء الدين أبو الحب)
 ١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى) ٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
 ١٦٦ الأحلام والرؤى (د. عبد الكريم دهينة)
 (عبد العزيز جادو) ٣٠٧ قالت له
 ١٧٠ القلق (د. أبو مدين الشافعى) (محمد زكى عبد القادر)

علوم

- ١١ الكون العجيب ٣٦ مع الحيات
 (قدرى حافظ طوقان) (د. حسين فرج زين الدين)
 ٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

٣٨	العلم والحياة	١٣٢	البساط السحري
	(د . علي مصطفى مشرفة)		(عبد السلام فهمي)
٤٨	غرائب الحيوانات	١٤٩	بين البقاء والبقاء
	(محمد محمد فياض)		(قدرى حافظ طوقان)
٥٢	النار الخالدة (فؤاد صروف)	١٥٤	أينشتين والعالم
٥٥	مع الأسماك		(محمد عاطف البرقوقي)
	(د . حسين فرج زين الدين وهوى باسيلوس)	١٧١	حرب الحمامات
			(د . عبد الحليم منتصر)
٦١	الموج الساحر	١٧٨	الصعود إلى المريخ
	(محمد عاطف البرقوقي)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
٦٦	مملكة العناري	١٨١	هجرة الحيوال
	(د . أحمد زكي أبو شادي)		(د . أحمد حماد الحسيني)
٧٣	أسرار الحياة	١٨٥	الغبار الذرى
	(د . مصطفى عبد العزيز و د . عبد العزيز أمين)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
		١٨٩	عصر الالكترونات
٧٥	العيون فى العلم		(د . جورج وهبه العنى)
	(قدرى حافظ طوقان)	١٩١	الحزات الزلزالية
٨٤	الوراثة والجنس		(محمد على المغربى)
	(د . عبد الحليم منتصر)	١٩٦	قوى الطبيعة فى خدمتك
٩٠	قصة البترول		(محمد جمال الدين الفندى)
	(يوسف مصطفى الحارونى)	١٩٨	الكالف الشمسى
٩٣	العالم سنة ٢٠٠٠		(محمد على المغربى)
	(على عبد الجليل راضى)	٢١٤	عصر التليفزيون
١٠٠	قصة العناصر (امبابى أحمد)		(د . جورج وهبه العنى)

٢٤٩	عصر الطاقة الشمسية	٣٠٨	البحر والناس
(د . جورج وهبه العنق)	(د . سيد حسن شرف الدين)		
٢٥٥	العالم الأخرى	٣٣٤	ماذا نستخرج من البترول
(د . محمد جمال الدين الفندى)	(د . جورج وهبه العنق)		
٢٦٣	عجائب الأرض والسماء	٣٤٥	مذكرات ذرة
(د . محمد جمال الدين الفندى)	(عبد المحسن صالح)		
٣٠٣	من عجائب الحياة		
(فوزى الشوى)			

جغرافيا ورحلات

١٦	دمشق مدينة السحر والشعر	١٧٣	الجزر الخضراء: أندونيسيا
(محمد كرد على)	(حبيب جاماتى)		
٢٧	بغداد مدينة السلام (طه الراوى)	١٧٧	صور من إفريقيا
٤٠	مهده العرب (د. عبد الوهاب عزام)	(د . محمد محمود الصياد)	
٤٥	مشاهدات فى الهند (أمينة السعيد)	٢٠٦	جولة فى الإقليم الشمالى :
٦٩	رحلة الربيع (د . طه حسين)		سوريا (د . يوسف سماره)
٨١	فى بلاد النجاشى	٢١٨	الشفق القطبى (محمد على المغربى)
(د . مراد كامل)		٢٢٥	المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
١٠٤	أرض المعجزات (د. بنت الشاطىء)	٢٣٠	الجغرافيون العرب
١٦٣	غرائب من الرحلات	(مصطفى الشهابى)	
(محمد عبد الغنى حسن)		٣١٧	صور باريسية
١٦٨	القارة العذراء	(يوسف فرنسيس)	
(محمود العزب موسى)		٣٢١	الإنسان الأوروبى فى الجرد واللعب
		(عبد الستار الطويلة)	

طب وصحة

- ٢٥ قصة البنسليين ٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
- (د . مصطفى عبد العزيز) ٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
- ٤١ الفيتامينات ٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهري)
- (د . مصطفى عبد العزيز) ٢٧٢ الجسد والميكروب
- و د . محمد رشاد الطوبى (د . مصطفى عبد العزيز)
- ٤٤ قصة العدوى ٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية
- (د . محمد عبد الحميد جوهر) (د . جورج وهبه العفي)
- ٦٤ الأغذية الشعبية ٢٨٥ فيتامينات وهرمونات
- (حسن عبد السلام) (د . محمد صدقى عبده)
- ٧١ الهرمونات (د . فؤاد خليل) و د . محسن الدناصورى
- و د . محمد رشاد الطوبى (د . نجيب الأبراشى)
- ١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام) ٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة
- ١٢٤ قصة العقاقير (د . محمود محمد سلامة) (أسامة أمين العطار)
- ١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق) ٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة
- (د . أسامة أمين العطار) (د . أسامة أمين العطار)
- ١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين) ٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
- ٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمى) (د . فاروق مرشد)
- ٢٢٤ الأسنان : أمراضها وعلاجها ٣٣٦ النفس والبدن (د. ابراهيم فهميم)
- (د . حلیم الكدوانى)

تاريخ

- ٣٧ العناصر النفسية في سياسة العرب ١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس
(شفيق جبرى) (د. السيد محمود عبد العزيز)
- ٥٣ قصة الكتابة العربية ٢١١ الفروسية العربية في العصر
الجاهلي (د. إبراهيم جمعة)
- ٨٦ الوعد الحق (د. طه حسين) (سيد حنى)
- ٩٤ طرائف من التاريخ ٢١٣ الألعاب الأولمبية
(مصطفى الشهابي) (مصطفى الشهابي)
- ٩٥ من أضواء الماضي (سامي الكيالي) ٢١٥ قصة ملكة سبأ
(زاهر رياض)
- ١٠٣ المهدي والمهدوية (د. أحمد أمين) (د. جمال الدين الرمادي)
- ١١١ الصلح والفتوة في الإسلام ٢٣١ صور من كفاح الشعب العربي
(د. أحمد أمين)
- ١١٧ تيجان تهاوت ٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية
(محمد عبد الغنى حسن) (د. على حسنى الخربوطلى)
- ١٣٤ أساطير مصرية ٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ
(د. عبد المنعم أبو بكر) (محمد محمود زيتون)
- ١٣٨ الجمعيات السرية (على أدهم) ٢٩١ الكعبة على مر العصور
(د. على حسنى الخربوطلى)
- ١٤٤ ابن بطوطة (د. إبراهيم أحمد العدوى)
- ١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوروبا ٣٢٢ قناة السويس في مائة عام
(د. محمد عبد الرحمن برج)
- ١٨٨ الثورة العرابية ٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعى)
(د. إبراهيم أحمد العدوى) (محمد عصام المرشدى)

اجتماع

- ٨٨ الهنود الحمر (د . علي عبد الواحد وافي) ٢٤٢ تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية (د . محمود سلام زناتي)
- ١٠١ ملامح من المجتمع العربي (محمد عبد الغني حسن) ٢٦٢ بقايا كل شيء (أنيس منصور)
- ١٥٠ وعى الشباب (واصف البارودي) ٢٦٤ ٥٥ مشكلة حب (د . مصطفى محمود)
- ١٦٠ حبات المسبحة (يحيى حتى) ٢٧١ نماذج من النساء (محمد زكي عبد القادر)
- ١٦٩ عادات الزواج وشعائره (أحمد الشنتناوي) ٢٧٩ مع الآخرين (أنيس منصور)
- ٢٢١ التصنيع طريقنا إلى القوة والرخاء (د . حسن الأشموني) ٢٩٤ كوكب الإنسانية (أحمد حسين)
- ٢٢٢ الحياة المثالية وكيف نحققها (م . أحمد حماد) ٣٢٠ مذكريات زوج (أحمد بهجت)
- ٢٢٨ التعبئة الروحية في بناء المجتمع (د . حسن الأشموني) ٣٢٩ رسائل إلى والدي خالد (البادوي الملم)
- ٢٤١ نحو حياة مشرقة (عبد العزيز جادو) ٢٤٨ نحو النور (محمد زكي عبد القادر)

محتويات الكتاب

٥	الباب الأول : رحلتي الروسية	
٧	١٠ أيام في يوجسلافيا	الفصل الأول
٢٣	التجربة اليوجسلافية	الفصل الثاني
٣٩	مأساة يوجسلافية ، وملهاة روسية	الفصل الثالث
٥٤	موسكو ، مدينة القباب والأخلاق الفاضلة	الفصل الرابع
٦٩	رحلة في عقل « ساشاسخاروف »	الفصل الخامس
٨٥	الباب الثاني : رحلتي الأمريكية	
٨٧	أمريكا : كيف تراها ولا تراها	الفصل السادس
١٠٧	إمكانات الحوار في المجتمع المصري	الفصل السابع
١٢٢	مصر وما وراء البحار	الفصل الثامن
١٣٩	المسألة المصرية	الفصل التاسع
١٥١	الباب الثالث : رحلتي الأوروبية	
١٥٣	مداولات ثقافية	الفصل العاشر
١٦٦	ما كبث الحديد	الفصل الحادي عشر
١٨٥	في النساء والرجال	الفصل الثاني عشر
١٩٩	الزهرة السوداء	الفصل الثالث عشر
٢١٣	٥ أيام في روما	الفصل الرابع عشر

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٢٧٨١ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢



Bibliotheca Alexandrina



0399733

POSTES